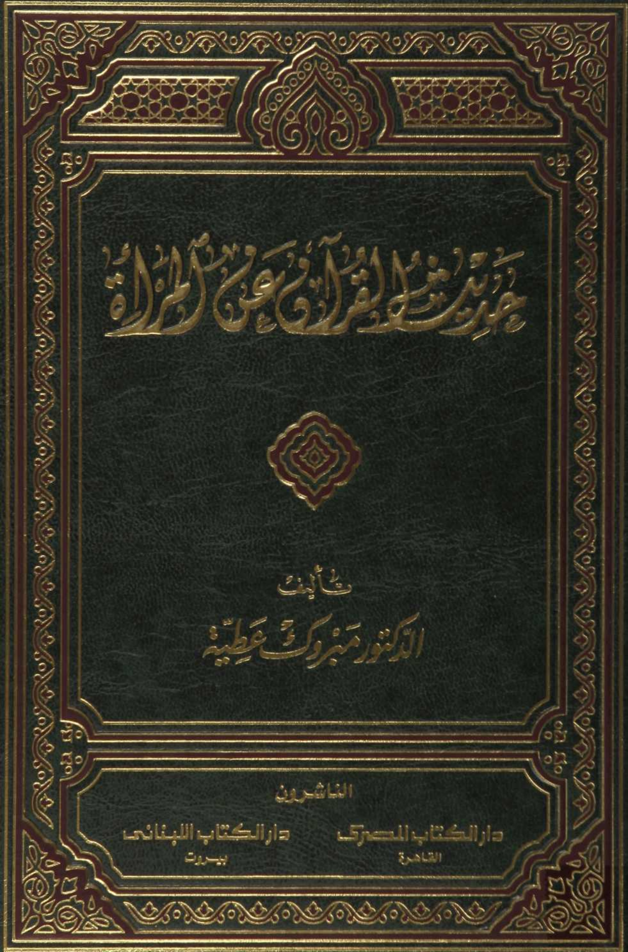


حديث القرآن عن المرأة
تأليف
الدكتور مبروك عطية
الناشرون
دار الكتاب المصرى
القاهرة
دار الكتاب اللبنانى
بيروت

حديث القرآن عن المرأة



تأليف

الدكتور مبروك عطية

الناشرون

دار الكتاب المصرى
القاهرة

دار الكتاب اللبنانى
بيروت

رقم الإيداع
٢٠٠٨/٨٢٠٦

I.S.B.N
978-977-453-038-8

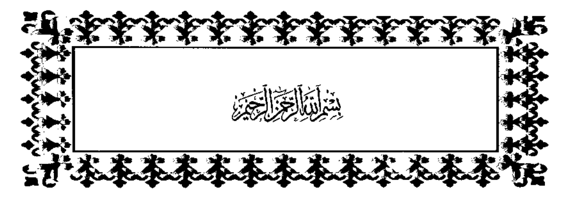
دار الكتاب المصري
القاهرة
٣٣ شارع قصر النيل - تليفون: ٢٣٩٢٢١٦٨ / ٢٣٩٣٤٣٠١ / ٢٣٩٢٤٦١٤
ص.ب: ١٥٦ العتبة الرمز البريدي ١١٥١١ - القاهرة - ج.م.ع
فاكسميلي ٢٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
Fax: (202) 23924657 القاهرة ATT: Mr. Hassan El-Zein

دار الكتاب اللبناني
بيروت
شارع مدام كوري - تجاه فندق بريستول - بيروت
تليفون: ٧٣٥٧٣٢ ص.ب: ٨٣٣٠ - ١١
بيروت - لبنان - فاكسميلي ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
Fax: (9611) 351433 بيروت ATT: Mr. Hassan El-Zein

الطبعة الأولى
١٤٣١ - ١٤٣٢ هـ - ٢٠١٠ - ٢٠١١ م

First Edition
A.D. 2010-2011 - H 1431-1432

Website: www.daralkitabalmasri.com
E-mail: info@daralkitabalmasri.com



الحمد لله الذى أقسم فى كتابه بخلقه الذكر والأنثى، على أن سعينا لشتى، والصلاة والسلام على نبى الهدى رسول الإسلام محمد صلاة تصعد ولا تنفد، وتتصل ولا تنفصل، وعلى آله الطيبين وصحبه الغر الميامين، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فحديث القرآن الكريم عن المرأة حديث رب العالمين الذى خلق فسوى وقدر فهدى وأخرج المرعى فجعله غثاء أحوى، لا يضل من قرأه واتبعه نوراً يهديه فى غياهب الفكر وظلمات البشر الذين طالما نظروا إلى المرأة على أنها إثارة جنسية، ومصدر خطر على الرجال ذوى الألباب غير فاهمين ما ينطوى عليه الحديث الصحيح الوارد فى ذلك، والذى غايته إبراز مكانة المرأة وسمو منزلتها عند الرجل، وأن لها فى حياته وجوداً أى وجود، فهى أذهب لعقله من معادن الأرض وزينة الدنيا، وصدق الله العظيم إذْ يقول: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ (١) ولنا أن نعد متاع الحياة الدنيا كما ذكره ربنا – عز وجل – فى هذه الآية من سورة آل عمران.

١– النساء.

٢– البنون.

---

(١) آل عمران آية ١٤.

٣- ما لا يحصى من الذهب والفضة والجنيه والدولار والريال والدرهم والليرة وغيرهن.

٤- الخيل وما يحمل عليها من الظهر.

٥- الأنعام والماشية مصدر اللبن واللحم والصوف والوبر.

ولنا بعد هذا العدّ أن نقول: إنّ أول المتاع النساء، وفي اختصار شديد نقول: وللإسلام طريق واحدة للاستمتاع بالنساء هي الزواج.

وفي ذلك حديث متكرر في القرآن الكريم ﴿ **وآتوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَة فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عن شيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا** ﴾[١] والحديث عن صداق الزوجة لا البغيّ، ويقول تعالى في سورة النساء أيضًا ﴿ **وأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُم أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِين غَيْرَ مُسَافِحِين** ﴾[٢] .

وفي الآية (٢٥): ﴿ **وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أن ينكح الْمُحْصَنَات الْمُؤْمِنَات فَمِن مَّا ملكت أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَات وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوف** ﴾[٣] وغير ذلك من آيات النساء والمائدة والممتحنة، والطلاق، فلا علاقة في الإسلام للاستمتاع بالمرأة إلا الزواج بها على صحة الأركان من الولي والصداق والعدلين من الشهود والإيجاب والقبول، فلا إكراه في الدين دخولاً فيه، ولا ممارسة لحياة تحت نور هديه وإرشاده وتوجيهه.

إننا نقرأ القرآن الكريم، ونتعبد بتلاوته، ونتدبر معانيه، وعلينا ونحن نقرأ في كتاب ربنا أن نقف عند وحدة مشتركة بين الرجل والمرأة، وأن نستلهم منها العبرة وما من شك في أن هذا المنهج سوف يغنينا عن محاضرات وكتب ومصنفات حول قضية المرأة، وكل ما تتضمنه العناوين من ذكر كلمة المرأة، وكأنها مخلوق غريب يصطدم مع رياح الزمن تارة تلقى به هنا، وتارة تلقى به هناك، مع خطأ وخطر في التناوب بإسقاط فلسفات لا أصل لها، لذا آثرت أن يكون عنواني «حديث القرآن عن المرأة»

---

(١) النساء الآية: ٤ . (٢) النساء الآية: ٢٤ . (٣) النساء الآية: ٢٥ .

حيث آمل أن ألتقي مع القراء حول كتاب الله عز وجل نتلوه ونتدبر معًا معانيه ونستعيد ماضيًا يجب أن يستعاد، ونناديى في كل العباد والبلاد هذا كتاب ربنا ينطق بالحق، فهلموا إلى الحق، فليس بعده إلا أوهام الضلال.

والله تعالى يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أ.د. مبروك عطية

الأستاذ في جامعة الأزهر

والداعية الإسلامي

الفصل الأول

الوحدة بين الرجل والمرأة

هناك اتحاد أو بلغة النحو اتفاق كما أن هناك افتراقًا، فهل هناك وحدة بين الرجل والمرأة فى القرآن الكريم، أو هل هناك مناحى اتفاق بينهما؟ والجواب نعم، وإليك البيان.

١- وحدة الأصل

حين قال النبى ﷺ «**كلكم لآدم وآدم من تراب**»[١] لم يكن يعنى الرجال دون النساء، وإنما الخطاب للرجل والمرأة على سواء، فالرجل والمرأة من نفس واحدة وفى آية آل عمران ﴿**مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ**﴾[٢] وفى آية القيامة ﴿**أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩)**﴾[٣] .

فالله عز وجل خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة واحدة.

٢- وحدة العنصرين

ولكل إنسان أب وأم، وهما عنصرا الوجود، قال تعالى فى مطلع سورة النساء: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾[٤] .

٣- وحدة النصيب

فى بلاغة متناهية يقول ربنا تعالى فى سورة النساء ﴿**لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ**

---

(١) رواه البزار فى مسنده عن حذيفة.

(٢) آل عمران ١٩٥. (٣) القيامة: من ٣٦ – ٣٩. (٤) النساء: ١.

الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾(١) .

ذمة مالية للرجل، وذمة مالية للمرأة.

٤- وحدة التكليف

والمرأة مكلفة كالرجل، ومناط التكليف العقل فيهما، فإن فقد أحدهما عقله فلا تكليف، ومما يُرَدُّ فيه العقدُ الجنون عند كل منهما، والعنة عند الرجل والرتق عند المرأة بحسب ما خلقهما الله عز وجل.

وفي عموم القرآن الكريم حين يأتي الخطاب بيأيها الناس يكون المراد منه الرجل والمرأة معًا بلا خلاف، وكذلك قوله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾.

وإنما أوثر التعبير بالمذكر، وفق سنة العربية من التغليب، والتغليب لا يغض من قيمة المرأة ولا يواريها تحت غطاء، ولا ينأى بها بعيداً.

فما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ

ولا التذكيــر فخــرٌ للهــلال

هكذا عرف الناس المعاني منذ زمان طويل بعيد، ولكن عين التعصب كليلة عن رؤية الحق، فهي عمياء وإن كانت تكشف، وأقول « تكشف » ولا أقول « ترى » لما في الرؤية من بشارة بالوصول إلى الحق.

وقد غُلِّبَ عُمَرُ عَلَى أبى بكر (رضي الله عنهما) مع سبق الصِّدِّيق، ووضوح فضله، فقيل « العُمَران » ولم يقل « البكران ».

وقد غُلِّبَت المرأة فى القرآن على الرجل فى آيات كثيرة، ورد فيها لفظ « والدين » فالرجل لا يلد وإنما تلد المرأة، قال تعالى ﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ ﴾(٢) وقال

---

(١) النساء: ٧.

(٢) البقرة: ٢١٥.

تعالى: ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ ﴾[1] وقال سبحانه ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[2] إلى آخر ذلك من الآيات الكثيرة، ومعنى ذلك أن الأب نال شرف كونه والداً من المرأة، وقد غلبت عليه؛ لأنها هي التي حملت حملاً خفيفًا فمرت به، ثم أثقلت، ولاقت ما لاقت من الآلام والأوجاع، وهو إذا نظر فى حقيقة هذا التغليب اكتشف أنه لابد عليه أن يشاركها هذا الألم ليستحق كلمة «والد» ليس فقط بالإنفاق كما هو وارد فى كلام العلماء القديم، وإنما بالوجدان الصادق، والعاطفة القوية الصادقة، فكلما توجعت توجع مثلها براً وإشفاقًا وعناية واهتمامًا، وكم من مريض يمرض بسبب مرضه محبوبه وأقرب الناس إليه، ولدينا موروث حضارى فى ذلك:

مرض الحبيب فزرته فمرضت من فزعى عليه

وأتى الحبيب يعودنى فشفيت من نظرى إليه

حيث زار محب حبيبه المريض، فلما رآه على هيئة الضعف والذبول مرض، ورجع عليلاً وكان قد أتاه صحيحًا، فلما شفى حبيبه جاء ليزوره، كما زاره، فلما رآه بعافية قام وكأنه نشط من عقال.

وتلك ثمرة الحب

ننادى بها مَنْ يدعى الحب، ومن يتوهم أن المرأة مجرد وعاء، وهكذا خلقها الله عز وجل، وماذا عليه من حق وواجب وهو الذى يوفر حاجتها، ويدفع للطبيبة التى تعالجها أجرها ثم يتجه إلى الصيدلية، ويشترى لها الدواء، ثم يتجه بها إلى البيت ومعه بعض الثمرات وقطع اللحم أو الدجاجة، وقد ألقى بذلك ما فيه وتخلى، واتجه إلى أصدقاء الأنس والفرفشة، وإن كان متحليًا ببعض آيات الكرم قال لها قبل خروجه من بيت تئن فيه وحدها:

-إن احتجت إلى شىء فاتصلى بى من خلال المحمول لا تترددى... ثم يجرى.

---

(١) البقرة: ١٨٠.

(٢) النساء: ٣٦.

هذا فيه قتل لكثير من النساء اللواتي يشعرن بما لا تعبر عنه الكلمات من بغض للحياة، وكره للعلاقات الزوجية، فإنَّ العطاء المادى - وهو مهم جداً - حرص الإسلام على أن يكون مصحوبًا بالعطاء المعنوى، ليكون فيه عرس للروح كما أن فيه غذاء للبدن، وإذا ثبت أن النبى ﷺ كان فى خدمة أهله مع أنه لم ينجب إلاّ من خديجة (رضي الله عنها) فخدمة الرجل أهله ومشاركتهم حال الحمل والولادة من باب أولى .

٥ وحدة الوصف

وليس أدل على وحدة الوصف من قوله تعالى فى سورة الأحزاب ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾(١) .

والوصف بالإسلام، والإيمان، والقنوت، والصدق، والصبر والخشوع، والتصدق، والصوم، وحفظ الفرج، وذكر الله كثيرًا - عشرة أوصاف واحد للرجل والمرأة دون تفريق .

وكما يطيب لكثير من الناس أن يتحدث عن سيدنا الولى المعروف بالإسلام، والإيمان، والقنوت، إلى آخر العشرة كذلك ينبغى أن يطيب لهؤلاء أن يتحدثوا عن سيدتنا الولية المعروفة بالصفات نفسها، فهذا حديث القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وكما أن الرجل مدعو إلى إصلاح زوجته التى يخاف منها نشوزًا أو إعراضًا، خاطب ربنا تعالى فى سورة النساء الرجال بقوله : ﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ . . . ﴾(٢) وفى السياق نفسه، والسورة نفسها قال عز من قائل : ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ

---

(١) الأحزاب : ٣٥ . (٢) النساء : ٣٤ .

خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[١] .

وفى سورة الأحزاب يقول الله تعالى ﴿**وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً**﴾[٢] وفى سورة غافر يقول سبحانه ﴿**وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ**﴾[٣] وفى سورة الفتح ﴿**وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ**﴾[٤] بهذا النسق، وهذا الجمع الذى ينبغى ألاّ يغيب عنا بل إنّ الصفة قد ترد مستغنيًا بها عن الموصوف لشهرته، فتشمل الرجال كما تشمل النساء، بهذا ورد النظم الجليل الكريم، قال الله – عز وجل – ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ**﴾[٥] أى الرجال والمؤمنون، والنساء المؤمنات.

والكلالة وصف مشترك كذلك بين الرجل والمرأة، قال الله – عز وجل: ﴿**وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ**﴾[٦] .

والكلالة: مَنْ لا ولد له ولا والد، وهى من كل الرحم بين فلان وفلان إذا تباعدت القرابة بينهما كما ذكر الخازن فى تفسيره وغيره، فالرجل يورث كلالة، والمرأة تورث كلالة، فإن كان له أو لها أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس، أى الأخ الوارث له السدس، أو الأخت الوارثة لها السدس كالرجل تمامًا بتمام فى تلك الحالة.

٧- الرضا بحكم الله عز وجل

وفى سورة الأحزاب يقول الله عز وجل: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾[٧] ومعنى ذلك عدم التفريق والاستثناء فى الرضا بما قضاه الله عز وجل، ورسوله ﷺ والآية فى سياق تزويج الله تعالى رسوله ﷺ زينب بنت جحش أم المؤمنين (رضي الله عنها).

---

(١) النساء: ١٢٨.　(٢) الأحزاب: ٥٠.　(٣) غافر: ٢٨.
(٤) الفتح: ٢٥.　(٥) التوبة: ٧١.　(٦) النساء: ١٢.
(٧) الأحزاب: ٣٦.

ومعنى ذلك أن للمرأة عقلاً كما أن للرجل عقلاً، والعقل يهدى إلى الاختيار بين البدائل، ولا اختيار للرجل إذا قضى الله عز وجل ورسوله ﷺ أمرًا، وكذلك المرأة.

٨- الرضا بشهادة الرجل والمرأة

وفى آية الدين، وهى أطول آية فى كتاب الله عز وجل لتعلقها بالمال والدَّيْن والمال قوام الحياة يقول الله عز وجل: ﴿ **فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ** ﴾[1] فلا عزوف عن الاستشهاد بالمرأة فإن فيها العدالة كما فى الرجل، غاية ما هنالك أن الله – عز وجل – قال: ﴿ **وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ** ﴾[2].

وقوله تعالى «أن تضل» معناه: أن تنسى، وليس الضلال الذى هو مقابل الهداية، بين ذلك الزمخشرى – رحمه الله – ومن جاءوا بعده من العلماء، فعلة العدد هى النسيان وهو فيهن أكثر على الغالب، ومراعاة الغالب ليس فيها انتقاص من الواعية الحافظة الذاكرة التى هى بنص كبار العلماء خير من رجال كثيرين، ورحم الله الشهاب الخفاجى حيث قال فى حاشيته على تفسير البيضاوى ٢ / ٣٥٠: «**وذلك لأن النسيان غالب على طبع النساء لكثرة الرطوبة فى أمزجتهن، واجتماع المرأتين على النسيان أبعد فى العقل من نسيان المرأة الواحدة**»[3].

وهذه المسألة من المسائل التى شغلت الناس قديمًا وحديثًا، وقد استمعت إلى أحد الأساتذة الذى يحاول أن يخرج الآية عن معناها مجاملة للمرأة، وإثباتًا أن شهادتها تعدل شهادة الرجل، وهذا ضرب من العبث، فالآية صريحة وإجماع علماء الأمة على أن الشهادة فى الأموال إما رجلان وإما رجل وامرأتان، ولا شىء فى ذلك يعيب المرأة أو ينتقص من عقلها وكرامتها كما ذكرنا عن العلماء – رحمهم الله – أن النسيان غالب عليهن للطبع، ومراعاة الغالب لا يقدح فى الرفيع الشأن، العزيز، وليس كل كبير

---

(١) البقرة: ٢٨٢. (٢) البقرة: ٢٨٢.

(٣) حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى، ط المكتبة الإسلامية ٢ / ٣٥٠.

عجوز يطرح السن عقله، وذاكرته، ومع ذلك قال الله تعالى في آية الحج: ﴿ **وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا** ﴾(١) .

وما صاح الرجال غاضبين معترضين قائلين، لكن فلان ابن مائة وعشرين سنة وذاكرته حديد وعلمه، والنساء بذلك إذا أردن الإنصاف يجب عليهن حمدا لله عز وجل – الذى خفف عنهن، وأمر بالأخذ بالأحوط، فكيف يفهم التخفيف على أنه انتقاص، وقد استجاب الله – عز وجل – سؤال موسى (عليه السلام) الذى سأله أن يعينه بأخيه هارون (عليه السلام) ردءاً يصدقه وفصاحة لسان يستعين بها، وأرسل الله عز وجل إلى هارون وما كان فى ذلك من انتقاص لشأن الكليم (عليه السلام)، بل كان فضلاً من الله – تعالى – عليه، ورحمة به.

كما أنه – عز وجل – من رحمته بالمرأة أعفاها من إعادة الصلاة أيام حيضها، لأن الصلاة كثيرة، وكلفها بقضاء ما عليها من صيام لأن الصيام قليل بالنسبة إلى الصلوات، وهذا بإجماع علماء الأمة إلاّ مَنْ شذ فقال: عليها إعادة الصلاة ولم يلتفت أحد إلى قوله.

٩- حال الاستضعاف

وكما يكون الرجل مستضعفًا تكون المرأة كذلك، فإنها يعتريها ما يعترى الرجل من مناخ القوة ومناخ الضعف، قال الله عز وجل فى سورة النساء: ﴿ **إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً** ﴾(٢) .

وهناك رجال لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، ونساء كذلك وولدان، فكل أولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله غفوراً رحيمًا.

١٠- مالهم وما عليهم

وتتحد النساء والرجال فى أن على الجميع واجبات ولهم حقوقا قال الله – عز وجل – فى آية البقرة: ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ**

(١) الحج: ٥ .   (٢) النساء: ٩٨ .

عزيزٌ حكيمٌ ﴾[١] .

وبدون طنطنة فى الكلام الكثير نقول : إن الله – عز وجل – فضل بعض النبيين على بعض، وبعض الملائكة على بعض، وبعض الأيام على بعض، وبعض الليالى على بعض، وبعض الأماكن على بعض، تلك سنة الله فى خلقه والله يخلق ما يشاء ويختار .

وقضية التفضيل متى وردت عن الله مالك الملك فلا مجال فيها للنفى الذى لن يثمر سمنًا، والحياة تعاون بين الرجل والمرأة وليست صراعًا بينهما .

ينبغى أن ينزه المسلم فكره عن عجن الأوراق بعضها فوق بعض، وإلاَّ هتفت ألوف المساجد، وقلن فى نفس واحد – لماذا تشد الرحال إلى المسجد الحرام، ومسجد النبى ﷺ، والمسجد الأقصى ولا تشد إلينا .

وهتفت كل الليالى قائلة : لماذا فضلت ليلة القدر علينا ! وهكذا .

ومع هذا فقد أجمع العلماء على أن من النساء امرأة تفضل عن كثير من الرجال .

١١ - الشهادة فى سبيل الله

والرجل ينال الشهادة فى سبيل الله، وكذلك المرأة، انظر إلى عبارة المؤرخين ومنهم ابن عبدالبر فى الاستيعاب ٤ / ٤١٩ حين ترجم لسمية أم عمار بن ياسر فقال : «**وسمية أم عمار أول شهيدة فى الإسلام**»[٢] .

ومعروف فى الفقه الإسلامى أن الجهاد يكون فرض كفاية ويكون فرض عين، فإن كان فرض عين بأن هجم الأعداء على ديار المسلمين قاتلت المرأة كما يقاتل الرجل، وهى معرضة للاستشهاد كما الرجل، ولها أجرها ونورها كما أن للشهيد من الرجال أجره ونوره .

---

(١) البقرة : ٢٢٨ .

(٢) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ٤ / ٤١٩ .

١٢- تمنى الشهادة

وكما سأل رجال رسول الله ﷺ أن يدعو الله لهم أن يرزقهم الشهادة كذلك سألت المرأة، وكما دعا النبى ﷺ للرجل أن ينالها دعا كذلك لأم مرام بنت ملحان ابن خالد بن زيد بن حرام من بنى النجار قال ابن عبدالبر فى الاستيعاب ٤ / ٤٨٥: «ودعا لها بالشهادة فخرجت مع زوجها عبادة غازية فى البحر، فلما وصلوا إلى جزيرة قبرص خرجت من البحر فقربت إليها دابة لتركبها فصرعتها فماتت ودفنت فى موضعها»[١].

١٣- الحرية والعبودية

وتوصف المرأة بالحرية كما يوصف الرجل، وتتجلى فيها معانى الحرية كما تتجلى فيه، قالت هند للنبى ﷺ أو تزنى الحرة يا رسول الله! ومعنى ذلك أن نفسها الأبية الكريمة تأنف من تلك الفاحشة؛ لأنها حرة، وليس من الحرية أن تزنى المرأة، وليس من الحرية أن يزنى الرجل وليس من الحرية أن تمشى المرأة عارية أو كاشفة رأسها، فذلك بابه العصيان ومخالفة الشرع لا الحرية، وكذلك يقال «أمة» كما يقال «عبد».

وحين قال ربنا تعالى: ﴿ **فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ** ﴾[٢] إنما المراد بذلك تحرير رقبة مؤمنة سواء أكانت رقبة ذكر أم رقبة أنثى.

وقد ورد فى الصحيح أن سعد بن عبادة ﷺ جاء بأمة إلى النبى ﷺ وقال له: على عتق رقبة مؤمنة ولا أجد غير هذه، وكانت خرساء، فسألها النبى ﷺ أين الله؟ فأشارت إلى السماء، وقال لها: مَنْ أنا؟ فأشارت بما يفيد أنه ﷺ رسول الله، فقال له: أعتقها فإنها مؤمنة[٣].

١٤- الزوج

يقال للرجل زوج ويجمع على أزواج، ويقال للمرأة «زوج» وهو أفصح من «زوجة» ويجمع على أزواج، بدليل قوله - تعالى - فى سورة التحريم: ﴿ **وَإِذْ أَسَرَّ**

---

(١) الاستيعاب ٤ / ٤٨٥. (٢) النساء: ٩٢. (٣) صحيح البخارى.

النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾[١] أي بعض زوجاته.

١٥ - الأيم

وفي قوله – عز وجل من سورة النور: ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ ﴾[٢] ، اتفقت كلمة العلماء على أن الأيامى جمع «أيم» وهو من الرجال والنساء: مَنْ كان بلا زوج، فالرجل أيم إذا كان بلا زوج والمرأة «أيم» إذا كانت بلا زوج.

١٦ - الحاجة إلى الموعظة

يقول الله – تعالى –: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾[٣] ويقول في سورة النور نفسها وفي السياق نفسه ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾[٤] وشمل الجميع بقوله: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٥] .

١٧ - المكر والكفر

وكما اشترك الرجل والمرأة في صفات الجمال والكمال اشتركا كذلك في المكر والكفر وغيرهما من صفات السوء ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾[٦] ، ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾[٧] .

وقال تعالى في جمع الكافر ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٨] في آية البقرة وجمع الكافرة على الكوافر، فقال في سورة الممتحنة ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾[٩] ، وكذلك قال ربنا ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ ﴾[١٠] سورة التوبة.

١٨ - الهجرة

وجاء في كتاب الله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾[١١] كما قال

---

(١) التحريم: ٣. (٢) النور: ٣٢. (٣) النور: ٣٠.
(٤) النور: ٣١. (٥) النور: ٣١. (٦) سبأ: ٣٣.
(٧) يوسف: ٣١. (٨) البقرة: ١٠٤. (٩) الممتحنة: ١٠.
(١٠) التوبة: ٦٧. (١١) الممتحنة: ١٠.

﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾(١) .

١٩ - التوبة

وكما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾(٢) كذلك قال فى سورة التحريم ﴿ تائبات ﴾ .

٢٠ - الصلاح

وكما قال تعالى ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(٣) آية القصص قال فى سورة النساء: ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾(٤) .

٢١ - المصير

وكذلك الجزاء إما جنة يشترك فيها الرجال والنساء ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ ﴾(٥) وإما نار يشترك فيها المفسدون والمفسدات، الآثمون والآثمات، الكافرون والكافرات.

هذه أبرز ما فى الوحدة بين الرجل والمرأة من معانٍ إذا أعدت النظر فيها وجدت الرجل والمرأة مخلوقًا واحدًا وإن اختلفت الصورة وتباين الشكل.

ورأيت ذا لحية وذات خمار، لكنك لن تجد تباينًا فى صفات الإنسانية من الرقة والقسوة، والإيمان والكفر، والصدق والكذب، والأمانة والخيانة، ولعل ذلك يهدينا إلى التريث فى إطلاق الحكم على المرأة بأنها جثة، أو سوأة، أو إثارة جنسية أو مصدر فتنة للرجل.

ولعل ذلك يهدينا كذلك إلى الاطلاع الواعى على أسباب تخلفنا، ومن أهم هذه الأسباب طول النظر فى شيء وإهمال ما عداه مما لا يحصى.

بأن نظل نتحدث عن فتنة المرأة، وأمام أعيننا فتنة المال، والسياسة، والكراسى، وغيرها، وأخطرها فتنة الدين نعوذ بالله من شرها ومن سوء الخاتمة بها.

---

(١) آل عمران: ١٩٥. (٢) البقرة ٢٢٢. (٣) القصص: ٢٧.
(٤) النساء: ٣٤. (٥) يس: ٥٦.

وحين نتحدث عن فتنة المرأة نلغى بذلك عقلها وحكمتها، ونطرح الإفادة منها، ومن خير وجودها نوراً، بل ومثلاً يحتذى.

امرأتان قدوة

حين شاع من قريب موضوع إمامة المرأة فى الصلاة، وتناقلت أجهزة الإعلام هذه الزوبعة كتبت فى الأهرام العربى مقالاً تحت عنوان «إمامة المعنى لا إمامة الجسد» وهذا نصه:

استوقفنى الحديث عن إمامة المرأة بعد الأخبار التى وردت من أمريكا تشير إلى قيام سيدة بإمامة المصلين وتوارد مع طرح هذه القضية للنقاش مكانة أمهات المؤمنين والسيدة العذراء وأحقيتهن فى الإمامة.

سألت لما جاءتها البشرى بالوجيه المقرب عيسى - عليه وعليها السلام - وقالت كيف يكون ولدٌ منى دون مس بشر، ونفت عن نفسها الفاحشة، إيماناً منها بأن الله - تعالى - قد جعل لكل شىء سبباً، وسبب الولد مباشرة الرجل للمرأة ﴿ **أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾(١)، ولم تقل بعد ذلك كيف؟ لأنها تعلم أن الله - عز وجل - الذى خلق ناموس الوجود على الأسباب يخلق ما يشاء بدونها، إذا أراد، وكيف تسأل هذا السؤال الثانى، وهى ربيبة بيت الله، منذورة له، وهى التى قالت لزكريا (عليه السلام) ﴿ **هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾(٢) وكان كفيلها ومتعهدها بالرعاية، أى كان سبباً معداً لخدمتها، وإطعامها، وكان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً، أى رزقاً لم يأت به وهو الكفيل والسبب، فما الذى جاء به إذن، من غير زكريا يدخل عليها؟ إنه أمر الله وحفظه الذى يفارقها غيره، وهو لا يفارقها طرفة عين، قد ينام زكريا وغيره، وعين الله لا تنام، فقد تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً، كملت مريم إيماناً وتصديقاً، وقال فيها رب العالمين: ﴿ **وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ** ﴾(٣)، وصارت إماماً ومثلاً للمؤمنين فى هذا التصديق

---

(١) آل عمران: ٤٧. (٢) آل عمران: ٣٧. (٣) التحريم: ١٢.

وضربها الحق تعالى أسوة للذين آمنوا رجالاً ونساءً، كما ضرب التي كملت يقينًا وإيمانًا كذلك مثلاً للمؤمنين رجالاً ونساء، وهي امرأة فرعون الطاغية الذي استعبد الناس واستخفهم فأطاعوه، وقال أنا ربكم الأعلى، وقال: **﴿أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾**[1]، لكن امرأته قد آمنت بأن الملك ملك الله، وأن الأنهار سخرها الله عز وجل، فلم تنبهر بملك زوج كافر، وإنما تطلعت إلى ما عند الله القاهر، فقالت: **﴿رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾**[2]، قال الله - تعالى -: **﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾**[3].

ولعل سائلاً يسأل هذا السؤال: لماذا بدأ الحق - تعالى - بامرأة فرعون، وقدمها على مريم؟ والجواب أنه لما ضرب الله - تعالى - مثلاً للذين كفروا بامرأة نوح وامرأة لوط، وقال عز من قائل: **﴿كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾**[4]، كان من المناسبات أن يلي ذلك الضد، وهو أن امرأة الكافر صارت مثالاً للذين آمنوا وإمامًا، فامرأة النبي حين كفرت لم ينفعها لقب «امرأة نبي» وامرأة الكافر حين آمنت لم يضرها لقب «امرأة كافر»، وصدق الله العظيم، حيث قال: **﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾**[5] والقائل: **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾**[6]، والمثل الأسوة والإمامة، فمن تطلع إلى ما عند الله - تعالى - من خير، وطلب النجاة من الكفر وأعماله، كان مؤمنًا لا تغره الدنيا بزينتها وزخرفها، وإمامه في ذلك امرأة فرعون، ومن صدق بكلمات ربه وكتبه كان مؤمنًا وإمامه في ذلك مريم ابنة عمران، تلك إمامة المرأة، وهي إمامة معنى، لا إمامة جسد، فلماذا يكثر اللغط، والكلام عن إمامة المرأة في الصلاة، بحيث يكون وراءها رجال ينظرون إلى جسدها، فتفسد صلاتهم، أية نقيصة في المرأة تصيبها إن لم تكن إمام المصلين بجسدها، شريعة تصونها، وتحافظ عليها، وتنأى بها عن الفتنة، في الوقت الذي

---

(١) الزخرف: ٥١. (٢) التحريم: ١١. (٣) التحريم: ١١.
(٤) التحريم: ١٠. (٥) الطور: ٢١. (٦) فاطر: ١٨.

تكون فيه إمامًا للمتقين المؤمنين بصدق يقينها، وحسن إسلامها، وصونها لنفسها من التبذل بصدق يقينها، وعرض مفاتنها على الأجانب، إن إمامة المعانى هدف يسعى إليه كل نبيل، سليم الفكر والذوق، رجلاً كان أو امرأة، والتعبير القرآنى ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مثلا للذين آمنوا** ﴾ يدل على أن امرأة فرعون ومريم ابنة عمران مثالا ينشده الرجال والنساء، وأمل يتطلع إليه كل مؤمن، وقد صرَّح القرآن الكريم بأن أزواج النبى ﷺ أمهات المؤمنين؛ حيث قال تبارك اسمه: ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ** ﴾[1] والأم إمام وأسوة، فهل ثبت أن واحدة من أمهات المؤمنين تقدمت لإمامة الناس فى الصلاة؟ إن من الحكمة أن يسأل المسلم نفسه، ويعلم إخوانه قائلاً: لماذا كانت أزواج النبى ﷺ أمهات مقصورات فى التأسى؟ والجواب فى سورة الأحزاب، فهن من وقرن فى بيوتهن إذ لا حاجة تدعو إلى أن يتركن البيوت، فمن خرجت لحاجة من عمل تحتاج إليه، أو قضاء شيء لم تجد من يقضيه لها، أو لصلاة فى مسجد وغير ذلك وهى ساترة نفسها، متحلية بآداب دينها، تمشى على استحياء فلا حرج عليها قال تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾[2] وهن اللاتى لم يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وهن اللاتى أقمن الصلاة، وآتين الزكاة، وأطعن الله ورسوله، وهن اللاتى اخترن الله ورسوله وأدنين عليهن من جلابيبهن، وهن القارئتات للقرآن الكريم، والذاكرات الحكمة التى ساقها الله عز وجل – على لسان نبيه ﷺ – وهذا هو المنهج الذى بينه الحق – تعالى – لآل بيت النبى ﷺ وبه أذهب عنهم الرجس وطهرهم به تطهيرًا، فالتزم الأخيار الأبرار بمنهج الله – تعالى – فكانوا بهذا الالتزام مطهرين، والله تعالى – ذكر فى كتابه أنه يحب المتطهرين، وهذه الصفات صفات من رغب فى الطهارة، خوطبت بها أمهات المؤمنين فالتزمن بها، فكن أمهات، ومع أنهن حرام على رجال الأمة، ﴿ **وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا** ﴾[3] ومع ذلك جاء فى الآية نفسها قول الله – عز وجل: ﴿ **وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ** ﴾[4]،

---

(١) الأحزاب: ٦.
(٢) الحج: ٧٨.
(٣) الأحزاب: ٥٣
(٤) الأحزاب: ٥٣.

فهل قال أحد من الفقهاء أو المفسرين أو المحدثين إن الإمام يكون بينه وبين المأموم حجاب، ذلك الإمام الذى يهتم بتسوية الصفوف وراءه هل يسويها من وراء حجاب، أو من خلال شاشة، أو تنيب فى ذلك رجلاً يقول لها من وراء حجاب: تمام يا أفندم أو يا هانم، توكلى على الله الصفوف مستوية وآخر تمام يا جميل، أليست هذه كلماتنا والله أعلم بما يستحدث منها فى آخر الزمان الذى لا شك فى أنه زماننا، وهل يجهل أحد أن من السنة أن الإمام إذا سلم وفرغ من الصلاة عليه أن يستدير إلى المأمومين بوجهه فهل تفعل ذلك ليرى المأمومون صدرها كما رأوا عجزها، إنها إذا صلت خلف الصفوف بجسدها، وكانت فى مقدمة الصفوف بيقينها وتصديقها كانت أقرب إلى الإيمان بالغيب، وكانت على طريق الدين الذى ما بغض إلينا شيئًا مثلما بغض الرياء أليس الرياء من الرؤية، إن المؤمن أبعد ما يكون عن الرياء أى عن الظهور، ومراءاة الناس، ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)** ﴾[1].

الفكرة المجنونة الطائشة فى إيمان المرأة والنيل من عقيدتها، فتزعم أن الذى ينقصها من حقوقها أن تكون إمامًا بشحمها ولحمها، ويتعب الناس أنفسهم فى البحث عن دليل واهٍ وضعيف أو قول برئ منه الله ورسوله يثبت أن لها الحق فى ذلك، وهو مما ليس فى كتاب وسنة، إننا فى حاجة إلى إمامة المعنى وهى ثابتة فى كتاب الله تعالى.

يا أيها الناس إننا لم نر أبا حنيفة ولا مالكًا ولا الشافعى ولا أحمد، ومع ذلك نعيش على آرائهم واجتهاداتهم ومدارسهم العقلية، فهم قد غابوا أجسادًا، وعاشوا معانيَ تنطلق باسمها الآراء وتصح بها عباداتنا وأخلاقنا، ونحن نؤمن بالهادى البشير ﷺ، ولم نره، ومن ثم قال عنا إن اهتدينا بأننا إخوانه، فيا أختى هداك الله الرشد، كونى إمامًا بفكر مستنير، وسيرة طيبة وكونى مثلاً يحتذى فى الإصلاح والتدبير واتق الفتنة، فإنها شر مستطير.

---

(١) الماعون: ٤ – ٧.

والشاهد فى هذا المقال أن الله – عز وجل – جعل امرأة فرعون قدوة للذين آمنوا رجالاً ونساء، حيث قالت ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(١) .

وكذلك جعل – عز وجل – مريم ابنة عمران قدوة للرجال والنساء المؤمنين؛ لأنها أحصنت فرجها، فكل امرأة ترى أسباب الفتنة متوفرة وتتجه إلى الله – عز وجل – إنما هى مثال يحتذى، وقدوة طيبة للناس جميعًا.

وكل شريفة عفيفة، تصون نفسها عن الدنس وتنأى بذيلها عن القاذورات إنما هى قدوة للطيبين والطيبات من المؤمنين والمؤمنات.

ومن أجل ذلك نقول: إن العبرة بالمعانى العظيمة وليست العبرة بالذكورة والأنوثة، فمتى وجدت الحكمة عند امرأة كانت هذه المرأة أسوة طيبة يتأسى بها الناس جميعًا إن أرادوا إصلاحًا.

---

(١) التحريم: ١١.

خير نساء العالمين

روى عبدالرزاق الذى ود البخارى زيارة اليمن من أجله، لكنه مات - رحمه الله - فلم يزر البخارى اليمن، صاحب المسند عن معمر عن قتادة عن أنس أن النبى ﷺ قال : حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، فآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ وهكذا روى أبو داود وغيره، فما سبب هذه الخيرية[١] .

أولاً : مريم بنت عمران

وقد تحدث القرآن الكريم عنها جنينًا في بطن أمها، التى قالت فى سورة آل عمران : ﴿ **رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي** ﴾[٢] .

وكانت تزعم أن الذى فى بطنها ولد، يقوى على خدمة بيت الله، فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى - والله أعلم بما وضعت، وليس الذكر كالأنثى - أى فى الأعمال الشاقة، والعكوف على خدمة بيت الله، لكن الله الذى خلقها تقبلها بقبول حسن وأنبتها نباتًا حسنًا، وألقيت الأقلام - أى القرعة - أيهم يكفل مريم، فكان الحظ لزكريا الذى كفلها، وكلما دَخل عليها وجد عندها رزقًا، فلما سألها : يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله .

وقد اصطفاها الله، وطهرها، وجعلها وابنها آية بشرها الله - تعالى - بغلام وهى العذراء التى ما مسها بر بزواج ولا فاجر بفاحشة، ومن ثم قالت : كيف ؟

وكان الجواب : ﴿ **كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ** ﴾[٣] وهذه الآية من سورة مريم تجدد فى نفس كل مسلم عقيدة راسخة أن لنا ربًا لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وتجعل كل مسلم يتفيأ ظلال القدرة الإلهية ويستريح من عناء التفكر فى

---

(١) سنن أبى داوود. (٢) آل عمران : ٣٥ . (٣) مريم : ٢١ .

الأسباب ومعالجتها، ليأخذ من تلكم الاستراحة مدداً يعينه على الأخذ بالأسباب، وحبلاً متيناً يربط به المعانى العليا بالأسباب الدنيا.

فتذكره عقيدته تلك بأنه إذا وهنت أسبابه، أو انتهت فليس فى ذلك نهايته ضرورة، فعطاء ربه لا ينقطع، ومدده لا يتخلف، وأمره – عز وجل – إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن فيكون.

وفى التنزيل: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[١] والقليل لا يغلب الكثير إلا إذا كان صابراً صادقًا محتسبًا، ومن ثم ختمت الآية الكريمة بقول الله – تعالى –: ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[٢].

إن درس الفتاة المسلمة الذى تتعلمه من قصة مريم – عليها السلام – متعدد الجوانب، فهى قوية العقيدة تؤمن بأن الله – عز وجل – يرزق من يشاء بغير حساب.

إنه درس الطهر، والالتزام، لا التفكر فى المادة على حساب الخلق، فالتى تدعى أنها تموت جوعًا لو لم تنحرف، وهى مضطرة إلى الانحراف من أجل القوت كأن العذراء ترد على مثلها قائلة لها: لست وحدك، وإنما لك رب يدبر لك أمرك، ويسوق إليك رزقك إذا انقطعت عن الأسباب أو انقطعت الأسباب عنك، وكل مسلم يتعلم هذا الدرس، ذكراً كان أو أنثى، فإن مريم آية الله للعالمين.

ومع أنها قالت – ونعم القول ما قالت – ما جاء فى سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٣].

امتثلت لأمر ربها حين قال لها: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾[٤].

وهى دليل العلماء على ضرورة الأخذ بالسبب، وقد يبدو أن فى ذلك مفارقة ولا مفارقة فالذى قال ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٥] هو الذى أمر بالأخذ بالأسباب،

---

(١) البقرة: ٢٤٩. (٢) البقرة: ٢٤٩. (٣) آل عمران: ٣٧.
(٤) مريم: ٢٥. (٥) آل عمران: ٣٧.

والأخذ بالسبب هنا ليس فيه كثير عناء ولا تعب، فإن هز الجذع ليس سببًا في إنبات النخلة، فالله – تعالى – أنبتها، وليس سببًا فى وضع الحلاوة فى رطبها، فالله تعالى – هو الذى وضع فيه الحلاوة وجعله غذاء ودواء، فما أقل جهد الإنسان وما أعظم نعمة الحنان المنان الرحمن.

وفى هذه الآية من سورة مريم قضية من أهم القضايا التى تعنى الشباب وهى علاقة قوله تعالى: ﴿ **وَقَرِّي عَيْنًا** ﴾ بقوله سبحانه ﴿ **فَكُلِي وَاشْرَبِي** ﴾ حيث جعل السعادة مرتبة على الأكل والشرب، وقد رأينا شبابًا منذ عقود زمنية ينكر تلك القضية، ويقول ليست الحياةُ أكلاً وشربًا.

فما عسى أن تكون الحياة؟

أتود حسن معاملة، وزيفًا فى القول، ولعبًا بالمشاعر والعواطف ولا زاد من طعام أو شراب!

مصيرك إذن إن عولنا على قولك الموت بلا شك، إن عناية الإسلام بالمال، والطعام والشراب والكساء عناية كبيرة يقول الله – عز وجل: ﴿ **كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** ﴾[١] فى سورة البقرة.

والذى هو مرجو أن يحسن الناس المعاملة فيما بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ** ﴾[٢] .

لكن الإقرار بنعمة الطعام والشراب واجب، فلولا فضل الله – عز وجل – لهلك الناس، إن لم يجدوا ما يتناولونه من طعام وشراب، يقول تعالى فى سورة الملك ﴿ **أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ** ﴾[٣] أى فمن يأتيكم برزق!

وفى سورة الواقعة يقول المولى – عز وجل –: ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا**

---

(١) البقرة: ١٧٢. (٢) البقرة: ٢٦٤. (٣) الملك: ٢١.

تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[١].

معنى ذلك أن الماء لو كان ملحًا أجاجًا لما استساغه الإنسان، وبناء عليه يهلك عطشًا، فالواجب أن يحمد المسلم ربه ويشكره على نعمة كوب الماء الذى يستخف به، ويدعى أنه لم يقدم شيئًا لضيفه إن قدمه إليه أو قدم إليه شيئًا يقوم عليه كالشاى وسائر العصائر، وأول شكر النعمة الإحساس بها والابتهاج لتناولها.

وقد كان النبى ﷺ يبتهج لرؤية النعمة، ويدعو بالبركة، ويعطى بواكير الفاكهة أصغر من حضر مجلسه من الأطفال قال العلماء: لقلة صبرهم، ولأنهم يفرحون بها.

ولن يعرف قدر الطعام والشراب إلاَّ مَنْ جرب الجوع، أو شارف على الهلكة، والدين لا يقول للإنسان جرِّب حتى تعرف النعمة وقدرها، وأثرها عليك، هذا منهج بعض الناس فى التربية لكن الله – عز وجل – أنعم على عبده الإنسان قبل أن يكلفه بشىء وعادة القرآن ذكر النعمة قبل التكليف، ودليل ذلك قوله – تعالى – فى سورة سبأ: ﴿ **كُلُوا من رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ** ﴾[٢] وقوله تعالى فى سورة الضحى: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾** ﴾[٣] وهكذا.

والالتزام – كما فى حديث القرآن الكريم – عن مريم – عليها السلام – سبب الفرج ورؤية العجب من تصاريف القدرة الإلهية، وهذا من الدروس النافعة التى لا تتخلف أبدًا قال الله – عز وجل –: ﴿ **فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً** ﴾[٤].

فلم تتكلم فى موقف عصيب يجعل البكماء تتكلم، حيث تتهم صراحة لا ضمنًا بأنها أتت فاحشة، وخالفت موروثًا طاهرًا «فما كان أبوها امرأ سوء، وما كانت أمها فاحشة» وهى أخت صالح يضرب به المثل فى الصلاح فما كان منها إلاَّ الالتزام

---

(١) الواقعة: ٦٨– ٧٠.
(٢) سبأ: ١٥.
(٣) الضحى: ٦– ١١.
(٤) مريم: ٢٦.

بأمر ربها، وأشارت إليه فنطق في مهده: ﴿ **قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)** ﴾[١] .

إنها – عليها السلام – لم تقل كما يقول كثير من الناس «إنها الضرورة، وليس هذا كلامًا يسكت عليه... أو كل شيء إلاَّ هذا».

إن كثيراً من الناس يفتعل الضرورة ويخالف منهج ربه ثم يقول بعد ذلك: لماذا أدعو ولا يستجاب لي!

أو يسأل عن سبب زوال البركة، وغير ذلك مما يعانيه الناس في حياتهم.

والله – عز وجل – لا يخاطبنا بالصمت إلاَّ عند العجز عن قول الخير كما جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ: «**ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت**»[٢] .

لكنه – عز وجل – خاطبنا بالعمل ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا** ﴾[٣] .

وخاطبنا بإسلام الوجه إليه مع الإحسان ﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ** ﴾[٤].

وخاطبنا بالإحسان ﴿ **وَأَحْسِنُوا** ﴾[٥] .

وخاطبنا بإعداد العدة لأعدائنا: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ** ﴾[٦] .

وخاطبنا بالإنفاق في سبيله ﴿ **وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴾[٧] .

---

(١) مريم: ٣٠ – ٣٣.
(٢) صحيح البخاري.
(٣) التوبة: ١٠٥.
(٤) البقرة: ١١٢.
(٥) البقرة: ١٩٥.
(٦) الأنفال: ٦٠.
(٧) الأنفال: ٦٠.

وخاطبنا بتربية أبنائنا والإنفاق عليهم ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾(١).

وغير ذلك مما ورد فى كتابه الكريم وعلى لسان نبيه ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى.

وليس أمامنا من سبيل إلى نصر أو حياة طيبة إلا اتباع ما أمرنا به ربنا ورسوله ﷺ.

خديجة بنت خويلد

وفى قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾(٢) قال أبو حيان فى البحر المحيط وغيره أغناه الله تعالى عن طريق مصادر ثلاثة، أولها مال خديجة، وثانيها مال أبى بكر (رضي الله عنه) وثالثها الغنائم التى أحلت له ﷺ ولم تحل لنبى قبله، وكان ذلك من تيسير الله – عز وجل – على هذه الأمة.

وَاسَتْ رسول الله ﷺ بمالها، وكانت أول من آمن به وبرسالته، فهى أول من أسلم من النساء، وقد روى من وجوه أن النبى ﷺ قال: يا خديجة، إن جبريل (عليه السلام) يقرئك السلام، وبعضهم يروى هذا الخبر أن جبريل قال: يا محمد، اقرأ على خديجة من ربها السلام، فقال النبى ﷺ: يا خديجة، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك فقالت خديجة: الله هو السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام(٣).

وأولاد النبى ﷺ كلهم منها ما عدا إبراهيم فإنه من مارية القبطية، وفى كلمات معدودة جمع فيها النبى ﷺ مبادئ البيت المسلم التى عليها يتحقق بها غاياته، من سكن ومودة ورحمة وهى:

آمنت بى إذ كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وواستنى بما لها إذْ حرمنى الناس، وفى رواية وزاد ورزقنى الله منها الولد.

والمفارقة بين الناس والزوجة فى خيرتها وعطائها ضمان لطيب الحياة واستقرارها،

(١) البقرة: ٢٣٣. (٢) الضحى: ٨. (٣) صحيح مسلم.

وبقاء المودة في نفس الزوج فقد ظل ﷺ يذكر خديجة بالخير قائلاً فيما رواه الشيخان من حديث عائشة: «**والله ما عوضني الله خيراً منها**».

من معاني البيوت خفض الصوت

فهل فكر كثير من الناس في المعاني الواردة في هذا الدين العظيم باعتبارها من صفات أتباعه؟ أم أن المعاني معظمها لا نفكر فيه لأننا مشغولون بأشياء أخرى تنسينا تلك المعاني، وبأسلوب أوضح: هل فكر أحدنا في المحافظة على هدوء البيت، وخفض الصوت فيه، أم أنه نسي ذلك في خضم الخير الذي يسوقه إلى البيت من لحم ودجاج وخضر وفاكهة، وأجهزة تقتل هذا المعنى، فنحن نسمع أصواتها من بيوتنا، وقد نسمع صخبها ونحن نمشي في الشوارع، يا واد، يا بت، يا كداب، أو نسمع ضحكات النساء فرقعات تنبعث من البيوت مثلما نسمع صراخهن عند المعارك الزوجية، والجدال، والضرب والخبط والرزع، وغيرها.

إنَّ رسول الله ﷺ قد بشَّر أم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها) ببيت في الجنة، وصفه بوصفين لا نصب فيه ولا صخب، وهو بيت من قصب، أى من لؤلؤ، وقد بحث العلماء هذا الحديث ونظروا فيه من حيث مكوناته اللفظية ودلالاتها، من قديم وذلك من عدة وجوه:

الأول: لماذا قال النبي ﷺ «بيت» ولم يقل «قصر» وخير ما قيل في ذلك أنها لله أول مَنْ كانت ربة بيت إسلام، لم يكن على الأرض بيت إسلام إلاّ بيتها حين آمنت، وأنها أول من بنت بيتًا في الإسلام بتزويجها رسول الله ﷺ ورغبتها فيه، وجزاء الفعل بذكر لفظ الفعل، وإن كان أشرف منه لما جاء من قوله ﷺ «**مَنْ كسا مسلمًا على عرى كساه الله من حلل الجنة، ومن سقى مسلمًا عن ظمأ سقاه الله من الرحيق**»، ومن ذلك قوله ﷺ «**مَنْ بنى لله مسجداً بنى الله له مثله في الجنة**» فالبيت الذي في الجنة ليس مسجداً، وليس على صفة ما بناه من جدران ومحراب، ودورة مياه، وأسمنت، ودهان من زيت وجير ونحوهما، وإنما قابل البنيان بالبنيان، أى كما بَنَى يُبْنَى له، أى على سبيل ما يسميه العلماء مماثلة ومن ذلك قوله – عز وعلا –: ﴿ **نَسُوا**

اللَّهَ فنسيهم ﴾(١) ، ﴿ ومَكَرُوا ومَكَرَ اللَّهُ ﴾(٢) .

والثاني: لماذا قال «**لا نصب فيه**» أي: لا تعب، وخير ما يمكننا أن نقوله فيه فى ضوء القرآن الكريم ما جاء فى وصف الجنة بأنها لا تعب فيها ولا مشقة، قال الله – عز وعلا –: ﴿ **لا يمَسُّنا فيها نَصَبٌ ولا يمَسُّنا فيها لُغُوبٌ** ﴾(٣) أى لا تعب فيها ولا إعياء، واللغوب: الإعياء الناشيء عن التعب، وقد قال المفسرون إن ذكره هنا مبالغة فى نفى السبب والمسبب (بفتح الباء الأولى)، فلا تعب فى الجنة حيث لا تكليف، وقد ذكر بعض العلماء أن قوله ﷺ «**لا نصب**» معناه أن هذا البيت الذى بشر به النبى ﷺ خديجة (رضي الله عنها) زيادة عما استحقته جزاء تعبها وجهادها، أى إنه بيت نالته بلا تعب من عبادة وجهاد، ورد على هؤلاء بأن ظاهر الحديث لا يدل عليه، وليس له شاهد يقويه علم، يجعلك تهمس فى آذان كثير من الناس الذين يتحدثون باسم الدعوة بلا هدى ولا علم، كلام فى كلام دون تفكر وجهد فيما يقال من أحكام.

والثالث: لماذا وصف هذا البيت بنفى الصخب وهو رفع الصوت ولم يوصف بشيء من أوصاف النعيم والبهجة، وعد العلماء نفى الصخب بأنه لون من ألوان النعيم، ولكن بحثهم فى سبب هذا الوصف بالذات دون غيره مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأجابوا بأن ذلك من قبيل المماثلة أيضًا، لأن أم المؤمنين خديجة لله حين دعاها النبى ﷺ إلى الإسلام أجابته عفواً، لم تحوجه إلى أن يصخب كما يصخب البعل (الزوج) إذا تعصت عليه حليلته، وربطوا بين ذلك وبين نفى النصب (التعب) من حيث أنها لم تتعب رسول الله ﷺ فقد آنسته من كل وحشة، وهونت عليه كل مكروه، وأراحته بمالها من كل كد ونصب، فوصف ﷺ بيتها بالصفة المقابلة لفعالها وصورته.

والرابع: لماذا قال – عليه الصلاة والسلام – من قصب ولم يقل من لؤلؤ، والجواب كذلك أنها حازت قصب السبق فكانت أول من أسلم، والعرب تسمى السابق محرزاً للقصب. قال الشاعر:

---

(١) التوبة: ٦٧. (٢) آل عمران: ٥٤. (٣) فاطر: ٣٥.

مشى ابْنُ الزبير القهقرى وتقدمت

أميَّـــةُ حتـــى أحـــرزوا القَصَبَاتِ

فجميع ألفاظ الحديث من تلك المماثلة، والدرس الذى نتعلمه لحياتنا من هذا الحديث هو غرس تلك المعانى فى بيوت المسلمين فالبيت ينبغى أن يكون موطن الراحة، لا نصب فيه، ويتحقق ذلك بتعاون جميع مَنْ فيه؛ لأن الأعمال الكثيرة إذا وزعت هانت.

والملاحظ أن كثيرًا من البيوت تلقى التبعة فيها والمسئولية على عاتق أم مسكينة، بناتها حولها كالجراد المنتشر، ولا واحدة منهن تقوم بإعداد كوب من الشاى، ولا بغسل طبق أكلت ما فيه، كل شىء فى الحوض، ارم كل شىء، والبركة فى ماما، وكذلك يفعل الزوج والأبناء الذكور حتى يعدموها العافية، وتصاب بالروماتيزم، وتصرخ وفى النهاية: سلامتك يا أمي.

آسية امرأة فرعون

وأمَّا آسية امرأة فرعون فقد جاء حديث القرآن الكريم عنها فى موضعين الأول فى سورة التحريم، والثانى فى سورة القصص، وقد قدمت الموضع الأول مع أنه على خلاف ترتيب السور فى الكتاب العزيز لأنه بمثابة الخلاصة حيث قال الله - عز وجل: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1].

هذه خلاصة الخلاصة، حيث صارت مثالاً للذين آمنوا، وقد سبق بيان ذلك..

والسؤال: كيف نالت هذه الدرجة العالية، ومن الجواب ما جاء فى الموضع الثانى حيث رأينا فى سورة القصص موسى عليه السلام وقد آل به المسير إلى بيت فرعون، الذى أمر بأن يذبح أبناء بنى إسرائيل، فالقتل مظنة مؤكدة هنا، لكنه وعد الله - عز وجل - الذى وعده أم موسى وربط على قلبها فثبتها، وعدها بأنه راده إليها لتقر عينها فى

(١) التحريم: ١١.

هذا الوطن الجديد وقد أزف القتل، ودنت شمس المغيب نسمع صوت امرأة فرعون **﴿لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾**(١) وقد مهدت لذلك بقولها **﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾**.

وإعراب (قرة) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذه قرة عين أو هو قرة عين.

وتقدم «لى» على «لك» يوحى بأنها كانت ذات حظوة عنده، وأنه كان يعمل على إسعادها، ولا يجوز الوقف على (لا) كما يفعل بعض القراء عن جهل رغبة فى إثارة الناس، فإن «لا» طلبية، وليست نافية ومطلوبها (تقتلوه) لا نفى القرة عن زوجها.

وإنى أجد هذا النظم يدل على ما يتصف به جميع المؤمنين الصادقين الذين لا شهوة عندهم لإراقة الدماء، إنها المرأة التى أودعت قلب الأم، رأت صغيرًا معرضًا للذبح فإذا بها تقول: إنه قرة عينى، وقرة عينك أيضًا، والأمل فيه كبير، وهو مستعد للتكوين والتنشئة على أساس أن يكون ابننا، فهو لا يدرى من أبوه، ومَنْ أمه.

والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، والرحمن - جل وعلا - ليس كمثله شىء - يقلبها كيف يشاء، ومن ثم صرف هوى القتل إلى هوى الإحياء، وتقديم أسبابها فأخذ القاتل الجبار المسرف فى القبح يبحث عن المراضع، ويعمل على إسعاد مَنْ يذبح مثله، فسبحان الله العظيم.

إن الذين يَدَّعون حب الله عليهم أن يحفظوا قول الله - عز وجل - فى عباده الذين يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلامًا خالدين فيها حسنت مستقرًا ومقامًا **﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾**(٢) فى سورة الفرقان، وفى سورة المائدة **﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾**(٣).

ولست أدرى ما هذا الذى ينقله الناس عن الشيخ الغزالى صاحب إحياء علوم الدين، والذى يضرب به المثل فى الفلسفة الإسلامية، ولها طور على يديه أو عن

---

(١) القصص: ٩. (٢) الفرقان: ٦٨. (٣) المائدة: ٣٢.

غيره من الأئمة ما يجوزون به إراقة الدماء وتكفير الناس وبين أيدينا إجماع العلماء، وسيرة النبى ﷺ وبهذه المناسبة أوجه أنظار الإخوة العلماء إلى ما ذكره ابن عبد البر فى التمهيد، وفى غيره، وما ذكره غيره من العلماء فى أنَّ إجماع الأمة المنقول أن أحدًا لا يحكم على مسلم بالنفاق، ومن ثم إذا مات المنافق المزعوم وجبت الصلاة عليه، لأننا لا نعرف ما فى الصدور، ويقبل منه إظهاره الإسلام.

أما مسألة غير المسلمين فلهم ما لنا وعليهم ما علينا وتقبل شهادة بعضهم على بعض كما يرى أبوحنيفة، وباب مصالحتهم، وباب الجزية، وكونهم من أهل الذمة من أعيان الأبواب فى الفقه، فكيف نتجنب ذلك كله، ونأخذ برأى فرد كائنًا مَنْ كان.

وقد دخل أبو لؤلؤة المجوسى المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام؛ لأنه غلام ذو صنعة لما رجا سيده المغيرة بن شعبة عمر الفارق ﷺ، ولم يقم بذبحه أحد.

وإجماع العلماء على أن النجاسة الواردة فى قوله - عز وجل **﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾**[1] معناها النجاسة المعنوية لا الحسية، واستعمال أوانى الناس، وأكل ذبائحهم والزواج منهم إن كانوا من أهل الكتاب، وهل يحمل المجوس عليهم أولا أبواب واضحة ولا غموض فيها وفى سورة المائدة **﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾**[2] على أى شيء يدل إذا استبيحت دماؤهم وأموالهم!

ومن يقرأ كتاب الأم للإمام الشافعى يجد أن ولى الكتابية لا يصح أن يكون مسلمًا، وإنما وليها من أهلها، معنى ذلك أن هناك خلطة بين المسلمين وبين أهل الكتاب تصل إلى حد المصاهرة، وأن يزوج الكتابى المسلم ابنته أو أخته على صداق وشهادة مسلمين.

ومما يتأمل فيه أن المسلم المحب للنبى ﷺ سوف يصنع وليمة لعرسه، وسوف يدعو إليها أهله وأهلها ومعنى ذلك آن هناك حياة طيبة يحضرها الناس من المسلمين وغير المسلمين.

إن قلبًا أُودِع الرحمة مثل امرأة فرعون هو مظنة أن يقول: رب ابن لى عندك بيتًا

---

(١) التوبة: ٢٨ . (٢) المائدة: ٥ .

فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين، فالراحمون يرحمهم الرحمن كما جاء فى الحديث الشريف.

قال الزمخشرى فى الكشاف ٤/ ١٣١: «عن أبى هريرة[١] أنَّ فرعون وتد امرأته بأربعة أوتاد، واستقبل بها الشمس وأضجعها على ظهرها، ووضع رحى على صدرها، وقيل أمر بأن تلقى عليها صخرة عظيمة فدعت الله فرقى بروحها فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه، وعن الحسن فنجاها الله أكرم نجاة فرفعها إلى الجنة فهى تأكل وتشرب وتتنعم فيها، وقيل لما قالت رب ابن لى عندك بيتًا فى الجنة أريت بيتها فى الجنة يبنى، وقيل إنه من درة، وقيل كانت تعذب فى الشمس فتظلها الملائكة».

ويقول الزمخشرى فى ٤/ ١٣٢: «وفيه[٢] (اى فى دعائها) دليل على الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين، وسنن الأنبياء والمرسلين» وذكر الشواهد القرآنية الدالة على ذلك من دعاء الأنبياء عليهم السلام.

وقد وصف الله - عز وجل - خديجة وآسية وفاطمة ومن قبل مريم بالكمال لأنهن كن فى زمان الشرك، وفضل عائشة دون الوصف بالكمال؛ لأنها أعملهن، وقد روت ألوف الأحاديث عنه ﷺ وقال الشهاب الخفاجى حتى قيل إنها نقلت ثلثى الدين.

واما فاطمة بنت رسول الله ﷺ

فهى أصغر بناته ﷺ وقيل أم كلثوم هى الصغرى وهذا غير صحيح، فقد تواترت الأخبار وسكنت النفس إلى ما تواترت به من أن فاطمة هى الصغرى.

تزوجت عليا - كرم الله وجهه - وهى بنت خمس عشرة سنة، وخمسة أشهر ونصف، وكان على رضي الله عنه ابن إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٣١. (٢) الكشاف ٤/ ١٣٢.

وولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب ولم يتزوج عليٌّ - كرم الله وجهه - عليها حتى ماتت مثلما كان من رسول الله ﷺ مع أمها خديجة رضي الله عنها.

روت عنها عائشة - حيث قالت حدثتنى فاطمة قالت أسرَّ إليَّ رسولُ الله ﷺ إن جبريل كان يعارضنى بالقرآن كل سنة مرة، وإنه عارضنى العام مرتين، ولا أراه إلا قد حضر أجلى، وإنك أول أهلى لحوقًا بى، ونعم السلف أنا لك، قالت فبكيت، ثم قال: ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء العالمين فضحكت.

وروى عبدالرحمن بن أبى نعم عن أبى سعيد الخدرى قال: قال النبى ﷺ فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلاَّ ما كان من مريم بنت عمران.

ومع فضائلها التى لا تنتهى، ريحانة رسول الله ﷺ وأم سيدى شباب أهل الجنة فقد عملت وأثرت الرحى فى كفيها، وقد وَزَّع على بن أبى طالب زوجها رضي الله عنه العمل بينها وبين أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم قال لأمه كما ذكر الرواة: اكفى بنت رسول الله ﷺ الخدمة خارجًا، وتكفيك العمل بالبيت: العجن والخبز والطحن.

ولعل بنات يومنا وزماننا يفهمن سيادة المرأة أن تكون مخدومة لا خادمة، وأن تترفع على الناس، وتتكبر عليهم، وأن تنظر من علياء إلى كل شىء على أنه دونها، وأقل منها، فكيف بهن وهن يطلعن على هذا التاريخ المشرف لسيدة نساء الدنيا رضي الله عنها.

- **النبى ﷺ يقبلها وتقبله:**

روي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: ما رأيت أحدًا كان أشبه كلامًا وحديثًا برسول الله ﷺ من فاطمة وكانت إذا دخلت عليه قام إليها فقبلها ورحب بها كما كانت تصنع هى به.

ولقد كانت رضي الله عنها تحب الستر، وكل مسلمة تحب الله ورسوله ومعانى الحرية العالية تحب الستر، ستر العورة التى أمر الله - عز وجل - الناس ذكرانًا وإناثًا بسترها تكريمًا لا إهانة، وسيادة لا عبودية، وعزة وكرامة لا ذلاً وإهانة.

قال ابن عبدالبر فى الاستيعاب ٤/ ٤٥١: «فاطمة[1] رضي الله عنها أول مَنْ غطى نعشها من النساء فى الإسلام ثم بعدها زينب بنت جحش».

وذلك بعد قصة ذكرها حين قالت لأسماء بنت عميس: يا أسماء، إنى قد استقبحت ما يُصْنَعُ بالنساء، إنه يطرح على المرأة الثوب فيصفها فوصفت لها أسماء شيئًا كانت تراه فى الحبشة إبان هجرتها وشرحته لها، وهو الإتيان بجرائد رطبة، وطرحت فوقها ثوبًا فاستحسنته الطاهرة الزهراء وقالت: ما أحسن هذا وأجمله، تعرف به المرأة من الرجال فإذا أنا مت فاغسلينى أنت وعلى واصنعى لى ذلك وقد كان فلما قيل إنه مثل هودج العروس سأل أبو بكر رضي الله عنه أسماء بنت عميس فقالت: شيء أعجبها وأمرتنى أن أصنعه لها فقال رضي الله عنه فاصنعى ما أمرتك ثم انصرف.

إنَّ شيئًا ما هو سبب ما نحن فيه من نزاع حول حجاب المرأة، والأصل فيه ستر العورة كما هو ثابت فى كتب الفقه قال الله - تعالى -: **﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾**[2] .

ذلك الشيءٌ هو التغيير البطئ الذى استحال مع هذا البطء إلى واقع يكاد يكون هو الأصل ولا أصل له إلا محاكاة مَنْ غزا فأفسد العقول كما سمم الأرض وزرع فيها العقم والمتفجرات.

لقد أجريت تجربة من قديم، تكشف هذا السر، حيث وضع فأر فى ماء يغلى فمات لفوره، ووضع فأر فى آنية بها ماء، ووضعت الآنية تحت شمعة، فظل الفأر يلعب ويلعب، مع سخونة الماء ببطء، وظل يلعب والماء يغلى بعد ساعات، حتى مات بعد فترة طويلة، هكذا قال علماء الاجتماع إن التغيير البطئ يؤتى ثماره دون أن يحدث اضطرابًا عند الناس.

أما التغيير المفاجئ فيحدث آثارًا سيئة لو قام الناس من نومهم وفجأة رأوا امرأة

---

(١) الاستيعاب ١٤/ ٤٥١.

(٢) الأعراف: ٢٦

مكشوفة الشعر لقامت الدنيا عليها، ولكنهم رأوا قد زحزحت منديل رأسها شيئًا يسيرًا، فلم ينتبهوا إلى ذلك حتى ألفوه، ثم كان بعد ذلك أن زحزحته مسافة أخرى، ثم خلعته، ثم قصت شعرها، ثم خلعت شيئًا فشيئًا حتى آلت إلى العرى، وادعت أن هذا سلوك حضارى، ثم أخذت دَعِيَّات الثقافة منهن، يعاونها من الذكور من لم يكترث بالمخاطر فضلاً عن تعاليم الدين - أخذ هؤلاء يبحثون عن الشاذ من الآراء، والسقيم من الروايات لإثبات أنّ الستر ليس من تعاليم الدين، وإنما هو حرية شخصية.

ثم نطق الشيطان على لسان بعضهم فقال: إن المرأة بهذا الشكل العجيب تكون أجمل، والإنسان يقول: الله الله عندما يرى الجمال، لم يجد لذكر الله موطنًا إلاَّ موطنًا يبغضه الله - عز وجل - وهيهات أن يكون ذلك لسان ذاكر لله وإنما هو لسان شيطان عهد الله إلينا ألا نعبده، وعبادتنا للشيء تكون بمحض طاعته ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)﴾[١].

مَنْ كان يتصور أن تصل أسعار السلع إلى ما وصلت إليه اليوم!

إنه التغيير البطئ، الذى تفرضه مع النظرية السابقة ظروف أخرى من التضخم وغيره، وما يوازيه من رفع الأجور وغيرها، ولكن تبقى الفكرة التغيير ببطء.

ما هجم وحش على امرأة فجأة إلاَّ كان مغتصبًا مجرمًا وأشد منه إجرامًا ذلك الذى يجرها شيئًا فشيئًا حتى تسقط هى تحته بمحض إرادتها، وقد تدعوه إليها ويتظاهر هو بالعفة وهو الذى أوصلها إلى تلك المهانة تحت اسم الحب والإعجاب، أقنعها بأنه يحبها، وتودد إليها، وأغراها، وقال لها إن حبه عذرى، وأفلاطونى، وسقراطى ومدبولى، ونسج لها مكسور الشعر، وبث فيها كل قبح حتى صارت عجينة منه.

وسوف يبين لنا حديث القرآن الكريم عن المرأة أنها عقل وفكر واستقامة، وأشد

---

(١) يس ٦٠، ٦١.

حرصًا من الرجل على إقامة البيت الهادئ، الذى ترفرف فيه السعادة ويغمره الحنان ولَمّ شمل الأسرة.

ماتت فاطمة بنت رسول الله ﷺ وهى فى ريعان شبابها وقد اختلف فى سنها يوم ماتت فقيل عاشت ثلاثين سنة، وقيل تسعًا وعشرين لثلاث خلون من شهر رمضان وقد أوصت أن تدفن ليلاً لرغبتها فى ستر الحياة والممات ولن تطوى صفحتها وإن طويت مع الموتى صفحات رضي الله عنها ما أسبغ مسلم على أبيها ﷺ الصلوات والتسليمات

الفصل الثانى

المرأة والبيت المسلم

فى حديث البخارى أن عبدالله بن عمر ﷺ كان يبيت فى المسجد قبل أن يتزوج، وكان يرى وهو نائم أن ملكين يأخذانه إلى النار وعلى شفا حفرتها ينقذه ملك ثالث، أزعجه هذا المنام الذى تكرر فحكاه لحفصة أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ لتقصه على رسول الله ﷺ فلما سمعه النبى ﷺ نصح له أن يصلى ركعتين بالليل، فكان أن ذهب هذا الذى أزعجه.

والشاهد أن الرجل قبل زواجه ينام فى أى مكان، تضمه الفراغات، أو يحتويه البنيان، لكنه إذا تزوج صار له بزواجه بيت، وإن كان هذا البيت من لبن بفتح اللام، وكسر الباء، أو من شعر أو كان أبهى من قصر.

والبيوت عمادها السكن، والمودة، والرحمة والدفء، والحنان، والتعاون على البر والتقوى، وفى سورة الروم يقول الله - عز وجل -: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[1].

والسكن إلى المرأة معناه أنها ملاذ وملجأ للرجل، فهناك فرق فى التعبير بين (سكن إلى) وبين (سكن مع) فقد تسكن مع عدوك، ولكن لا تسكن إليه.

وفى حديث بدء الوحى نجد رسول الله ﷺ يعود من غار حراء وقد نزل عليه الوحى ليقول زملونى فزملته خديجة ﵂ فلما ذهب عنه الذى وجد قام فحكى دون أن تسأله، ولا أن تضايقه بإشارة من سؤال فلما سمعت تصرفت، ولبست، وصحبته إلى ورقة بن نوفل، وسبحان الله، إنك إذا تأملت أساليب القرآن الكريم وجدت نسبة البيت إلى المرأة، حتى وإن كانت فيها مخالفة، فالله - عز وجل - يقول فى

(١) الروم: ٢١.

سورة يوسف: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾[١] فنسب البيت إلى امرأة العزيز مع أنها غلقت الأبواب واستعدت لما لا ينبغى لها أن تستعد له.

وفى سورة الطلاق يقول ربنا - تعالى -: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾[٢].

فلم يكن إذن خروج المرأة من بيتها أمرًا سهلاً ميسورًا تتحكم فيه الأهواء، إنها إن طلقت لزمت بيتها تقضى فيه عدتها، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا، ولا تخرج من بيتها إلا إذا أتت بفاحشة مبينة، قال العلماء: يخرجن لإقامة الحد عليهن.

وفى الكشاف ٤/ ١١٩: «وخروجها قبل العدة فاحشة فى نفسه»[٣]، وفيه أن الزوجة المطلقة إذا استأذنت زوجها فى الخروج فأذن لها فإن هذا الإذن لا يدفع الحظر.

ومعنى ذلك أن الخروج من البيت من الكبائر العظام، وقد بات ذلك الأمر مخالفًا فيه، إلى درجة أن بعض الناس يقذف بالمرأة خارج البيت وهى مازالت فى عصمته وقد يرمى معها طفلتها، ولا يعنيه إلى أين تذهبان.

كما نجد فتيات يصحن فى وجوه بعولتهن قائلات - بيوت آبائنا مفتوحة، أو بيوت أمهاتنا أو أعمامنا والبيت الحقيقى وفق ما جاء فى القرآن الكريم هو بيت الزوج الذى هو بيتها.

كما أنَّ كلمة «خروج» أصبحت شائعة فى حياة الناس، لأدنى ملابسة يطلقونها، لشراء سلعة أو للتنزه، أو غير ذلك، إننا نجد جرأة على الخروج بل إننا نجده مما يشبه الشرط، «أخرج وقتما أريد» وتطلق الغافلات كلمة «السجن» و«الحبس» على بقائها

---

(١) يوسف: ٢٣. (٢) الطلاق: ١ (٣) الكشاف: ٤/ ١١٩.

فى بيتها وهذه إحدى الكبر، فتقول: ها أنا ذا حبيسة البيت، أو تقول لصاحبتها: أنا لست مثلك حرة طليقة أنعم بالذهاب هنا وهناك إننى وأولادى مسجونون فى البيت.

والبيت ليس سجنًا إلا لمن عدمت ماء الحرية واستساغت ماء الإهانة، البيت مسكنها، وسر كرامتها وهى لا تخرج منه إلا مضطرة، وإن خرجت خرج معها فى ضميرها وكيانها، وفى عقلها ووجدانها، تتصور معالمه وإن تراءت لها صور وتعشق الرجوع إليه وحشة إليه وإحساسًا بالضياع خارجه.

وما كان خروج المرأة فى زمان الوحى من بيتها إلا من أجل بيتها، حين تخرج لقضاء حاجتها فتتخلص من أذى بها لتعود إلى بيتها فى عافية قبل أن يكون ببيتها حمام، وحين خرجت للأسواق، تبيع، وتشترى من أجل حماية بيتها، وصونه من البؤس والفقر والحاجة، وحين خرجت إلى ميدان القتال تداوى الجرحى، وتسقى الجيوش، بل وتحارب بسلاحها، كل ذلك فى النهاية يؤول إلى بيتها، فهل تدافع الجيوش إلاّ عن مكارم البيوت التى تنبت العز وتفرز الأجيال الصحيحة لحمل راية الدين والمجد.

وقد خرجت المرأة مع زوجها للسبب الذى خرج من أجله، وهو الفرار بدينه إلى أرض يعبد الله فيها بلا ضيم ولا ذل ولا هوان.

- كما خرجت رقية بنت رسول الله ﷺ مع زوجها عثمان بن عفان إلى الحبشة مهاجرين.
- وخرجت أسماء بنت عميس مع زوجها جعفر بن أبى طالب.
- وخرجت فاطمة بنت الوليد بن عتبة مع زوجها قال ابن عبد البر ٤/ ٤٥٥ «وكانت من المهاجرات الأول»[١].
- وكذلك خرجت أم سلمة مع زوجها أبى سلمة وفى هجرتها الثانية من مكة

(١) التمهيد ٤/ ٤٥٥.

إلى المدينة عانت وجاهدت، وقال: أريد زوجى، وكان أهلها قد منعوها الخروج فرق لها ابن عم لها وقال للقوم: اتركوها تلحق بزوجها، فما تفعلون بقتلها.

- وخرجت ليلى بنت أبى حثمة العدوية امرأة عامر بن ربيعة معه، وهاجرت الهجرتين.
- وخرجت أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى الحبشة، وقد تنصر هناك وهلك، وتزوجها النبى ﷺ.
- وخرجت أم حرملة بنت عبد الأسود بن خزيمة مع زوجها جهم بن قيس.
- وخرجت أميمة بنت خلف بن أسعد بن عامر الخزاعية مع زوجها خالد بن سعيد بن العاص إلى الحبشة، وولدت له هناك سعيد بن خالد، وأمة بنت خالد.
- وخرجت بركة بنت يسار مع زوجها قيس بن عبد الله الأسدى.
- وخرجت رملة بنت أبى عوف بن خبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم مع زوجها المطلب بن أزهر بن عبد عوف، إلى الحبشة، وولدت له هناك عبدالله ابن المطلب، فكان يقال: إنه أول رجل ورث أباه فى الإسلام.
- وخرجت ريطة بنت الحارث بن جبلة بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة مع زوجها الحارث بن خالد بن صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة إلى الحبشة، وولدت له هناك موسى وأخواته عائشة وزينب وفاطمة.

ورحمها الله رحمة واسعة حيث ماتت فى طريق هجرتها من الحبشة إلى المدينة، وردوا ماء بالطريق، فشربوا منه فلم يبرحوه حتى ماتت هى وأولادها ولم يبق إلاَّ فاطمة بنت الحارث.

- وخرجت أم جميل بنت المجلل بن عبد مع زوجها حاطب بن الحارث بن

معمر الجمحى إلى الحبشة، وولدت له هناك محمد بن حاطب والحارث بن حاطب.

حديث القرآن الكريم عن الزوجات:

والزواج كما قلنا سكن ومودة ورحمة، وبيت يجمع فى كل ركن من أركانه هذه الدعائم، وقد مَنَّ الله تعالى على المرسلين كما من على غيرهم بنعمة الزوجية، قال عز وجل فى سورة الرعد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾[1].

والزوجة تكون فى خدمة زوجها وضيفه بدليل قوله - تعالى - فى سورة هود عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾[2] قال العلماء: «أى فى خدمة زوجها وضيفه».

وفى البخارى باب عنوانه: «باب زواج الرجل لمصلحته»[3] وقد ذكر فيه حديث جابر رضي الله عنه حيث تزوج ثيبًا لأن له أخوات تركهن أبوه شهيد أحد، فلا تصلح البكر الصغيرة لعلاج مشكلاتهن وقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم فدعا له.

ومن ثم فلا عبرة بقول القائل إن هدف الزواج هو المتعة الجنسية لا غير، فهذا من وهن الرأى، وضعف النظر فى النصوص، وقد سبق أن ذكرت قول على - كرم الله وجهه - لأمه حين تزوج بفاطمة رضي الله عنها، وقد جعل العمل بينهما قسمين تكفيها أمه خارج البيت، وتكفيها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم داخله من خبز وطحن وغير ذلك.

وقد أمر ربنا - عز وجل بحسن المعاشرة بين الزوجين فقال ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[4] والمعروف كالبر اسم جامع لكل خير وفضل، ويكفى دليلاً وتفصيلاً عليه ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته، حيث كان يخصف نعله ويرقع ثوبه ويحلب شاته، وكان صلى الله عليه وسلم - كما قالت عائشة فى مهنة أهله، أى فى خدمة أهله.

فليست الرجولة سيفًا مسلطًا على المرأة وإنما هى شرف تناله المرأة وإغداق تنعم من أنهاره وظلاله ماديا بالإنفاق ومعنويًا بالتأديب، وإضافة المعرفة وهذا معنى قوله تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾[5] ولا مجال هنا للخوض فى سفه الحديث، وما

---

(١) الرعد: ٣٨. (٢) هود: ٧١.

(٣) البخارى باب «زواج الرجل لمصلحته». (٤) النساء: ١٩. (٥) النساء: ٣٤.

يتردد حول القوامة فى برامج الإعلام، وغاية ما أقول إن هناك فرقًا بين الذكورة وبين الرجولة، وحديث القرآن الكريم عن الرجولة حديث عن النبل والصدق والعطاء والنصح والإيمان، فأيما امرأة عرفت فضل الرجل تمنت أن تكون تحته بلغة الفقه القديمة، والتحتية لا تعنى الدونية وإنما تعنى الطاعة المنبثقة عن الحب والإجلال.

لقد وقع فى نفس أم سلمة حين مات زوجها أبو سلمة - رضى الله عنها وعنه - أنها قالت عند دعاء المصاب «اللهم اوجرنى فى مصيبتى واخلفنى خيراً منها: ومَنْ خير من أبى سلمة؟! وقد عاينت الإجابة بأن تزوجها خير الناس محمد ﷺ فماذا رأت من أبى سلمة إلاَّ كل عز وكرامة.

إن الخطأ يحدث بسبب سوء الاختيار، يفرح الناس بالطويل العريض الثدى الوجيه، وبعد المعاشرة يحصدون سوءًا، ثم يصرخون قائلين: ما معنى القوامة وأود أن أرى ذات يوم امرأة مسلمة أحسن أهلها وأحسنت يوم اختاروا رجلاً بمعنى الكلمة، لديه إحساس بالمسئولية وهو على خلق الرجال، أود أن أسمعها تتحدث عن قوامة الرجل، وأحسبها دون شك سوف تنشد الشعر فيه وفيها فما رأت منه شراً، وما عابت عليه خلقًا، وما سرق لها مالاً، وما لعن لها أبًا ولا أمًّا، وما رماها فى جوف الليل فى الشارع، وما هددها كل يوم بطلاق وفراق، محن وآلام يدفع ثمنها مَنْ أساء الاختيار، ولا يدفع ثمنها شرعُ الله - عز وجل - بالتطاول عليه، وإنكار صريحه..

يجب أن يعترف المخطئ بما ارتكب من أخطاء، لا أن يبرئ ساحته على تأويل دينه وإنكاره، وقد قال آدم وزوجه ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾[1]، وكذلك قال الأنبياء، قال موسى ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾[2].

وكما تفعل المرأة يفعل الرجل الذى ما بدأ بذات وما ظفر بها، ولكن راح يبحث عن شكل مزخرف، وقوام عملاق، وامرأة لها شخصية دون أن يدرى ما مقومات الشخصية، فلما خرّ تحتها، وذاق الويلات من سوء عشرتها لعن الزواج وهو آية.

إن الزواج أيها السادة عبادة ورسالة ومسئولية والفرح فى دين الله مسئولية، فبعد

(١) الأعراف: ٢٣. (٢) القصص: ١٦.

ساعة من الزفاف يجوع الرجل والمرأة، ولابد من طعام يتوفر، وماء عذب، وما لا يحصى من حلال الشراب، هناك داء يعترض لابد له من طبيب وهناك سلوك يتغير لابد له من صبر، وهناك جائحة لا يدرى أحد متى تأتى لابد لها من عزيمة الرجال الذين لا يأكلون أموال الناس بالباطل، ولا يسلمون الدفة للمرأة لكى تخرج إلى ساحات العمل، وتحمل عن كاهلهم مسئولية تربية الأولاد، والإنفاق على السيد الذى بذر بذورهم فى رحمها فى ليلة من الليالى، كان كل جهده ومعروفه أن كان سببًا فى حملها.

وهذا انتكاس للأوضاع، وقلب للمعايير **لقد شاهدنا ابن مسعود وهو يرى زوجته تتجه بمالها إلى المستحقين فقال لها:**

- تصدقى علىَّ

فلما قالت: لا حتى أستأذن رسول الله ﷺ لم يمنعها من إذن الشارع الذى جاء بدين الحق.

وقد أمرها النبى ﷺ أن تتصدق عليه وعلى أيتام كانوا فى رعايته.

قال لها: تصدقى علىَّ، ولم يقل لها حقى، ومالك هو مالى فأين الزوج الذى يقف هذا الموقف، إنه موقف الرجال لا نهب الذئاب.

إن حق الزوجة على زوجها يتلخص فيما يأتى:

١- النفقة.

٢- السكنى.

٣- حسن المعاشرة.

قال الله - عز وجل: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾[1] .

وقال - عز وجل: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾[2] .

---

(١) النساء: ٣٤.
(٢) الطلاق: ٦.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾[١] .

وحق الزوج على زوجته السمع له والطاعة، وألا تدخل بيته أحدًا يكرهه كما جاء فى خطبة الوداع عن النبى ﷺ .

الإمساك للضرر

ويتحدث القرآن الكريم عن ضرب من ضروب الإمساك، إمساك الزوجة، أو استمرار الحياة الزوجية ولكن من أجل التضييق على المرأة والإضرار بها، نهى ربنا - تعالى - عن ذلك، فقال عز وجل: ﴿**وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا**﴾[٢] وقال جل شأنه: ﴿**وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ**﴾[٣] .

وقد كان للإضرار بالمرأة من قديم صور، منها أن يطلقها، ثم يراجعها قبيل انتهاء عدتها، ثم يطلقها لتطول عدتها ومنها وراثة المرأة بعد موت زوجها، كان أكبر أبناء الميت يحتفظ بها بعد موت أبيه، ولا يطلق سراحها لكى تتزوج من بعد أبيه ومن ثم نزل قوله - تعالى - فى سورة النساء: ﴿**لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا**﴾[٤] .

وعلى الجملة لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام، وإذا كان الضرر منهيا عنه على العموم فهو فى نطاق الأسرة أشد جرمًا وأعظم وزرًا، فقد جاء فى الصحيح: «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى**».

ولكل معنى من معانى الإسلام مقتضى، ومقتضى الزواج فى الإسلام حياة تستقر فيها النفس والبدن، ويتفيأ فيها كلا الزوجين ظلال المودة، وتتجلى آيات الرحمة فى بيت الزوجية فتشع خارجه على الدنيا جميعًا، وتتقوى العلاقات بين المتصاهرين ويتحقق النفع بينهم، ويكون كل طرف إضافة إلى الطرف الآخر، وقد قوى النبى ﷺ علاقته بصاحبيه الكبيرين أبى بكر وعمر فتزوج عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر، وزوج ابنتيه رقية وأم كلثوم عثمان بن عفان فكان ذا النورين، وزوج

---

(١) النساء: ١٩.

(٢) البقرة: ٢٣١.

(٣) الطلاق: ٦.

(٤) النساء: ١٩.

فاطمة عليا كرم الله وجهه، وتزوج جويرية بنت الحارث فترك الصحابة ما فى أيديهم من سبايا قومها؛ لأنهم صاروا أصهار رسول الله ﷺ .

والزواج بـدون مقتضـى هو زواج على ورق، علاقـة محكـوم عليها بالجمـود، لا خير فيها، ولا طعم لها ولا مذاق، وكم من البيوت تراها واسعة وهى ضيقة على أصحابها، فيها الهجر، وفيها الجفاف وإن بدت من الخارج زهوراً ورياحين، وسمعت من أبنائها أن ثمنها بالملايين، وهذا يدلك على ما نحن فيه من شقاء برغم توفر أسباب السعادة.

وأسباب ذلك غياب المنهج، كالدعوة إلى الله - عز وجل - عن طريق إهمال الأركان والحديث ليل نهار عن السنن والنوافل والتطور المادى الذى كان يجب أن يكون إضافة إلى أسباب السعادة الزوجية صار سببًا من أسباب الشقاء وهدم البيوت، فمن كثر ماله عدد الزوجات، ومن حمل جهاز محمول دون عليه أرقام العلاقات غير الشرعية، ومن جلس أمام الإنترنت فتح باب «الدردشة» والتعارف على الأجنبيات والمحليات، ومن بدنت زوجته تحسر على ذوات قوام الفرنسيات، وغير ذلك مما يدل على مزيد من التخلف.

وبتنا نقرأ العجيب من الدعاء المستحدث، حيث تقول زوجة اللهم اهد لى زوجى، تطلب هدايته لها، لا هدايته لله الذى متى عرف طريق الهدى إليه عرف ماله وما عليه نحوها ونحو غيرها بل إنى قرأت دعاء امرأة تقول: اللهم سخِّر لى زوجى، كأنه قطعة من جماد أو قطة من القطط.

نشوز المرأة

النشوز خروج المرأة عن طاعة زوجها، وأصله كما فى معاجم اللغة من النشْز بسكون الشين وفتحها وهو الارتفاع، فأطلق على الترفع أى الإباء كما فى الشهاب[1] ١٣٣/٣ .

(١) حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى ٣/ ١٣٣ .

والإسلام يعالج الكوارث قبل وقوعها، وسورة النساء التى فيها قول الله - تعالى -: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[١] يقول الله فيها ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً﴾[٢] .

قال الشهاب: والترتيب مستفاد من السياق لا من الواو فالواو لا تفيد ترتيبًا إنما هى لمجرد الجمع، ولو بدأ الزوج بالضرب لاستغنى به عما قبله، أى من الوعظ والهجر فى المضاجع.

وقضية الضرب من القضايا التى هى مثل أخواتها تثير الزوابع والقلاقل، ومردها إلى الشعور العميق بالبغض الكامن من أول خبث، والضرب ثابت بلا نقاش، وله كما جاء فى السنة وكلام العلماء أصول:

أولاً: أنه بعد الوعظ والإرشاد، وبيان حقه عليها وقد مثل لذلك الوعظ العلماء بقولهم كأن يقول لها: اتقى الله، وما من شك فى أن الذى يقول لغيره اتقى الله لا يكون عديمها، فكيف يضرب المتقون

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

ثانيًا: أنه ضرب غير مبرح، فلا يكسر لها عضوًا، ولا يشوه لها خلقة، وكما قال أبو حنيفة - رحمه الله - مجرد رفع السواك عليها فيه أذى لها.

ثالثًا: أن يتجنب الوجه إذا ضرب.

وهذا مقرر فى الحدود، حيث يوزع الضرب على أعضاء البدن، بدن القاذف أو شارب الخمر، ولا يضرب على وجهه، فكيف تضرب زوجة على وجهها.

وبهذا المنطق، وتلك التعاليم يفهم الدين، لكن أن نثير قضية الضرب وفق ما نرى مما يحدث من الذين لا يعرفون شيئًا عن تعاليم دينهم، الذين يزرقون البدن

---

(١) النساء: ٧١. (٢) النساء: ٣٤.

فيشوهونه، ويكسرون العظام ويحطمونها، فهؤلاء شراع قتل، إنهم مجرمون لا مؤدَّبون وهم فى حاجة إلى من يربيهم، مَنْ قال إن المرأة تضرب بحزام جلدى أو «شومة» أو تقذف بكرسى، أو تطعن بسكين، أو غير ذلك من الصور البشعة التى نراها فيها وكأنها مجرم ينال أسوأ عقاب.

إن أيوب عليه السلام قد أقسم أن يضرب زوجته مائة عصا أو جلدة إن شفاه الله، فأوحى الله - عز وجل - فى سورة ص: ﴿**وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ**﴾[1].

أى يأخذ حزمة من قش، لا صلابة فيه، ولا يسبب كسرًا ولا جرحًا، ولا يسيل دمًا، ويضربها بتلك الحزمة مرة واحدة، ويفى بذلك ويبر قسمه.

صورة رقيقة جميلة لا عنف فيها ولا أذى وهذا كلام رب العالمين، وتوجيه الرحمن الرحيم جل وعلا فأين موقع هذا الحديث عن ضرب المرأة.

تقول امرأة يقال مثقفة، إن النبى ﷺ لم يضرب واحدة من نسائه، وأقول لمثلها وهل خاف النبى ﷺ نشوز واحدة منهن وهو ﷺ كان خلقه القرآن كما هو ثابت فى الصحيح.

ومعنى كان خلقه القرآن أنه ﷺ يضرب إذا دعا الداعى إلى الضرب، والقرآن لا يأمر الأزواج بضرب النساء، إن ذلك حالة من الحالات.

وقد قال ﷺ لزوجته عائشة رضي الله عنها إنك فى حال الرضا تقولين: ورب محمد، وفى حالة الغضب تقولين: ورب إبراهيم فقالت رضي الله عنها والذى بعثك بالحق لا أهجر إلا اسمك.

فهل لديك امرأة يعرف زوجها أنها فى حال غضب، - والغضب يعترى البشر بلا شك - لا تهجر إلا اسمه، أم أن نساء الدنيا إلا من رحم الله - تعالى - تهجر عند الغضب البيت وكل جميل من الطباع مقبول.

---

(١) ص: ٤٤.

ما كان هناك من سبيل أمام المعصوم سيدنا محمد ﷺ لمعرفة أن امرأته فى حال غضب إلاّ قولها لا ورب إبراهيم، لكن سائر صنوف المعاملة من حركة وسكون ونوم ويقظة وطعام وشراب كحال الرضا فأية عبقرية تلك! فكيف يضربها يا مثقفة!

إن الدين إذا كان فى ضمائر الناس وفقوا إلى طيب القول والعمل، لقد بنى عامل للرشيد قصرًا إلى جوار قصره، وعمل أصحاب النميمة على إفساد العلاقة بينهما، كأنهم يريدون أن يقولوا للرشيد إنه يزهو على مولانا أمير المؤمنين ويتطلع إلى محاكاته، وندبته، فسأله الرشيد.

- لماذا بنيت قصرك هنا؟ هل ضاقت بك الأرض! فقال العامل:

- فى الحديث إن الله إذا أنعم على عبد نعمة أحب أن يرى أثر نعمته عليه، واعلم يا أمير المؤمنين **أن الكريم يسره أن يرى أثر نعمته فأحببت أن أسرك بالنظر إلى آثار نعمتك** فأعجب الرشيد كلامُه.

وقد ذكر المبرد فى كتابه الكامل أن أبا ذر - رجل غير الصحابى المعروف - دفن ابنه ذرًا فقال عند قبره يا ولدى، لقد شغلنا الحزن عليك عن الحزن لك، فإنا لا ندرى ماذا قيل لك وبماذا أجبت.

ثم دعا لولده هذا بدعاء حقيق بالذكر هنا، حيث قال: اللهم اجعل ما قَصَّرَ فيه من حقى عليه شفاعة لما قَصَّرَ فيه من حقك عليه.

ولفتت هذه العبارة أسماع الناس، وعقولهم؛ فسألوه عن بره به كيف كان فقال:

ما مشى نهارًا إلاّ خلفى، وما مشى ليلاً إلاّ أمامى، وما رقى سطحًا وأنا تحته، وما مد يده إلى صحفة حتى أشبع والكلمات واضحة، ومع ذلك قال: اجعل ما قصر فيه من حقى شفاعة لما قصر فيه من حقك عليه.

وباب **«حسنات الأبرار سيئات المقربين» من الأبواب التى تنوسيت، مع أنها مما يتربى عليه المسلم محاولة إلى الوصول إلى أكمل الغايات.**

قيل إن رجلاً سأل ولده

- فى شجاعة مَنْ تحب أن تكون؟

فقال:

- فى شجاعتك يا والدى.

فضربه أبوه، وغضب، ثم قال له:

- لقد كنت وأنا فى مثل سنك أرجو أن أكون فى شجاعة علىٍّ بن أبى طالب فوصلتُ إلى ما وصلتُ إليه، وأنت إذا أحببت أن تكون فى مثل شجاعتى فلن تصل إلى شىء.

إن طالب العلم الذى يتطلع إلى تقدير «ممتاز» ويجتهد من أجله إن لم يصل إليه وصل إلى تقدير «جيد جدًا» أما الذى يتطلع إلى تقدير «مقبول» فلربما نقل بمادة أو مادتين، والذى يود أن ينقل من سنة إلى سنة بمادة فهو راسب إن شاء الله.

ولى على ذلك دليل من الكتاب والسنة أما الكتاب فقول الله تعالى: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّه من فضْله﴾[1] وفضل الله - تعالى - أوسع من السعة، وأما السنة فقول النبى ﷺ «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس»، إن هذا التوجيه يشهد له ما حدث لثوبان أو غيره حيث عنى بأمر معية رسول الله ﷺ فى الجنة، ومبعث هذا الاهتمام أنه كلما ترك النبى ﷺ وعاد إلى أهله أحس بوحشة إلى النبى ﷺ ، فعاد إليه، فقال في نفسه: وماذا بعد الموت، إذا أنا مت وأدخلنى الله الجنة فسوف تكون منزلتى فيها أقل من منزلته ﷺ فكيف أراه؟

وحكى ذلك للنبى ﷺ فأطرق وانصرف الرجل، فنزل جبريل بقوله - تعالى - في سورة النساء: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾[2] فأرسل إليه النبى ﷺ وبشره.

(١) النساء: ٣٢.
(٢) النساء: ٦٩.

فأية منزلة تلك السامية التى ما بعدها من سمو تلك هى روح التطلع التى بتنا نخافه، ولا نتطلع إليه وجاء من يدرس لنا درس القناعة على أنها قناعة النفس باليسير، والحمد لله رب العالمين، وتلك سبة فى وجه العلم وسبب من أسباب تخلف المسلمين الذين يتلون قول الله تعالى: **﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾**[1] ويحفظون قوله ﷺ: **«المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»**.

● إن القناعة معناها الرضا بما قسم الله - عز وجل - بعد بذل أقصى الجهد، وليس معناها الكفاية والنوم فى وخم الفقر وفراش التخلف والضعف، والمرض ونحن فى حاجة إلى تربية زوجة وإلى تربية زوج على مثالية لا أن نربى جثة كيف تلتهم الأشياء وليس فيها خلق النبلاء.

وقد قالت أم كلثوم بنت أبى بكر أريد أن أتزوج شابًا قرشيًا يصب علىَّ الدنيا صبًا، وذلك حين خطبها عمر رضي الله عنه فوصفته بالشيخ الزاهد، قالت ذلك لأختها أم المؤمنين، عائشة فما لامتها وما اعترضت عليها وكان لها ما أرادت، وأرسلت عائشة عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب فاعتذر له بطريقة لطيفة، حيث قال له:

- نحب أن يتزوج أمير المؤمنين!

فقال عمر:

- إن شاء الله، فى هذه الأيام.

فقال عمرو:

- مَنْ؟

فقال عمر:

- أم كلثوم بنت خير الناس بعد رسول الله ﷺ.

(١) ص: ٣٥.

فقال عمرو:

- مالك وجارية تندب أباها صباح ومساء

يريد أن يصرفه عنها، ففطن عمر، وقال:

- نشدتك الله، هل أرسلتك عائشة؟

فقال عمرو:

- نَعَمْ.

وانتهى الأمر دون غضاضة ولا إشكال ولا خصومة هكذا عرف الناس النبل.

وفى كتب السير والأحاديث أن وفداً جاء إلى النبى ﷺ فأعطاه إبلاً بين جبلين وأود أرن أرجع بالقارئ إلى حادثة مشهورة، حيث جاء رجل وقال للنبى ﷺ: أعطنى، وأساء حيث قال فإنك لا تعطينى من مالك ولا من مال أبيك فأعطاه ﷺ مراراً وفى كل مرة كان يقول له

- هل أحسنت؟ فيقول: لا، حتى قال الرجل:

أحسنت وأجملت، ونصح له ﷺ أن يقول ذلك للناس لأنهم أوجدوا عليه حين دخل مسيئًا فيحسن به أن يسمعهم ما يذهب هذا الحزن من صدورهم وقد كان.

والسؤال: هل كان النبى ﷺ - يعطيه بالعدد خمسة ثم خمسة أم كان يعطيه الجزل، وهذا الأخير هو الصواب وحين حك ﷺ - رجلاً كان قد أوجعه - أعطاه ثمانين شاة بسبب ضربة بآنية أو شيء كان فى يده الشريفة فلماذا تختفى تلك الصور ودلالتها، وتبرز صور أخرى من التقشف أو الزهد الذى لا يحمل على حقيقة معناه، وحقيقة معناه أن تنصرف نفسك عن الدنيا وهى بين يديك وأن ترغب فى النوم على الحصير وعندك سرير، وأن تأكل الشعير وأمامك الفطير من القمح والسمن، لا أن تكون عاجزاً وتدعى الزهد.

وفى القرآن الكريم ﴿ومَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾[1] وفيه ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾[2] وفيه ﴿فَآوَاكُمْ

(١) الفتح: ١٩. (٢) الأعراف: ٨٦.

وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١) ، وفيه **﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾**(٢) .

وفيه **﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾**(٣) .

نعم هذا يجب أن يكون موجودًا على أن يكون حب المسلم لله عز وجل أشد، وهذا من فقه الأساليب.

فأين الأموال؟ وأين التجارة والتصدير؟ وأين المساكن التى نرضاها، وفينا من يسكن القبور والعشوائيات والضيق.

لابد أن يفهم المسلمون كتاب الله - عز وجل - وقد جاء فى هذه الآية الكريمة من سورة التوبة ذكر الأزواج **﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾**(٤) .

ومعنى ذلك أنَّ الزوجة تحب، بل إن هناك خطرًا فى هذا الحب أن يكون حب الزوج زوجته والعكس أحب من الله ورسوله وجهاد فى سبيله. وحديث ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان معروف، وأول الصفات الثلاث أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

ولا تدل الآية ولا الحديث على انتفاء الحب وتجريد قلوب المسلمين منه، إنما تدلان على وجوده، ولا ذم له متى كان الحب لله ورسوله أعلى وأشد، **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾**(٥) .

وليس فى سورة المائدة من تخيل أو افتراض كالذى نجده فى قوله تعالى من سورة الأنعام فى الأنبياء والمرسلين **﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**(٦) فهيهات أن

---

(١) الأنفال: ٢٦. (٢) الصف: ١٣. (٣) التوبة: ٢٤.
(٤) التوبة: ٢٤. (٥) البقرة: ١٦٥. (٦) الأنعام: ٨٨.

يشرك المرسلون، وإنما هذا الشرط يطلق عليه العلماء: الشرط المحال، والذى يفيد أنه لا مجاملة ولا محاباة فى العقيدة.

إن ما ورد فى سورة التوبة ينبغى أن يكون محققًا علاقات وثروات محبوبة غير مبغضة، وحب الله ورسوله أكبر.

وقد يفهم مَنْ لا علم عنده أن الآية تصرف الناس عن حب الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشائر والأموال والتجارة الرابحة والمساكن الطيبة المرضية، وليس هذا صحيحًا والأخذ به سبيل إلى الكسر والهزيمة، وقد قال الله عز وجل فى أوائل سورة التوبة نفسها: ﴿**كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ**﴾[1] فالنص واضح بأن غير المسلمين إذا ظهروا علينا فلن تكون هناك من عهود ولا وعود، وحالنا اليوم يفسر ذلك واقعًا غير منكور، يراه الأعمى قبل البصير، وعسى الله تعالى أن يفرج الكرب بأن يعيد إلينا عقولنا الغائبة والمغيبة معًا.

الزوجة بين الحب ومقتضاه

لقد راجعت الكتاب الكريم كله، ومعظم كتب السنة التى بأيدينا، وكتب الفقه وغيرها، وهديت إلى خلاصة أضعها فى تلك السطور والأوراق، أما الخلاصة فهى أن العبرة فى الإسلام بمقتضى الحب لا بالحب، فالمكروهة فى سورة النساء فى إبقائها خير، وسوف يأتى الحديث عنها.

ومقتضى الحب العطاء وحسن المعاشرة ولا يعنى ذلك أن طلبه والسعى إلى الإحساس به أمر مذموم، لكن إذا لم يتحقق ذلك الحب فهل يكون السعى إلى الطلاق والفراق واجبًا أو مندوبًا؟

والجواب: لا

(١) التوبة: ٨.

والنظم الجليل عبر بالسكن، والمودة والرحمة، والإنفاق، والعشرة بالمعروف، والسعة والتوسيع، وكل ذلك من مقتضى الحب.

فإذا تحقق الحب فبها ونعم، وإن لم يتحقق فلا بأس باستمرار الحياة بين الزوجين على أسمى ما تكون عليه الحياة ودائمًا فى الأمر اتساع: إن كره منها خلقًا رضى منها غيره كما جاء في الحديث الشريف.

دعوة إلى التفكر فى حسنات صاحبته وهى مكلفة بما يكلف به، فالنظر فى الحسنات سبيل القبول واستمرار العلاقات.

سمعت فتاة تقول وهى طالبة للطلاق: لم يعد زوجى يحبنى!

وسئلت تلك الفتاة:

- أهو بخيل؟

قالت:

لا.

- أهو سيئ العبارة؟

- لا.

- أهو غافل عن ذكر ربه؟

- لا.

- أهو كسول لا يعمل؟

- لا.

- فلماذا طلب فراقه؟

قالت:

لم يعد يحبنى كما كان.

وسئلت:

- أيهجر فراشك ويبيت خارج بيتك؟

قالت: لا.

هذا ضرب من الهوس والعبث، وطلب للافتراء والطغيان فماذا تقول المضروبة ضربًا دخلت بسببه الإنعاش؟ هل تكتفى بطلب الطلاق أم تصر على الأرش والقصاص!

إن الحياة برمتها يصلحها مقتضى الحب، والإسلام يدعو إلى الإصلاح، وهو من مقتضيات الحب. وفى الحديث: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**.

قال - عليه الصلاة والسلام - «يحب لأخيه» ولم يقل «يحب أخاه» وفى أحاديث أخرى: **«لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا»** والتحاب: تفاعل وبذل جهد وتقديم أسباب الحب، لكنه ليس حبًا، كما تقرأ فى قارئ القرآن أن ندب له البكاء فإن لم يكن باكيا فليكن متباكيًا.

وفى الحديث: **«اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما لا أملك»** وأشار إلى قلبه ﷺ ومعنى ذلك أن الإنسان يملك أن يصنع أسباب الحب، بأن يقدم أسباب الحياة، لكن الحب نفسه لا يملكه.

وقد أوجب الشرع على المسلم أن يعدل، وبين له أن العدل فيما يملك، فالذى عنده زوجتان أو أكثر قد يميل إلى واحدة كل الميل بمعنى ينحرف وينعطف عليها بالكلية تاركًا الاخريات، وهذا ظلم، إذ عليه ألا يميل كل الميل، وهكذا، نراه ﷺ يبين لنا فيما يكون العدل، فى الماديات، فى المبيت، لكن أن يضع جنبه هنا وهو يشعر بأنه طائر من شدة الفرح، وأن يضع جنبه هناك وهو يشعر بأنه مكبل بالأغلال لا شأن لذلك بالعدل. ومن يشعر بذلك يجب عليه ألا يتهم نفسه بالظلم؛ لأنه لا يملك إحساسه، ولكن يملك ما فى جيبه وبنكه، ويملك ما بين فكيه وتقاسيم وجهه.

تستطيع أن تبتسم فى وجوه الناس كلهم، وفى قلبك ما فيه من كره أو بغض لهم، وأن تلقى أخاك بوجه حسن طلق، روى البخارى وغيره عن عائشة ﵂ أن رجلا استأذن على النبى ﷺ فقال رسول الله ﷺ ائذنوا له بئس أخو العشيرة، فلما دخل عليه لقيه بأحسن ما يلقى به الناس، وابتسم فى وجهه فلما سئل عن هذا الذى قد يبدو فى ظاهره تناقضًا قال عليه الصلاة والسلام: «**إن شر الناس من هجره الناس اتقاء فحشه**» ولولا خوف الإطالة لذكرت المزيد، لكن فى هذا القدر كفاية لمن وفقه الله تعلم ووفقها فى فهم المراد، فالغاية المنشودة هى مقتضى الحب، مع عدم اليأس فى طلبه.

وطلبه كذلك ميسور، إذا صدقت النية وصح العزم بدليل قوله ﷺ : «**وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله**» فمن تحلى بمكارم الأخلاق، وكان عابدًا لله - تعالى - مطيعًا له تفتحت له قلوب المحبين لله - عز وجل - وكان من اليسير عليها أن تحبه.

حرص المرأة على البيت

وفى حديث القرآن الكريم عن المرأة نجد شدة حرصها على البيت والعلاقة الزوجية، فهى التى ذهبت تستفتى رسول الله ﷺ فيما قاله زوجها من ظهار، تلك خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت، قال لها زوجها أنت علىّ كظهر أمى، وكان الظهار فى الجاهلية قبل الإسلام يعد طلاقًا، ولذلك قال لها ﷺ حرمت عليه، فقد جاء الإسلام على حياة ونظم وعادات وتقاليد، وترك الناس على حياتهم ونظمهم وعاداتهم وتقاليدهم وما تعارفوا عليه، وبدأ الوحى ينزل بإقرار الطيب منها والتخلص من الخبيث، لذلك قال لها ﷺ حرمت عليه بناء على الواقع المعروف حيث لم يكن قد نزل شىء بعد يفرق بين الطلاق والظهار كما جاء فى تفسير البيضاوى مع الشهاب ٨/ ١٦٥ لكن خولة أخذت تشتكى إلى الله، قال البيضاوى «الصغر أولادها».

هذه امرأة أم، معها صغار، وهى تود صادقة أن يعيش صغارها بينها وبين أبيهم، إنها لا تود فراقًا ولا دمارًا للبيت، وإنما تود حياة واستقرارًا له، فنزل الوحى وقال - عز وجل - فى سورة سماها «المجادلة» والمجادلة هنا ليست فى العقيدة، ولا فى سجال بين السنة والشيعة والمعتزلة وغيرها من الفرق التى لا أساس لها حيث إن أمة المسلمين أمة واحدة.

إنها مجادلة حول البيت الذى هو كيان أسرة، ووطن مودة واستقرار نفوس وأبدان، مجادلة فى القرب الذى هو الحياة لا فى البعد الذى هو الموت، قال عز وجل فى مطلع هذه السورة: **﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن**

قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾[١] .

ولا خلاف بين الفقهاء فى أن الرجل إذا ظاهر من امرأته وقال لها: أنت علىَّ كظهر أمى، وكان قادرًا على عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين إن لم يجد رقبة فحرام عليه أن يجامعها قبل التكفير، وذلك لصريح النص القرآنى، حيث قال الله - عز وجل - ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾.

إنما الخلاف فى الإطعام، أيصح أن يجامعها قبل إطعام المساكين، أم أن عليه أن يطعم أولاً، وسبب ذلك أنه لم يأت قوله ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ مع الإطعام كما جاء مع تحرير الرقبة والصيام، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الإطعام كذلك قبل الجماع وإنما لم يذكر اكتفاءً بما ذكر قال البيضاوى «وإنما لم يذكر التماس مع الطعام اكتفاء بما ذكر مع الآخرين، أو لجوازه فى خلال الإطعام كما قال أبو حنيفة - رضى الله تعالى عنه[٢] - .

وقد ترجم ابن عبد البر فى الاستيعاب ٤/ ٣٩٠ لخولة بنت ثعلبة فكان مما قال: «خولة بنت ثعلبة كانت تحت أوس بن الصامت أخى عبادة بن الصامت، فظاهر منها، وفيها نزلت ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ إلى آخر القصة فى الظهار، وعن عمر بن الخطاب أنه خرج ومعه الناس فمر بعجوز فاستوقفته فوقف، فجعل يحدثها وتحدثه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، جلست الناس على هذه العجوز، فقال: ويلك، تدرى مَنْ هى؟ هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة بنت ثعلبة التى أنزل الله فيها ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ والله لو أنها وقفت إلى الليل ما فارقتها إلاَّ للصلاة، ثم أرجع إليها[٣] .

---

(١) المجادلة آية (١) وما بعدها.

(٢) تفسير البيضاوى مع الشهاب ٨/ ١٦٥ .

(٣) الاستيعاب لابن عبد البر ٤/ ٣٩٠.

وعن يوسف بن عبدالله بن سلام عن خويلة - وهى خولة - قالت: فىّ وفى أوس بن الصامت أنزل الله - سبحانه وتعالى - صدر سورة المجادلة.

حب العطف والذكر

ومن تلك الرواية عنها ﷺ: «فىّ وفى أوس بن الصامت» ومن الآية الكريمة على لسان امرأة فرعون ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾[1] أجد قضية عظيمة نحن فى حاجة إليها لتربية أبنائنا وبناتنا وهى حب العطف وذكر الزوج فى معية زوجه، لم تقل «فى نزلت سورة المجادلة» ولكن قالت: فىّ وفى أوس بن الصامت زوجها وقالت امرأة فرعون مع أنه المسرف الجبار: قرة عين لى ولك فلماذا استنكفت فتيات اليوم عن ذكر أزواجهن، وعلت نبرة «أنا» ومن بعدى التجاهل والتناكر والطوفان! إن الفطرة السوية، والهوى الذى لم يلوث على تلك الشاكلة.

ولقد تفكرت طويلاً ومازلت فى قوله - تعالى -: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾[2] وقلت لماذا كانت الزوجية آية من آيات الله -عز وجل- حتى بدت لى الحكمة واسأل الله أن تكون صوابًا من خلال قصة قصها علىّ والد فتاة، قال لى:

إن ابنتى نشأت متأففة، تشمئز من كل شىء، إذا ألفت أخاها يرمى بورقة هرعت وراءه كالسعرانة، تؤنبه وتضربه، وإذا وجدت شيئًا على مائدة الطعام غير نظيف، أو بقية من البقايا قامت ولم تأكل، وكنت أقول فى نفسى: سبحان الله، ما مصير ابنتى وهى مقبلة على حياة مستقلة، أى شاب يمكن أن يعاشرها على هذا الخلق.

وقد أرقت طويلاً بسبب هذا الموضوع، وأرقت أمها معى حتى جاءنا ذات ليلة رجل نعرفه، ليخطبها، وكان مثله لا يرد، فرحنا به جميعًا وبقدومه، وكانت تعلم بقدومه وشاركت أمها فى إعداد واجب الضيافة للقادم المحبوب، كانت الليلة التى جاءنا فيها من ليالى الشتاء الباردة، وكان القادم مصابًا بنزلة برد، واستعمل فى جلسته معنا عدة مناديل ورقية تركها على حالها وانصرف بعد الاتفاق المبدئى وانصرف، ورأيت ابنتى لأول مرة فى حياتها معى ترفع تلك المناديل، وقد كادت تدسها فى

(١) القصص: ٩. (٢) الروم: ٢١.

أنفها، وكأنها ترفع باقات الورود من مكان إلى مكان، لم تأنف، ولم تستنكف، ولم تقل أدنى كلمة من الكلمات المعبرة عن الاستياء والاشمئزاز، فابتسمت وأضمرت الفرحة فى صدرى وقلت: سبحان الله

قلت لهذا الوالد، هذا معنى من معانى الآية فى قول الله ربنا **﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا﴾** فكيف يتمثل لنا معنى هذه الآية إلاّ بقراءة مثل هذا التحول الذى حدث لابنتك دون عظة سابقة وتنبيه، وإرشاد وتوجيه وكل ذلك واجب، لكن تبقى آية الله بارزة كالشمس التى تجرى لمستقر لها، إن من آية الله فى الزواج أن نرى الزوجة تتعلق ببيت زوجها، وتقبل عليه، وتعيش معه وإن كان مستواه الاجتماعى أقل بكثير من مستوى أبيها، قد تكون فى بيت أبيها مخدومة، وتصبح فى بيت زوجها خادمة، لكنها سعيدة وقد تكون فى بيت أبيها تتقلب فى النعم والخيرات وفى بيت زوجها تعانى، وتطوى بطنها على الجوع بئس الضجيع ولكنها سعيدة.

وليس ذلك بسبب الجنس كما يزعم أولياء الهوى والفراغ، وإنما ذلك آية من آيات الله - عز وجل لتستمر الحياة، ولتمضى على سنن الله عز وجل.

لقد وجدنا من النساء الصابرات المحتسبات اللاتى لا تشكو واحدة منهن زوجها، ولا عيشها، وكل واحدة منهن تقول: زوجى لا يصبر على حاجة أريدها، كل ما تشتهيه نفسى يسعى فى جلبه إلىّ بينما زوجها غير ذلك وعلى غيره وما ذلك إلا آية من آيات الله.

وقالت إحدى هؤلاء: أنا أسعد زوجة فى الدنيا.

والله يعلم أنها كانت معذبة مهجورة مضيقا عليها، لكنها الفطرة التى ينبغى أن تظل سليمة، وأن توقف الزحف الذى بات يهددها ويفسدها، وإذا كان النبى ﷺ قال إن المولود - كل مولود يولد على الفطرة وأبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، فإننى أقول: كل زواج آية تستقيم على حياة طيبة سوية والإعلام والرفاق وسوء الجيرة وفساد بعض الأهل يفعل فيه ما يفعله الأبوان فى مولود ولد على فطرة الإسلام، والقابلية للطهر وعمل البر الذى يسعى به إلى الجنة.

كلا الزوجين لصاحبه لباس

وفى سورة البقرة وفى الحديث عن ليلة الصيام يقول ربنا - عز وجل -: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[١] .

واللباس معناه الستر، فمن الذى ينزع اللباس غير إفك مفترى، وأباطيل من الأقوال والأفعال يسعى بها أناس لا يريدون إلاَّ فساداً وإن ادعوا أنهم دعاة تنوير وتثقيف وصلاح.

إن الزوجة لباس لزوجها، وكذلك الزوج لباس لزوجته فإن قلنا: ما الذى ينزع هذا اللباس عنهما فالجواب كما فى سورة الأعراف: إنه الشيطان؛ لأن الله - عز وجل - يقول: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[٢] .

وقد نقل عن كثير من العلماء أن شيطان الإنس أقوى من شيطان الجن؛ لأن شيطان الجن كما قال ربنا تصرفه الاستعاذة: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾[٣] أما شيطان الإنس فهو معك، وربما قال قبلك «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» بلسانه وقلبه مصر على إفسادك.

وشيطان الإنس هو الذى يفسد عليك زوجك، ويفسدك على زوجك.

هو الذى يبين لك عوراتها وعوارها وسوء خلقها وفى الوقت نفسه يبين لها عوراتك وعوارك، فهو ذو وجهين يلقاك بوجه، ويلقى زوجك بوجه، أما الشيطان فعدو مبين ووصفه بمبين يدل على أنه ذو وجه واحد، وإن تلون وأبدى لك النصح، وزين لك السوء.

وشيطان الإنس هو الذى صوَّر الحياة الزوجية على أنها جنس فبذر فى حياة النساء

---

(١) البقرة: ١٨٧ . (٢) الأعراف: ٢٧ . (٣) فصلت: ٣٦ .

سوءًا وفسادًا فصرن يتحدثن عن الرجولة باعتبارها جنسًا لا غير، يقال لها: لماذا طلقت؟ فتجيب: لأنه لم يكن رجلاً.

وهذا ضلال مبين، ما عرفته المرأة فى تاريخ الإسلام إلاّ على لسان الشعراء اللاعبين العابثين الذين هم فى كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون.

إن زوجة هلال الواقفى أحد الثلاثة الذين خلفوا فى تبوك عن رسول الله ﷺ استأذنت رسول الله ﷺ فى أن تبقى معه لخدمته، وقالت بصراحة إنه شيخ فان، ولا يأتيها، أى لا يجامعها، وأذن لها ﷺ وكذلك رغبت امرأة كعب بن مالك فى البقاء معه وسألته أن يستأذن رسول الله ﷺ وكما أذن لهلال بن أمية الواقفى هذا يأذن له إن شاء الله فقال لها إن هلالاً عجوز، ولكنى شاب ولا أدرى ما يقول لى رسول الله ﷺ إن استأذنته!

وقد نقلت عبارة البيضاوى فى خولة بنت ثعلبة وأنها اغتمت وحزنت لما قال لها رسول الله ﷺ حرمت عليه، وذلك بسبب صغر أولادها، لا بسبب رغبتها المتوحشة فى الجنس.

ولو كانت العملية الجنسية هذه من الخطورة بمكان لما كان للمولي - ومسألة الإيلاء معروفة - أن يتربص أربعة أشهر، قال الله عز وجل: **﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)﴾**[١] .

والله - عز وجل - بعباده عليم، هو خلقهم، وهو يعلم وسعهم، وسبحانه وتعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وقد أعطى من أقسم ألا يجامع امرأته فرصة أربعة أشهر أى ثلث سنة، ولو كانت هذه العملية لابد منها، وكانت كما نقول مسألة حياة أو موت لأعطاه فرصة أقصاها يوم أو أسبوع أو شهر.

وفى سورة البقرة التى فيها بيان حكم الإيلاء يقول ربنا - عز وجل -:

---

(١) البقرة ٢٢٦ و٢٢٧.

﴿وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾[1] .

ولا خلاف بين العلماء فى أن المعتكف يخرج من مسجده للضرورة بأن يعود مريضًا، أو يقضى حاجته، أو أن يشيع جنازة، أو أن يبيع سلعة، وغير ذلك، وليس من الضرورة أن يخرج من معتكفه ليجامع امرأته.

ومعروف فى الفقه أن الصائم يفسد صومه بالجماع، وعليه وعليها القضاء والكفارة، وكذلك يفعل المحرم الذى قصد بيت الله الحرام للنسك حاجًا كان أو معتمرًا، وفى أعمال يوم النحر إذا رمى العقبة وذبح وحلق أو قصّر أبيح له كل شىء كان محرمًا عليه إلاّ النساء فإذا طاف طواف الإفاضة حل له كل شىء حتى النساء، والأخذ بالتيسير وسنة البشير النذير ﷺ الذى يقدم بعض هذه الأعمال على بعض يحل له كل شىء إلاّ النساء متى بقى عليه شىء منها.

ولو نظرت إلى الرحلة القديمة التى كانت تبدأ من أول شوال ميقات الحج الزمانى وتنتهى يوم العاشر من ذى الحجة وجدت أن الرجل لا يباشر امرأته طوال هذه المدة وهى أكثر من شهرين، قبل أن تطوى المسافات بالطيارات فى ساعات وما شكت امرأة، وما حدث فى الكون مكروه، وقد عمرت الدنيا بالذرية وما كانت هناك من برامج لتعليم الجنس كما هو شائع اليوم، حيث تطالب بعض النساء ومن يوافقهن من الذكور الباردين بتدريس الثقافة الجنسية فى المدارس الأولية، وذلك خبل وضلال.
والمرأة التى جاءت تشكو هجر زوجها لها قالت لعمر بن الخطاب إن زوجى كثير الصيام والصلاة، فلما مدحه أخذًا بالظاهر انصرفت على حيائها، وفهم أحد الجالسين وكان اسمه «موسى» على ما ذكره ابن الجوزى فقال لعمر إنها أرادت أن تشكوه، فاستدعاها، وصارحها بما قال جليسه فقالت نعم.

فقال له عمر: فهمت مقالتها فاقض لها، فكيف كان قضاؤه وقد ولاه عمر قضاء البصرة!

استدعى زوجها وأفهمه أن يعطيها يومًا وأن يتعبد ثلاثة أيام كأنه متزوج من أربع،

---

(١) البقرة: ١٨٧.

فجعل لها يومًا لا ثلاثة ولو كان حكمه فيه قسوة على المرأة ما ولاه عمر ولاية مدينة يحكم فيها بمثل هذا الحكم بلا شك.

وهو لم يفرض على الرجل أن يجامعها فى ذلك اليوم ولكن القضاء بأن يكون فى لحافها وأن ينام إلى جوارها حدث الجماع أو لم يحدث؛ لأن الجماع لا يتأتى بحكم القضاء، فمرجعه إلى الفحولة بلغة الفقه القديمة والرغبة وطبيعة المرأة وغير ذلك مما لا حاجة فيه إلى علم.

إنما العلم فى قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾[1] اى أن يتجنب الرجل الدبر، موضع البراز فإن مَنْ أتى امرأته فى دبرها لعنه الله كما جاء فى حديث مسلم الصحيح، والعلم فى ألا يقربها فى الحيض، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾[2] وقد بينت السنة أن له الاستمتاع بما دون الفرج أثناء المحيض.

وليس هناك إجماع على أن قوله - تعالى -: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾[3] معناه الأخذ بمقدمات الجماع من القبلة وغيرها وإنما معناه قدموا لأنفسكم الأعمال الصالحة التى تجدونها عند الله هى خيرًا وأعظم أجرًا، والمقدمات من الأمور الفطرية فإن هناك فرقًا بين إتيان العاقل امرأته وبين إتيان الفحل من البقر والحمار البهيمة، وذلك أمر معروف.

وكثرة الحديث فى الجنس والإثارة يعد من أهم أسباب التحرش والزنا والفواحش، لأن فيها صرفًا عن الهمة والعمل، والزواج الذى ربما يطول الزمن قبل تحققه خصوصًا فى هذه الأيام التى أصبح الحصول فيها على مسكن من المعجزات بالإضافة إلى المعوقات الأخرى من الشبكة التى لا أساس لها فى الإسلام وقد أصبحت من شروطه الطاغية، ومن ومن ومن مما هو معروف.

وقد قالت امرأة: لقد تبينت أننى ما عشت زواجًا على هذا الذى أرى وأسمع من لحظة القمة للشهوة، ومن المداعبة، ومن الإثارة.

---

(١) البقرة: ٢٢٣. (٢) البقرة: ٢٢٢. (٣) البقرة: ٢٢٣.

وقد ذكرت قولها هذا هنا؛ لأنى أحب أن يقوله كل مسلم، وأن تقوله كل مسلمة ولكن فى ميادين التقدم العلمى وسبل الحياة الرغدة الناعمة لا فى ميدان الجنس.

قال لى أستاذى العلامة إسماعيل منصور إمام أحد أعلام التربية والتعليم: لقد تزوجت من ثلاثين عامًا ما نادتنى زوجتى مرة واحدة إلاَّ بيا أستاذ، وما تركتنى أغادر المنزل إلا بعد تناول فطورى وشرب كوبين من الشاى؛ لذلك لا أشتهى شرب شاى خارج منزلى.

وددت أن يقول كل مَنْ خالفته الرياح فى هذا الخلق تبين لى بعد كلام الأستاذ إسماعيل أننى لم أتزوج فإن زوجتى لا تنادينى أصلاً، ولا ينطق فمها باسمى، ولا ترانى وأنا أغادر البيت، فإنى دائمًا أتركها وهى نائمة.

لا أن يشرح الرجل للرجال ما كان من فنون زوجته فى الفراش ولا أن تشرح المرأة للنساء ما كان بينها وبين زوجها من جماع ومقدمات ومؤخرات، فقد نهى النبى ﷺ عن ذلك نهيًا شديدًا، فكيف يصير موضوعًا شائعًا على عينك يا راغب ويدك قصيرة، أو أمام عينك يا تلميذ وبينك وبين الوصول إليه شرعًا عشر سنين أو يزيد!

اى شىء أكبر فى حياة المرأة

قبل أن أذكر مباشرة حديث القرآن الكريم عن أكبر شىء فى حياة المرأة أكتب هنا قصة امرأة شابة باختصار شديد، تزوجت وولدت أربعة من الأولاد ثلاثة بنين وبنتًا أشبه بالقمر ليلة التمام.

وغازل تلك التى ولدت الأربعة شيطان من شياطين بنى آدم، لا شيطان من ولد إبليس، فسألت زوجها الطلاق، وتركت له الأربعة على شرطه، وطارت مع شيطانها إلى بلد بعيد وأطلق الناس عليها مثلاً جديدًا ما سمعت به فى جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى، ولا فى مجمع الأمثال للميدانى ولا فى غيرهما.

قالوا إنها قالت «راحة فؤادى ولا راحة أولادى» نظم جديد يعبر عن فساد جديد فى الطباع، ومعناه أنها آثرت راحة فؤادها على راحة أولادها.

لم يكن أبو أولادها رجل سوء، ولا بخيلاً ولا ممن تستحيل عشرتهم، كان رجلاً طيبًا عاملاً مجتهدًا، كغيره من ألوف البشر والرجال، ولن أجعل من تلك القصة رواية، ولا أضيف إليها إلاَّ جملة واحدة قالتها ابنتها حين سألها أحد الناس عن أمها فقالت «تركتنا ومشت».

ولكن كيف قالت هذه الصغيرة هذه العبارة بأسى هو أكبر من السنين وبحزن هو أعمق من صدر الطفلة البائسة، التى تولاها أبوها، وأجلسها إلى جواره يعلمها الطبيخ والغسيل وهو يشكو بثّه وحزنه إلى الله - عز وجل - بينما الهاربة ترتع فى دور السينما، وتنتقل من متنزه إلى متنزه، بعد أن رمت بالحياة الوليدة فى غياهب من البغض والسواد وسماع أسوأ العبارات عن سيرة أمها التى التصقت بها، وبمستقبلها، فمن ذا الذى يتزوج شابة هربت أمها مع خدن تزوجته ولم تلو على شىء، ومازال فى عقول الناس: البنت لأمها، بزعم أنهم يسمعون كلام الله - تعالى - ليل نهار ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1] .

وظل أصغر الأربعة يقول لأبيه:

- أين أمى؟

والرجل لا يجد ما يجيب به ولده سوى قوله:

- سوف تأتى يا حبيبى، خرجت وسوف تعود

ماذا حدث لهذه المرأة؟

أحبت، عشقت، أهو سلطان الهوى، أهو الأمل المنشود، الفارس، حلم الفتاة، وفرصة العمر، الذى لا نعيشه مرتين، ونحو ذلك من الخرافات.

والآن أذكر حديث القرآن الكريم عن أكبر شىء فى حياة المرأة، وأكبر حب فى قلبها وبين جوانحها وفى ضلوعها إن تعبيراً فى القرآن الكريم ذكره ربنا - عز وجل -

---

(١) الزمر: ٧.

هو الذى ينطق بالجواب أى ينطق بالحق الذى ضيعه الناس، حيث قال - تعالى - فى سورة القصص: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾(١).

لم يأت مثل هذا التعبير تصويراً لحال امرأة فقدت زوجًا أو والدًا أو أخًا أو حبيبًا أبدًا، وإنما جاء تصويراً لحال امرأة فقدت ولدها.

ومن ثم نكون على خطر عظيم إذا صورنا المرأة غولاً مفترسًا، تود الحب والعشق وغير ذلك من صنوف الهوى لقد قال الله عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(٢).

فلما فعلت ما ألهمت به مما استقر فى قلبها وآثرت أن تضعه فى اليم فى يمين الأقدار وهى آمنة بالوحى والوعد الذى لا يخلف عن أن تتركه لتراه أمام عينيها ذبيحًا على يد الأشرار، ولولا أن ربط الله - عز وجل - على قلبها لكان ما كان من هول ومن صخب.

إن الابن فؤاد أمه، يبقى فؤادها إذا بقى، ويفرغ فؤادها إن هلك أو غاب، أحب أبنائها إليها الصغير حتى يكبر والمريض حتى يشفى والغائب حتى يعود، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها، وهذا بلا ادعاء ولا مبالغة؛ لأنه صريح الكتاب العزيز.

فهل كانت صاحبة القصة امرأة شاذة، وهى التى حملت شهادة جامعية، أم أن عوامل كثيرة هى التى قلبت الموازين وأفسدت الفطرة؟!

إنَّ حياة الناس اليوم صخب من كل جانب، ألوف القنوات تدق طبول العشق والغرام والهوى، ومئات الأحاديث عن الجنس والمتعة مطاردة للفطرة السوية، ودفع للمعانى النبيلة خارج الأفئدة وإحلال الهوس محل العقل، والهوى محل الفطرة، ضيعوا معانى الأمومة كما يحاولون أن يضيعوا معانى كل شىء، وأن يطمسوا آثار كل شىء من شأنه أن يرقى بالفرد والأمة.

---

(١) القصص: ١٠.   (٢) القصص: ٧.

لقد تحدث القرآن الكريم عن الزواج، وعن الطلاق وعن المرأة يتوفى عنها زوجها وبيَّن أن عدتها أربعة أشهر وعشرًا، ولم يقل فى موضع واحد من تلكم المواضع بأن فؤادها أصبح فارغًا بسبب طلاق أو موت، وإنما قال **﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغا﴾** إنها الأم، ذات الفؤاد، أى ذات الولد، فأكبر حب فى حياتها حبها لابنها، فمن الذى صرفها عن فطرتها ودفع بها إلى هذا المآل السيئ، بأن تتركه صغيرًا لا يدرى يمينه من شماله، يحتاج إلى رعايتها ودفء حضنها وبر حضانتها وتجرى وراء رجل غازل فيها عاطفة زائفة لا أساس لها سوى هذا الصداع والتصدع الذى يأتيها من كل مكان وهذا فيما أرى هو عين السحر.

والله - عز وجل - حين قال فى آية البقرة: **﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾**[1] وذكر فيها أن من السحر ما يفرق به بين المرء وزوجه إنما يتسع المعنى لسحر البيان، لا السحر الذى هو معروف عند الناس، ودليلى على ذلك التوسع قول النبى ﷺ «إن من البيان لسحرًا» هذا هو البيان الأسود الذى يضحك به السحرة من أهل الهوى على نساء أمتنا العفيفات الموصوفات بالغافلات فى سورة النور فيفسدون عليهن حياتهن، ويفرقوون به بينهن وبين أزواجهن.

إن من يتصور أنَّ السحر هو الأعمال المعروفة التى يتخيل إثرها المرء أنه فعل ولم يفعل، أو أنه لم يفعل وقد فعل فقط فقد غاب عنه معنى هذا الحديث الشريف.

ويدلك على ذلك أيضًا ما جاء فى سورة سبأ من قول الذين استضعفوا للذين استكبروا **﴿لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾**[2].

ثم ماذا بعد هذا.

رد الذين استكبروا عليهم فقالوا لهم: **﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾**[3].

يعنى: هل ضربنا على أيديكم، عبارة نقولها كل يوم فماذا قال الذين استضعفوا؟

---

(١) البقرة: ١٠٢. (٢) سبأ: ٣١. (٣) سبأ: ٣٢.

يقول الله - عز وجل -: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١).

إنه مكر الليل والنهار، قس عليه أغانى الليل والنهار وأفلام الليل والنهار، ومسلسلات الليل والنهار، وفحوى ذلك كله «يا قلبى يا غرامى» هذا هو السحر الذى يفرق به بين المرء وزوجه.

لقد درسنا لطلاب العلم المدارس الأدبية ومنها الرومانسية أو الرومانتيكية ومعناها منتهى الحزن فانظر كيف صار معناها مقلوبًا، منتهى الحزن لأن الشعراء بعد الثورة الفرنسية انطلقوا إلى الحدائق والأشجار وبثوها ما فى صدورهم من أوجاع، فسميت لذلك بالرومانسية والزوجة التى تقول: زوجى غير رومانسى إنما تصدعت من بعد صداع الرومانسية المزعومة بأنها الحب والغرام وأنا أموت فيك، وأعشق البدر لأنه مثل وجهك والجيب فارغ من المال، والقلب فارغ من الإيمان. تقول إحدى الفتيات: أصل زواجى كان تقليديا يعنى فى الصالون، جاء شخص محترم من أسرة طيبة، على خلق يعمل وينتج ويربح، وعنده بيت وسيارة، وافق أهلى لأنه لا عيب فيه، وبعد مدة قليلة صحبنى إلى بيته.

من أجل ذلك حرمت متعة الحياة الزوجية!

فماذا كانت تريد؟

كانت تريد أن تعيش قصة الحرام التى يطلق عليها قصة حب، أن تتعرف على شخص من خلف الباب، وأن ترتمى فى أحضانه، وأن تزوره فى بيته، وأن تزوره عند أمه وأخته اللتين هما على شاكلته، وأن تمارس معه الحب أو أن تقنع بمقدمات الزنا، ثم تزف إليه وهو الذى على يديه ربما صارت امرأة بلغة الفقه والدين ثيبًا بلا بكارة مَنْ علمها ذلك؟ ومن فتنها؟ أليس ذلك بسبب الاتجار الرابح عند أهله الخاسر عند الله،

(١) سبأ: ٣٣.

بتأليف قصص وتجسيد مواقف الغرام والعشق بإتقان حتى تتوحد البريئة مع المجرمين والمجرمات، وهى تحسب أنها تحسن صنعًا!

هذا هو عين السحر، أما الذى قال الله فيه: ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[1] فأمره سهل بكثير، حيث يذهب كيده أن يقول المسلم «اللهم لا يأتى بالحسنات إلاّ أنت ولا يدفع السيئات إلاّ أنت ولا حول ولا قوة إلاّ بك» أو أن يقول «اللهم ارحمنى».

هل عاشت بنت شعيب قصة حب مع موسى عليه السلام ؟ وهى التى تزوجته غريبًا مطاردًا خرج خائفًا فاحتواه أبوها وزوجه فى ليلة واحدة.

وهل عاشت صحابية ابتداء بأمهات المؤمنين قصة حب حتى نجحت زوجة وفازت أما كان رحمها دفاقًا بالنبلاء والشهداء والعلماء.

ألم يكنَّ نساءً فيهن قلوب ودماء ومشاعر، وكان فيهن الشاعرات الشواعر اللاتى وصفن الحياة بما أودع فيها من خصب وجدب وإقامة وارتحال، ورحمة وعذاب، واتفاق وافتراق!

أيليق بمسلم أو مسلمة أن يصف شرع الله - تعالى - بالتقليد، وأن يصف زينة الشيطان بالجدة والعظمة والحياة المطورة!

الغافلات

الغفلة مذمومة؛ لأن الإسلام دين الفطنة والعلم، وقد أنزل الله - عز وجل - «اقرأ» أول ما أنزل إلاّ الغفلة عن الشر، وهذا العبث الذى أشرنا إليه شر بلا شك، وقد قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2] فقال «الغافلات» يقول الشهاب الخفاجى فى حاشيته ٦/٣٦٧: «هن سليمات الصدور، والقلوب نقيات الجيوب، ليس فيهن دهاء ولا مكر لم يجربن الأمور فلا يفطن».

تلك هى الفطرة التى اجتهد التجار فى الانحراف بها إلى مزالق الفواحش، وهن

---

(١) طه: ٦٩.

(٢) النور: ٢٣.

لا يخطر على بال واحدة منهن أن تقذف فى شرفها لكونها مطبوعة على الخير مخلوقة من عنصر الطهارة.

وسورة النور فيها حديث عن المرأة يجب عليها أن تأخذ به وأن تتنبه له.

وقد بدأت السورة الكريمة ببيان حد الزنا والتنفير منه وأن الزانى لا يتزوج إلاَّ زانية أو مشركة فبين الزنا والشرك علاقة جوار، فكل منهما ظلم، وكذلك الزانية لا يتزوجها إلا زانٍ أو مشرك، وذلك على الأعم الأغلب فالطيور على أشكالها تقع، وقد أجاز العلماء زواج كل منهما بالأطهار بعد توبته.

ومن قضايا سورة النور بيان العفة فى القول والظن خيراً بالمؤمنين والمؤمنات، وذلك بعد براءة أم المؤمنين من إفك خاض فيه المنافقون، وما كان من قصته أنها كانت مع النبى ﷺ فى سفر وقد نامت فتخلفت حتى أدركها صفوان بن المعطل السلمى - رضي الله عنه -. وكان من عادته أن يأتى فى آخر الجيش يجمع ما سقط من أمتعة الناس وهو الذى رد زاملة النبى ﷺ عام حجة الوداع وكان قائدها غلام أبى بكر قد نام فضلت عنه، فأعادها صفوان.

كانت رضي الله عنها قد انفرط عقدها فذهبت لتلمه، فظن الذى كان يرحلها أنها داخل الهودج فسار بناقتها يحسب أنها فوقها، فلما عادت لم تجد أحداً، وجاء صفوان فعرفها وأناخ لها ناقته وحملها وقاد بها حتى أتيا الجيش فاتهمت به فأنزل الله - تعالى - براءتها.

وبيَّن الله - عز وجل - أن لكل امرئ من العصبة الذين خاضوا فى هذه التهمة ما اكتسب من الإثم، لكن الذى تولى كبره فأثار القضية وأشعل النار له عذاب عظيم، وحذَّر الله - تعالى - عباده المؤمنين من العود إلى مثل ذلك أبداً، فقد يحسبه المرء هيِّنًا وهو عند الله عظيم.

● ومن قضايا سورة النور قضية ستر العورة المعروفة بالحجاب، والتى تقوم من أجلها الدنيا وتقعد، وهى ألف باء فى دين الله - عز وجل - عرفت المرأة أن الستر من فضيلة الحرة، وضرب المثل بالحكمة فقيل من قديم: إن العوان لا تعلم الخمرة أى أن المرأة المتوسطة فى العمر (عوان بين ذلك) لا تحتاج إلى من يعلمها كيف تختمر

وتغطى رأسها، يقول الله عز وجل فى آية النور: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] .

وفى جميع مصادر الفقه أن إجماع العلماء على أن جميع بدن الحرة عورة ما عدا وجهها وكفيها.

وفى حديث القرآن الكريم عن ملكة سبأ ما يدل على أن الستر ستر المرأة لبدنها من طباع الحرائر قبل أن يكون شرعًا ودينًا، حيث قال ربنا تعالى فى امرأة عاقلة حكمت رجالاً وأقامت دولة على ديموقراطية صحيحة فقيل لها نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك حين جاءت إلى سليمان عليه السلام وقيل لها ادخلى الصرح ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾[2] .

ومعنى كشفت عن ساقيها أنها كانت مستورة فما تعرت ساق امرأة فى زمان مضى إلاّ فى زمان ادعاء الحضارات واختلاط الثقافات.

وقد نقلت الكاميرات سيقان النساء إلى البيوت وهان على المرأة ما كان على مثلها عزيزًا، وصارت شبه عارية وإن ادعت أنها مغطاة بكساء، نعم كاسية عارية تدعى الثقافة ومن آيات ثقافتها أنها كما قال الشاعر:

ألقى الصحيفة كى يخفف رحله

والزاد حتى نعله ألقاها

تخففت وخفت، واستخفت فاطيعت، ويجب عليها أن تتوب إلى الله ربها، أو أن تتحمل سوء مصيرها بعصيانها هى ومن يدعوها إلى ذلك العرى.

---

(١) النور: ٣١.

(٢) النمل: ٤٤.

كلام ليس فى سنة ولا فى شيعة ولا فى جبرية ورافضة، فى فطرة الإنسان الذى كرمه الله - تعالى - وستره فإذا به ينزع ستر الله بإرادته ويؤثر أن يبدو مكشوفًا لكل عين، لعين البار والفاجر، فيزيد بذلك الشيطان رغبة فى الفساد، ويطمع بذلك الفاجر الذى فى قلبه مرض، بهدوء، وبدون تعصب وخطب منبرية بل إنها دعوة محب، حريص على المرأة الغالية، الذى يقول لها: اتقى الله، فأنت غالية لا رخيصة، واعلمى أنك عقل وفكر ومكلفة ولك شرف التكليف، والتكليف يقتضى الطاعة والامتثال، وليس موضوع الستر هو كل الدين، اقلبى الصفحة وأنت مستترة، واحذرى أن تسمعى لهؤلاء الذين يرون الستر قهراً وعبودية، إنما هو سمو وارتقاء بمعانى الحرية.

● ومن قضايا سورة النور تربية الأطفال، من حيث استئذانهم ثلاث مرات فى الدخول على آبائهم وأمهاتهم ﴿مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1] .

وقوله - تعالى: ﴿ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ مما يدل على أن العورة معناها الخصوصية، وفى هذه الأوقات لا يجب أن يطلع الطفل أو الخادم على حال الأزواج، ويجب أن يتسلم هذا الخلق كل جيل من بعد جيل، لقوله - تعالى - ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2] .

ينبغى أن تتناقل الفضائل جيلاً عن جيل، هذه هى الوراثة المشروعة والاتباع الجدير بالذكر.

● ومن قضايا سورة النور قضية القواعد من النساء أى العجائز اللاتى قعدن فى البيوت لكبر سنهن أو قعدن عن الحيض والولادة تفسيران ذكرهما البيضاوى فى تفسيره ٦/ ٣٩٩ مع الشهاب.

---

(١) النور: ٥٨.
(٢) النور: ٥٩.

قال الله - عز وجل -: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1] .

ومعنى ذلك أن هؤلاء النساء القواعد لا جناح عليهن أن يضعن ثيابهن الظاهرة داخل البيوت غير مبالغات بإبراز زينتهن، وأن يستعففن أى بلبس الثياب الظاهرة مع الباطنة خير لهن.

كل ذلك وغيره من باب التوكيد على الستر الذى أمر الله - عز وجل - به عباده ذكرانًا وإناثًا، والمرأة على وجه الخصوص لأن الطمع يتجه إليها.

وفى القرآن الكريم حديث عن حد السرقة وحديث عن حد الزنا، وقد قدَّم النظم الجليل فى سورة المائدة السارق على السارقة، وقدّم الزانية على الزانى فى سورة النور، فقال تعالى فى سورة المائدة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾[2] ، وقال عز وجل فى سورة النور: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾[3] .

فما سبب تقديم السارق على السارقة، وتقديم الزانية على الزانى قال العلماء قُدِّم السارق؛ لأن الغالب أن يبدأ الرجل بالسرقة لأنه مسئول عن عياله، والغالب فى الزنا أنه يأتى بسبب المرأة، وذلك فى الغالب أيضًا، فلولا أنه رأى منها ما يشجعه ما اجترأ على الزنا بها، وهذا كلام يستقيم مع العقل، وتثبته الأيام والحوادث.

وقد قال الله - عز وجل - فى سورة الأحزاب: ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾[4] .

فجعل الخضوع بالقول وهو لين الصوت وإخراجه بغنة سببًا للطمع من جانب الذى فى قلبه مرض، وهذه الآية من سورة الأحزاب دليل على أن الأخذ بالسبب لمنع الفتنة واجب، وأن له أثره فى الطهارة، وقد قال الله - عز وجل - فى أمهات المؤمنين: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[5] .

---

(١) النور: ٦٠. (٢) المائدة: ٣٨ (٣) النور: ٢٢.
(٤) الأحزاب: ٣٢. (٥) الأحزاب: ٥٣.

فإذا كانت القعيدة أو القاعد على إجازة العربية ذلك بدون تاء لاختصاصه بالنساء مأمورة بأن تستعف فى بيتها إذا كان عندها رجال، فما بالنا بالشابة الكاسية العارية التى تجلس بين الأجانب بما ضاق وقصر وكشف ووصف!

المحرمات من النساء

وفى حديث القرآن الكريم يذكر ربنا - عز وجل - أربع عشرة من النساء محرمات، لهن حرمة، وحرام على الرجل أن يتزوج بواحدة منهن وهن:

١- الأم التى حملته وولدته.

٢- البنت التى هو أبوها.

٣- الأخت لأب وأم أو لأحدهما.

٤- العمة أخت الأب، شقيقة أو غير شقيقة.

٥- الخالة، أخت الأم كذلك.

٦- بنت الأخ.

٧- بنت الأخت.

٨- الأم من الرضاعة.

٩- الأخت من الرضاعة.

١٠- الحماة، والعقد على البنات يحرم الأمهات وهى أم الزوجة.

١١- الربيبة وهى بنت المرأة المدخول بها فإن لم يدخل بأمها جاز له أن يتزوجها.

١٢- حليلة الابن أو زوجته سميت حليلة لأنها حلال للابن أو تحل مع زوجها أينما حل.

١٣- وأخت الزوجة ما دامت فى العصمة فإن ماتت أو طلقت جاز له أن يتزوج أختها.

١٤- المتزوجات.

وزادت السنة عمة المرأة وخالتها أو من كانت المرأة عمة لها أو خالة.

قال الله - عز وجل -: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤)﴾[1].

وقد ذكر المفسرون أن قوله - عز وجل - «حرمت عليكم أمهاتكم.. إلى آخره» على حذف مضاف، أى حرم عليكم نكاح (زواج) أمهاتكم وبناتكم، فالتحريم تحريم النكاح لا الذوات فيأكل الإنسان مع أمه وبنته ويعامل هؤلاء معاملة من يعرف حرمة الله - تعالى - فى هؤلاء المذكورات.

والحرمة فى الإسلام تعنى الإعظام والإجلال والإكبار وفى كتاب الله - عز وجل - ذكر للبيت الحرام، وذكر للأشهر الحرم، وذكر للحرام الذى حرمه الله عز وجل، والحرام عظيم اقترافه، ليس سهلاً على اللسان ولا على المفتى به ولا على الطبع السليم أن يقبله، والنبى ﷺ حرَّم المدينة المنورة، ومن يتتبع مواطن الحرمة يجدها محققة الأمن الذى لا تحققه جيوش الصناديد ولا قوى الدنيا جميعًا «فكل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه».

وهل ترى فى مشكلات الناس وقضايا المحاكم أكثر مما يتعلق بالدم والمال والأعراض.

إن سطرًا واحدًا من كلام النبى ﷺ يضمن لهذه الحياة الأمن والاستقرار، ويحقق نعمة الجوار والاختلاط دم حرام، كبيرة أن تريق دم أخيك.

---

(١) النساء: ٢٣ و٢٤.

ومال حرام، كبيرة أن تأكل ماله، لا يحل لك شيء من ماله إلاّ عن طيب نفس منه، وعرض حرام، لا تستحله إلا بكلمة الله إن كان يتصل بالفرج وغيره، وكل ما يحميه الإنسان ويدافع عنه عرض له حرام أن ينهش، حرام أن يغتاب، حرام أن ينال من كرامته أو أن تلوث سمعته.

اربط هذه المعانى وبين كيفية تعامل المسلم مع ذوات حرِّم عليه أن يتزوج بواحدة منهن وآخرهن كأولهن، آخر المحرمات «المحصنات» أى زوجة جارك وزوجة أخيك وزوجة زميلك فى العمل، وأى امرأة متزوجة.

والعطف كما تقول قواعد العربية يقتضى الإشراك فى الحكم، والحكم هو الحرام، والحكم هو إباحة التعامل على بعد عن الزواج وما يؤدى إليه من خطبة بل من مجرد التفكير فيه.

- هل يتحدث ولد مع أمه فى الجنس ومداعبة الرجل المرأة؟
- هل يتحدث الوالد مع ابنته فى ذلك؟
- كذلك سائر المحرمات عليه، فكيف يتدرج فى الانفلات فيتحدث إلى أخت زوجته أو إلى زميلته التى هى زوجة لأحد الناس وكأنه يتحدث مع زوجته أو أشد.

ذلك مما لا يجوز شرعًا بحال من الأحوال.

زنا المحارم

لا شيء فى دين الله اسمه «زنا المحارم» كيف يزنى رجل بامرأة هى أمه، وكيف يرتكب هذه الجريمة مع ابنته أو مع امرأة حرمها الله عليه نكاحًا شرعيًا.

يقول بعض علماء الاجتماع إن سبب هذه الوصمة العشوائيات وضيق المساكن، وضم الجثث بعضها إلى بعض فى فراش واحد، وسرير واحد، وغير ذلك وأنا أقول: إن الطباع إذا فسدت فلن يصدها اتساع مكان ولا زمان عن ارتكاب المنكرات،

والإسلام قال للناس بصريح القرآن الكريم: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾[1] ومنهج الإسلام أنه ما حرّم شيئًا إلا أحلّ فى نظيره أشياء.

فالحرام ضيق، والحلال واسع، ومن ثم قال النبى ﷺ ما نهيتكم عن شىء فاجتنبوه، وما أمرتكم بشىء فائتوا منه ما استطعتم، وبناء على ذلك نرى أن الإنسان يقوى بلا شك على اجتناب الحرام كله، لكنه لا يقوى على إتيان الحلال كله، فالمحرم من الطعام يعد على الأصابع من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله، أما الحلال فألوف الصنوف من الأطعمة، يستطيع المرء أن ينأى بجوفه عن الخمر وكل مسكر تسمّى بغيرها لكن أثره أثرها، وأمامه ما لا يحصى من الأشربة الحلال، وهو ينعم بها فى أوقات مختلفة وبلاد شتى، وأياد صناع لكل جيد منها لذيذ الطعم عظيم الفائدة.

وإذا كانت المحرمات معدودات فإنَّ غيرهن من اللاتى يباح الزواج بهن غير معدودات من المسلمات ومن الكتابيات.

وإن كانت هناك حالات ثبت فيها زنا المحارم فأغلب هؤلاء من سقط المتاع، ذكوراً كانوا أو إناثًا من الذين شربوا الخمور والبانجو ودواء السعال للأطفال وغير ذلك، والخمر أم الخبائث تنسى لب شاربها، وحتى فقد الإنسان عقله فليصنع ما شاء.

ورحم الله السهيلى فى الروض الأنف حيث فسَّر رجوع النبى ﷺ بظهره حين سمع من حمزة رضي الله عنه ما سمع وهو مخمور قبل أن ينزل تحريم الخمر من السماء، فقال: خشية أن يرميه بشىء فى ظهره فهذا رسول الله ﷺ وقد رأى أثر الخمر على لسان عمه رضي الله عنه سيد الشهداء حين قال: «أنتم عبيد أبى» عاد بظهره وتركه، لأنه ليس أهلاً للتحاور فى هذه الحالة، ومن ظهر أثر الخمر على لسانه فليس بمستبعد أن يظهر أثرها على يده فيرمى رسول الله ﷺ بسهم أو خنجر أو حجر، ومن ثم عاد النبى ﷺ بظهره ليرى الخطر المتوقع من مثله فى هذه الحالة، فإذا سكر الإنسان فهل تراه يفرق بين أمه وبين غيرها إذا وجد فى نفسه رغبة وطاقة كى يقع على امرأة.

---

(١) النساء: ٢٤.

فما بالنا وقد سكر الاثنان معًا، وضحكا، وعلا صوتهما وارتفع، أولئك كالأنعام بل أضل.

كم من الأسر الكريمة فى بلادنا ضيق عليهم، فكان السبعة والعشرة فى حجرة واحدة، وكان السرير من طابقين، ولكن تجمع البنات فى طابق، والأولاد فى طابق، وكنا نرى أحدهم ينام فوق كنبة تحت الشباك، وأخته تغطيه، وإذا قام فى جوف الليل لشرب ماء أو قضاء حاجة ورأى أخته الشابة عارية سترها وغطاها، ونزف ماء الشكوى لله - عز وجل - من ضيق الحال والرزق.

وجميع الفلاحين إلاً الأعيان كان الرجل وامرأته وعشرة من أبنائه وبناته ينامون فى قاعة الفرن خصوصًا فى الشتاء، وكانوا تحت غطاء واحد؛ لأنهم كانوا فقراء وكان بعضهم يلتصق ببعض ليستدفئ به من البرد القارص الشديد بعد أن يتسرب دفء الفرن عن طريق الباب غير المحكم، ومنافذ أخرى، وما شعر رجل برغبة فى لمس أخته ولا أخت بأن تعبث ببدن أخيها فضلاً عن ارتكاب الفاحشة وممارسة السوء.

كان هؤلاء إذا وضعوا جنوبهم على الأرض ناموا لأنهم تعبوا طول النهار فى أعمال الزراعة حيث كانوا يعملون بأيديهم وأسنانهم.

وليس ذلك تبرئة لساحة الفقر والعشوائية فإن الفقر لعنة، والضيق مذم، والحاجة كادت أن تكون كفراً كما روى البخارى عن رسول الله ﷺ.

وقد سبق الحديث عن الأموال والمساكن الطيبة وغيرهما مما ينبغى أن يكون متوفراً بين أيدى المسلمين وأن يكون حبهم لله الذى رزقهم أشد.

فالفقر سبب من الأسباب، ولكنه ليس وحده، أضف إليه ما يشاهده هؤلاء ليل نهار من إثارة ومخاطبة الهوى والقضاء على الفطرة وإهمالها، وأضف إلى ذلك كذلك المخدرات وغيرها ثم أضف فساد الطباع والاجتراء على الحرمة، التى لا يقدرها من هؤلاء ذكر ولا أنثى، قال لى أحد الفضلاء.

إنه سمع امرأة تخاطب شابًا بلغة متدنية، وكانت شبه عارية، فظن أنه يضايقها فقال من هذا؟

فقيل له: إنه ابنها.

كاد عقل الرجل يطير من الحوار الذى سمعه بينهما تمامًا كالحوار الذى يحدث بين السفهاء من الأشرار.

والأسباب يمكن ذكرها على هذا النحو:

١- الفراغ.

٢- والفقر.

٣- والمخدرات.

٤- وفساد الطبع.

٥- وفقد أسلوب التعامل بين الأرحام.

ومن قضايا النور الاستئذان

قال الله - عز وجل -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)﴾[١].

الاستئناس إعلام واستئذان، وإيناس، أى عدم توحش؛ لأن المستأذن خائف من عدم الإذن له، فإن أذن له استأنس بذلك، فقل للذين يدخلون على إخوانهم متوحشين غاضبين مفارقين لمعانى الأنس وأقلها الابتسامة.

وقد روى ابن ماجه من حديث أبى أيوب الأنصارى ﷺ أن الاستئناس يكون

(١) النور: ٢٧ - ٢٩

مع التسليم، ونصه «التسليم أن يقول السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات، فإن أذن له دخل وإلا رجع.

وقد روى أن رجلاً قال للنبى ﷺ أأستأذن على أمى؟

قال: نعم

قال: إنها ليس لها خادم غيرى أأستأذن عليها كلما دخلت.

قال: أتحب أن تراها عريانة؟

قال: لا.

قال: فاستأذن.

وفى هذا جواب عن سؤال مَنْ سأل: ما صلة الاستئذان بحديث القرآن الكريم عن المرأة؟

لقد كان الرجل فى الجاهلية يدخل البيوت بغتة ويقول: حييتم صباحًا أو حييتم مساء، وكان أحيانًا يطلع على الرجل وهو مع امرأته فى لحاف واحد.

والسؤال هل جعل الاستئذان من أجل الاطلاع على العورات؟

والجواب كما ذكر البيضاوى فى تفسيره: لم يكن الاستئذان من أجل الاطلاع على العورات (إن لم يستأذن) فقط وإنما من أجل ما يخفيه الناس عادة (٦/ ٣٧١).

وذلك معنى قوله - عز وجل - فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم، أى حتى يأتى من يأذن لكم بالدخول مع أنه لا أحد فيها، فليست هناك عورة، فلماذا منع الشرع دخول بيت من بيوت الناس خالٍ من النساء والرجال الذين لا يحبون أن يطلع أحد على عوراتهم.

والبيت سكن الإنسان، وله كما ذكرت حرمته، ومن حق ذلك الإنسان أن يتصرف فيه على راحته، وهذا القادم حتى لو كان ابنًا للمدخول عليه أن يستأذن من

(١) النور: ٢٧ و ٢٨.

أجل ذلك، هذا بالإضافة إلى أنه وطن تربية الإنسان، أولاده، ورعاية شئونه وغير ذلك فكيف يقتحم إنسان بيت غيره دون استئذان، وفى الحديث إنما جعل الاستئذان من أجل النظر، وقد بينت أن النظر إما أن يكون نظرًا إلى العورات، وإما أن يكون نظرًا إلى أشياء لا يحب صاحبها ورب البيت أن يطلع الناس عليها.

ويطيب لى أن أذكر هنا أن النبى ﷺ حين دخل على أبى بكر قبيل الهجرة الغراء لم يكن فى بيت الصديق ﷺ غير عائشة وأسماء ﷺ، ولم يرهما رسول الله ﷺ وقال لأبى بكر: أخرج مَنْ عندك، فقال له ﷺ أهلى أهلك يا رسول الله، ليس ههنا إلا أسماء وعائشة.

ومعنى ذلك أن الذين يضربون بأبصارهم داخل البيوت ويرون من بها وما بها دون أن يشعر رب البيت بتلك النظرات الفاحصة لا يتأسون بخلق رسول الله ﷺ.

كما يطيب لى كذلك أن أذكر أنه ﷺ حين دعاه عتبان بن مالك أن يصلى له فى بيته حتى يتخذ من مصلاه ﷺ مصلى له جاءه ﷺ ومعه أبو بكر ﷺ وقال له:

- أين تحب أن أصلى لك؟

لأن عتبان بن مالك ﷺ أدرى الناس ببيته وعوراته، وأدرى الناس بالمكان الذى يصلح أن يكون مصلى، لم يفتش ﷺ بيت صاحبه، ولم يعمل فيه رأيه وعقله حتى يقول: ههنا أنسب الله أكبر، وإنما ترك له كامل الحرية ليختار المكان الذى يناسبه.

ولا خلاف بين الفقهاء فى أنَّ رب البيت أولى بالإمامة فى الصلاة فى بيته، وعللوا ذلك بما ذكره ابن قدامة فى كتابه المغنى بأنه له سلطان بيته، أو أن بيته سلطانه فلا يتعدى عليه أحد إلاّ إذا أذن هو له فى ذلك.

وقضية الاطلاع على الأشياء التى لا يحب رب البيت أن يطلع عليها أحد من القضايا المهمة فضلاً عن الاطلاع على العورات، ذلك أننا نرى الرجل يزور الرجل

ومعه أولاده الصغار - أو الكبار، فيسرح الصغار فى البيت، ويمسكون بأشياء، ويلعبون بها وقد يأتى أحدهم على أشياء يكسرها، أو يعبث بها فيفسدها مما يضايق صاحب المنزل الذى يطوى الضلوع على ألم من سوء السلوك، ويضطر أن يبتسم وهو كاره ويحمد الله - تعالى - عند انصرافهم مع أبيهم وأمهم.

فللزيارة آداب يجب أن يتحلى بها الزائر، وأن يربى أولاده عليها حتى يكونوا ضيوفًا كرامًا لا شياطين تقلب موازين البيت.

وللزيارة وقتها المناسب كذلك، وقد علمنا أن رسول الله ﷺ ما كان يزور صاحبه أبا بكر رضي الله عنه. فى وقت القيلولة لأنه وقت نوم وراحة ووضع ثياب، وبعض الناس لا يجد حرجًا فى أن يمر على صاحبه فى مثل هذا الوقت قائلاً له:

- كنت أمشى فى شارعكم فقلت فى نفسى أمر عليكم، أهذه عِلَّة مقبولة كافية للهجوم على بيوت الناس دون ضرورة حقيقية!

والوقوف على الباب مدة طويلة يتنافى والمروءة والكرامة، ولذلك يستحب أن يقول للزائر: ارجع وقد قال الله - عز وجل: **﴿فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾**[1] أى من طول الوقوف.

ومن كرامة الله - عز وجل - للذين اتقوا أن فتح لهم أبواب الجنة قبل أن يساقوا إليها، فقال - عز من قائل - فى سورة الزمر: **﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾**[2] وليست الواو فى قوله **﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾** واو الثمانية، أى جاءت مع الجنة لأن لها ثمانية أبواب كما زعم أناس.

بينما قال فى الذين كفروا: **﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾**[3] بدون الواو، ومعنى ذلك أنهم يشعرون بالإهانة حتى مع العذاب، أما المتقون فحين يحضرون مكرمين إلى جنات ونعيم وعيون يجدون الأبواب مفتحة تكريمًا بل مبالغة فى التكريم.

---

(١) النور: ٢٨. (٢) الزمر: ٧٣. (٣) الزمر: ٧١.

وأنت إذا كنت منتظرًا عظيمًا أو رئيسًا أو عالمًا كبيرًا وعدك بالزيارة تفتح له باب بيتك وقد زينته وأعددته فلا يليق أن تتركه واقفًا ببابك.

ورحم الله العز بن عبدالسلام عالم الشام ومصر حيث كان يقول للطالب الذى يقرأ عليه إذا انتهى عند باب من أبواب العلم، وقد كاد وقت الدرس ينتهى، كان يقول له اقرأ سطرًا أو سطرين من الباب الجديد؛ فإنى لا أحب الوقوف على الأبواب.

وهى تورية لطيفة من شيخ وعالم جليل، مع أن الوقوف على أبواب الكتب لا بأس به، لأن كل باب فى الغالب يتضمن جديدًا فى الموضوع، ومع ذلك أراد العز أن يعلم أبناءه وطلابه ومريديه العز، وليس من العزة والكرامة أن يطول الوقوف بالباب.

وإذا كان الرجل فى حال من الأحوال التى يرعى فيها شئونه، وكانت ظروفه لا تسمح بفتح الباب لزائره، كان الأولى أن يقول له: ارجع، فالرجوع أزكى وأطهر للزائر من طول الوقوف.

وفى سورة الحجرات يقول الله - عز وجل -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ④ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑤﴾[1] .

فوصف الذين جاءوا إلى النبى ﷺ وأخذوا يصيحون: يا محمد، اخرج لنا، يا محمد، اخرج لنا هكذا، وفى هذا أذى، وصفهم ربنا تعالى بأن أكثرهم لا يعقلون.

فليس العقل فقط فى اختراع الآلات، والوقوف على المستحدث منها وتطويره، وإنما العقل فى التزام الآداب والتحلى بمكارم الأخلاق.

وهذا يجعلنا نعيد النظر فيما عليه كثير من الناس الذين ينادون أصدقاءهم فيزعجون المرضى وكبار السن، وينادون ويطلقون الصفارات، ويستعملون آلات التنبيه من سياراتهم، وقد وصل الأمر ببعضهم أنه يطلق أسوأ العبارات، ويتنابذون بالألقاب

---

(١) الحجرات: ٤ و ٥.

بحجة التوسع والتعشم والحب والمودة والغفران وأن ذلك لا يضايق أحبتهم، وهم ومن يحبون على شفا خطر عظيم ومخالفة لمن هو على خلق عظيم ﷺ.

فإن التجاوز وسوء الأدب ليس من الحب فى شيء، وإنما هو من بغض الخصال النبيلة ومن عشق العفن وسوء الفطن.

وقد ذكر العلماء أن الاستئناس والاستئذان من قواعد الدين، وأنه يستثنى من ذلك الحرق والغرق والخطر وغير ذلك من الضرورة، وفى حاشية الشهاب الخفاجى (٦/ ٣٧١): لأن الضرورات تبيح المحظورات، وموضع الضرورة مستثنى من القواعد.

وإنما ذكرت هذه الضرورة لأن الناس يتسامحون الآن، وكأن كل شيء أصبح ضرورة.

وفى الإسلام «لا يخلون أحدكم بامرأة» وقد تواترت الأحاديث الصحيحة فى ذلك، فكيف يتصور أن يأتى رجل بيته، ويستأذن على أهله، أو يفتح باب بيته بمفتاح معه فيباغت بوجود أجنبى مع امرأته فى خلوة، وإن كان ابن عم لها أو خال أو جار.

وقد ثبت أن النبى ﷺ حين زار أبا الهيثم التيهانى ﷺ لم يجده وانتظره وقد قال للإمام النووى فى شرح صحيح مسلم، لم تكن هذه خلوة، فقد كان معه ﷺ أبو بكر وعمر ﷺ وما نهى ﷺ الناس عن شيء وأتاه، وقد كانت أم سليم وأم مرام اللتان كان يقيل عندهما رسول الله ﷺ من محارمه من بنى النجار أخواله ﷺ.

فلا باب يغلق على رجل وامرأة أجنبيين أبداً فى دين الله.

والالتزام بشرع الله - عز وجل - ليس فيه اتهام لأحد، فالله - عز وجل - يريد أن يطهر عباده كما جاء فى آية المائدة وإذا كان الأزكى لمن قيل له. ارجع أن يرجع فمن باب أولى أن يرجع إذا كانت المرأة وحدها.

وقد سمعت أحد العلماء المعاصرين يقول هذا أمر مرجعه إلى البيئات والعادات، فالفلاحون يدخل بعضهم بيوت بعض فى وجود النساء وغياب الرجال، وذلك مقبول

لسبب واحد، أن البيوت (الدور) كانت مفتوحة والباب واسع يدخل منه الجمل بما حمل، والحمار والجاموسة، والرجل يجلس مسنداً ظهره إلى الباب، وأمامه الطعام والشراب، حتى يأتى رب الدار، أما أن يغلق الباب فلا بيئة ولا عادة، وإنما شرع الله ثم، والأجنبى أجنبى ولا يقال فيه ابن خال ولا ابن عم.

هذا والالتزام بآداب الزيارة مما يشجع على صلة الأرحام وهى من أساسيات هذا الدين، قال الله عز وجل ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[١] وقال فى سورة محمد: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[٢].

وفى الحديث الصحيح أن من سره أن ينسأ له فى عمره ويبارك له فى رزقه فليصل رحمه، وفى الحديث القدسى أن من وصل رحمه وصله الله، ومن قطعها قطعه الله.

ومن سوء ما يقطع العلاقات والصلات عدم الالتزام بآداب الزيارة، حين يضيق الناس البيوت على أهلها، ويعبث الصغار بالأشياء فتغضب ربة البيت التى غسلت ونظفت ورتبت؛ فإذا بأولاد أحبابنا يعبثون بذلك ويضيعونه، مما يترتب عليه غضبها أو زجرها هؤلاء العابثين فتقسم أمهم على أن هذه الزيارة هى الخاتمة والأخيرة، قائلة من زاركم منا بعد ذلك فسودوا وجهه بالطين، هيا بنا يا أولادى، فهؤلاء قوم لا سعة فى صدورهم، ولا فسحة فى بيوتهم ولا يحبون من يزورهم، ثم تنفخ وكأنها نفاثة فى العقد قائلة عند انصرافها «يا ساتر!».

ماذا عليها لو علمت صغارها، وقبل أن تعلمهم ثبت فى روعها أن البيوت حرمة، وأنها لا تحب أن يضيع أحد جهدها ولا أن يفسد أحد عليها ما أصلحت، ولا أن يبعثر أحد ما ضمنت ورتبت، وأن هناك خصوصية للبيوت، يجب احترامها، وعدم انتهاكها، والعبث بها.

ثم إنها كما تحب ذلك لبيتها وشأنها ألا تحبه لغيرها وقد قصدت بصلة الرحم ثواب

(١) النساء: ١. (٢) محمد: ٢٢.

ربها، وفضله العظيم فهى فى عبادة، وللعبادة أركانها وسننها، وغايتها ابتغاء فضل الله - عز وجل - ورضوانه، فليست ترفًا ولا نزهة فى البيوت، وإنما هى صلة، والصلة بكسر الصاد تشمل الصلة بالمال إن كان القريب محتاجًا، وقد عدها العلماء فى ضوء السنة المطهرة صدقة وصلة، وتكون بقضاء الحاجة إن كان القريب عاجزًا عن قضائها، وتكون بالمودة والعطف، وقد تكون بالسؤال عن بعد، وكل رحم مخاطب بالصلة، وبعض الناس نطق أن الخطاب لأرحامه دونه، إذ عليهم أن يصلوه أما هو فلا.

وهذا أيضًا مما يجب أن يتنبه له الناس، لأن الأمر للجميع، فلو امتثلوا لتلاقوا فى الطريق، يقول أولهم للثانى:

- إلى أين؟ فيجيب:

- إلى بيتك، ثم يسأل الثانى:

- وأنت، إلى أين؟ فيجيب:

- إلى بيتك.

عندئذ ينعطفان على أقرب البيتين، وفى صدر كل منهما مودة ورحمة، ولكن أن ينتظر أحدهما الآخر متوهمًا أن الله - عز وجل - أمره بالصلة وحده دونه فهذا ليس من الفكر الصحيح فى شىء، وقد يدعى المنتظر أنه الكبير، وحق على الصغير أن يصله، وليس ذلك بمسوغ فالكبير مأمور بالصلة كالصغير، حيث لم يقل القرآن الكريم صلوا يا صغار الكبار، وإنما قال: «والأرحام» وقالوا ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[1].

وللكبير حق التوقير، وللصغير حق الرحمة كما جاء فى الحديث الشريف.

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾[2]، ولو فهم كل مسلم أن الخطاب له، وأن كل إنسان مكلف مخاطب كذلك لتجمعت ثمار التعاون صروحًا عالية يغيظ بها المسلمون الكفار ومبدأ «أهى جاءت علىّ» مبدأ مدمر، ومحبط للأعمال والفضائل فقد دعا النبى ﷺ الصحابة إلى الصدقة فجاء بعضهم بألوف وجاء

(١) الأحزاب: ٦. (٢) المائدة: ٢.

بعضهم بصاع من تمر، أمره النبى ﷺ أن ينثره فوق الصدقات، وكأنه إكليل الزهر فوق هضبة الشموخ.

وفى الهجرة كان مع المصطفى ﷺ الغنى أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان معه عامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق، ورب درهم سبق ألف درهم، إذا كان المتصدق به لا يجد كثيراً مما ينفقه فى سبيل الله عز وجل.

أعجبنى سلوك امرأة دعى زوجها إلى عشاء فى فندق كبير، وعاد بعد منتصف الليل وقد أعدت له عشاءه المعتاد، وقالت له توقعت أن تكون فى حاجة إليه، أو أن تكون قد جعت فى الطريق فقال لها: أحسنت وأجملت، فوالله كأنى ما طعمت شيئًا، فمثل هذه الزوجة لو قالت: أى عشاء أعد وهو بين اللذات والمقبلات والمحمر والمشمر وغير ذلك لما دخل السرور على زوجها الذى ربما كان ممن اعتادوا طعام البيوت لا الفنادق، أو كان على جوع حال عودته إلى بيته وقد قال العرب: «أن ترد الماء بماءٍ أكيسُ».

ومن قضايا سورة *النور* بيان تحصن *البنات*

عجيب أمر ذلك الإنسان الذى يتهم جزافًا أمه أو أخته أو ابنته أو زوجته بعدم العفة.

عجيب أمره لأنه لم يطلع على كتاب الله - عز وجل - ولم يفد من نوره، ويمشِ على هديه.

إن من يتهم المرأة بأنها وحش جنس، وأنها زائغة العين، وأنها رجس من عمل الشيطان إنما يتهم بذلك جنس المرأة، أمه كذلك، وأخته وابنته.

قال أحد الذين لا أجد لهم وصفًا إلاّ كلمة «شيء» لعمومها، ودلالتها على العاقل وغير العاقل، وغير ذلك كل امرأة فاسدة حتى أمي.

وأعجبنى رد أحد المثقفين القدامى، حين قال له الحمد لله الذى توفى أمك قبل

أن تسمع قولك هذا، لقد رحمها الله - عز وجل - إذ توفاها قبل أن تسمع حكم ابنها عليها بأنها فاسدة.

وقد شاع بين الناس أن النساء يظهرن العفة وهن الراغبات، وعلى حد تعبيرهم: يتمنعن وهن الراغبات، ولو كان الأمر كذلك فى سلوك المرأة مع زوجها نوعًا من أنواع المداعبة والإثارة لا نوعًا من أنواع حرق الدم والاشتراط، واعتبار بعض الزوجات أن هذا وقت ضعف الرجل، وأنه مستعد من أجل ذلك أن يدفع مالاً، أو أن يتنازل عن شىء، أو أن يأذن بشىء كان قد منعه - لكان مقبولاً.

أما يكون قولهم «يتمنعن وهن الراغبات» نصيحة سوء، وتشجيع للشباب على الجرأة على المرأة فى الحرام وأنها راغبة فى الفساد فذلك ضلال وإثم عظيم، وظلم بيِّن والقرآن الكريم ينصف الفتيات، ويظهر حسن خلقهن وذلك فى سورة النور حيث يقول الله - عز وجل -: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)] أى لهن، أو للمكره إن تاب كما قال المفسرون، وقال البيضاوى فى تفسيره (٦/ ٣٧٨) والأول أوفق للظاهر، ولما فى مصحف ابن مسعود ﷺ من بعد إكراههن لهن غفور رحيم.

وقد ذكر - رحمه الله - شيئًا جميلاً من فقه هذا الدين ودرسًا عظيمًا من دروسه حين قال: «ولا يرد عليه أن المكرهة غير آثمة فلا حاجة إلى المغفرة؛ لأن الإكراه لا ينافى المؤاخذة بالذات ولذا حرم على المكره القتل وأوجب عليه القصاص»[(٢)].

وفى مصادر أخرى كثيرة يعلل الفقهاء لذلك بأن المكره على القتل يحرم عليه أن يقتل؛ لأنه لو قتل كان شهيدًا وهو نفس فلماذا يؤثر قتل نفس أخرى، إذا كان لابد من قتل فليقتل هو، وليحصل على أجر الشهادة، وإحياء نفس بريئة زكية حرّم الله تعالى قتلها إلاّ بالحق.

فى هذه الآية من سورة النور نجد تزكية الحق - تعالى - للفتيات والفتيات من الفتوة والقوة والشباب، فهن فى سن الفتوة والرغبة ومع ذلك أردن تحصنًا، ونهى

(١) النور: ٣٣. (٢) البيضاوى ٦/ ٣٧٨.

الشرع الأولياء عن إكراههن على الزنا من أجل الحصول على أموال، وكانوا يتكسبون من ورائهن بالمال وبمن يأتين به من أولاد الزنا، يتخذونهم عبيداً لهن.

أسوأ كسب وأقبح استثمار، أن تتخذ الأعراض سلعة، وأن يتخذ أبناء الحرام خدمًا وعبيدًا وجيوشًا.

وسبب نزول هذه الآية أن ستًّا من الإماء كن عند عبدالله بن أبى، وكان يكرههن على ارتكاب تلك الفاحشة ويضرب عليهن الضرائب، فشكا بعضهنّ لرسول الله ﷺ فنزلت.

والعلماء يقولون إن إرادة التحصن من الإماء يعد شذوذًا، وإذا كان ذلك فى الإماء أنهن أردن عفة وتحصنًا فما بالنا بالحرائر.

و«إنْ» فى الآية بمعنى «إذْ» أو «قد» أى إذْ أردن أو قد أردن من قبيل: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾[1] أى: فذكر قد نفعت الذكرى والله عز وجل يقول: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2] فى سورة الذاريات إذا كانت الأمة تريد التحصن أفلا تريده الحرة.

ومن فهمنا لقول الله ربنا فى سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[3] نقول إن تشجيع الناس على تعرى الحرائر من الفتيات وجذبهن إلى أعمال تسمى فنًّا وإبداعًا من الكليبات وغيرها ألا يعد ذلك من هذا الباب الذى يبتغى من ورائه عرض الحياة الدنيا.

لقد سمعنا النجوم من أهل هذا الفن يتحدثون بصراحة عما يسمى «بهارات العمل» يعنى رقصة لا تستدعيها القصة الدرامية إن وجدت فى الحقيقة قصة، ومنظر جنسى مثير، وما يسمونه إغراء، ما حكم الشرع فى ذلك؟ إن ما يصنعه هؤلاء هدفه التكسب، أن يدخل جمع كثير من الشباب دور العرض التى تعرض هذا، وأن يتزاحم

---

(١) الأعلى: ٩. (٢) الذاريات: ٥٥. (٣) الإسراء: ٣٢.

الشباب على شبابيك تلك الدور من أجل مشاهدة تلك العورات والرقصات العارية، ذلك كسب حرام بلا خلاف.

ولكن سكت العلماء عنه فظن الناس أنه حلال و«عادى» وما هو بحلال ولا عادى، إنه حرام، ومخالف لكل عادات البشر السليمة طباعهم ونفوسهم وعقولهم.

فالفن رسالة ذوق، وتنمية عقل، وإضافة علم لا يعرف سبيله تاجر إلاّ رجل أمد أهله بماله لكى يخرجوا له علمًا نافعًا يتصدق به على الناس، أو يحصل على ثمنه منهم إن كان فى حاجة إليه، إنه رسالة تعليم وتثقيف وتهذيب وليس لعبًا بأجساد النساء، وإثارة الرغبات والاستمتاع بما حرّم الله - عز وجل.

وفى سورة النور بيان لما كان عليه بعض الناس من معاملة للمرأة، واستغلالها، وقهرها، ورب إشارة أبلغ من عبارة، وصريح القرآن الكريم فى ذلك إثبات أن فى النساء عفة.

وقد روى عن عزة صاحبة كثيِّر، وما كانت صاحبته إلاّ لوجودها فى شعره أنها سئلت عن الحب العذرى الذى عرفته قبيلتها فقالت: إنما كان؛ لأن فى رجالنا جمالاً وفى نسائنا عفّة وقد نسب الله عز وجل العفة إلى النساء فى سورة النور أيضًا **﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾**[1] وقال كذلك ربنا - عز وجل -: **﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾**[2].

ورحم الله الشافعى حيث قال فى كتابه الأم إن الصبر على اللذات ممكن، ولا ضرورة فى لذة.

أنقل هذا الذى ذكره الشافعى فى ضوء كلام الله - عز وجل - حيث قال ربنا فى آية النساء: **﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾**[3].

فأمر الفقير الوصى على مال اليتيم أن يأكل بالمعروف لكنه لم يأمره - وهو عاجز عن الزواج وتكاليفه - أن يزنى أو أن يتسلى بامرأة.

---

(١) النور: ٦٠.　(٢) النور: ٣٣.　(٣) النساء: ٦٦

فلا عذر لمن يفعل ذلك، حيث إنه بوسعه أن يصبر لكن الجوع لا يصبر عليه أحد.

هذا فقه يحاول كثير من الناس طمس معالمه بمخاطبة شهوة الإنسان، وإثارته ليل نهار، وإلهابه وتجاهل عقله وفطرته.

تعــدد الزوجــات

تعدد الزوجات حلال، دون قيد يقيده، ودون شرط يلزمه، وما ينبغى لمسلم وما يكون له أن يقيد ما أطلقه الشرع، أو يشترط على مطلق لم يضع له النبى ﷺ شرطًا، والنص واضح فى مطلع سورة النساء حيث قال ربنا - عز وجل -: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾[1] .

وقد ضل قوم قالوا بجمع «مثنى وثلاث ورباع» فقالوا يجوز للمسلم أن يجمع تسع زوجات.

وإجماع العلماء على أن للحر أربعًا وأن للعبد نصفه، وأن موت النبى ﷺ عن تسع نساء من الأمور الخاصة به وحده ﷺ .

أما سائر المسلمين فعلى ما ذكرنا من الإجماع وقد كان الرجل يأتى النبى ﷺ وعلى ذمته عشر زوجات فيأمره ﷺ إذْ جاءه مسلمًا طائعًا بأن يختار له أربعًا منهن، ويفارق الأخريات.

وأما قوله - تعالى -: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾[2] .

فذلك من باب لم يفهمه كثير من الناس، وهو باب العدل الذى يكون حرص المسلم عليه أشد من حرصه على لذاته ومصلحته جميعًا؛ لأن الله عز وجل حرّم الظلم على نفسه، وجعله بين الناس حرامًا ونهى عنه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[3] .

ولم يأت عن أحد من العلماء أنه قال إن ولى المرأة المسلمة التى خطبها منه مسلم

---

(١) النساء: ٣. (٢) النساء: ٣. (٣) الأنعام: ٨٢.

متزوج يقول له: «أو تعدل؟» بمثابة الشرط يضعه قبل أن يزوجه إياها، فذلك مرجعه إلى دينه وخلقه الذى ارتضاه منه ومن ثم أقبل على تزويجه.

ولا أقول بقول من يقول: إن فى تعدد الزوجات علاجًا للعنوسة، ولا غير ذلك من الكلمات التى تسود بها الأوراق، أو يعلو بها الصوت فى برامج إعلامية وجرائد صحفية ومنتديات ثقافية وغيرها، وليس فى تعدد الزوجات من شىء يجب أن يطلع الناس عليه إلاَّ ما يأتى:

١- أنه مباح شرعًا، والمباح لا يعنى الواجب، ولا يعنى أنه حق كما يدعى المغرور بذكوريته الذى يتهدد امرأته بأن يتزوج عليها قائلاً أنا من حقى أن أتزوج.

يا هذا ليس من حقك، ولو كان من حقك لكان كل من اكتفى بزوجة واحدة آثمًا؛ لأنه لم يأخذ بهذا الحق لقوله ﷺ «أعط كل ذى حق حقه» وقوله ﷺ ابدأ بنفسك، والذى لم يعط نفسه حقها فلن يعطى صاحب حق بعدها حقه.

إنه أمر مباح شرعًا، وكل مباح يؤتى منه ما استطاع الإنسان، أى ما استطاعه، فاللحوم باختلاف صنوفها وألوانها مباح أكلها، لكنك لا تستطيع أن تأكلها معًا فى وقت واحد.

والمشى فى الشوارع لا حرج فيه على شرطه وهو ألا يكون فى قطيعة ولا عدوان ولا إثم، وكذلك المشى فى جميع البلاد فهل يستطيع إنسان أن يمشى فى كل الشوارع والبلاد فى وقت واحد.

كذلك لا يستطيع كثير من الناس أن يجمع بين زوجتين فى وقت واحد.

إذ إن الجمع بينهما يتطلب مسكنًا لكل واحدة وفراشًا وصداقًا ونفقة، ورعاية وغير ذلك، فمن هذا الذى يستطيع ذلك!

إن فهم المباح على أنه حق أمر خطير، لأن الحق يجب أن يأخذه صاحبه، ويجب أن يعطيه الذى عليه قال الله تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾[1] عليك حق يجب

(١) البقرة: ٢٨٢.

أن تؤديه، فإن فهمت أن من حقك أن تتزوج أربعًا فيجب أن تفعل ذلك، وإلاَّ كنت آثمًا ولم يقل لك الدين إن من حقك أن تتزوج أصلاً بواحدة فضلاً عن اثنتين وثلاث وأربع إلا إذا كنت قادرًا على ذلك، ففى الحديث «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج».

فماذا يفعل غير المستطيع؟

قال الله تعالى: ﴿**وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا**﴾[1] وذلك ﴿**حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: «ومن لم يستطع فعليه بالصوم» إذن عليه أن يستعف عن الحرام، وأن يتحلى بأخلاق الصائمين وجماع خلقهم «التقوى» ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[3].

ويعمل ويجتهد، والله عز وجل يغنيه، ويقويه، ويمده من فضله بما يفتح به بيتًا كريمًا، تصحبه فيه زوجة مسلمة تغض من بصره ويغض من بصرها، ويحصنها وتحصنه.

فإذا كان الزواج بواحدة يقتضى ما يقتضى من القدرة على الزواج ماديًا ونفسيًّا وغير ذلك من الرغبة فى الزواج خشية الوقوع فى مستنقع الفاحشة، فما بالنا بالزواج من أخريات.

هذا ما ينبغى أن يعلمه الناس، أن ينظروا فى مسألة الزواج من أولها، لا أن يكون الكلام ماء مراقًا من كل بحر ونهر، وفلسفة ووجهة نظر، واختلاف تفسيرات.

٢- يجب الرجوع إلى أقوال العلماء فى تفسير قوله تعالى: ﴿**ما طاب لكم**﴾ فقد جاء على معنيين:

الأول: ما مالت إليه النفس واستطابته، وهذا يدلك على أنه لا شرط فيه ولا كلام مما نسمعه من كثير من المتحدثين اليوم.

---

(١) النور: ٣٣. (٢) النور: ٣٣. (٣) البقرة: ١٨٣.

والثانى: ذكره الزمخشرى، ومعناه: ما حلٍّ، فقد أحل الله - تعالى - للحر أربعًا، ولا يملك إنسان أن يحرم ما أحله الله.

وفى المعنى الأول أقول: على المرأة المسلمة واجب فى هذا إذا اطلعت على صحيح العلم ونظرت إلى واقع الحال، ولتسأل نفسها هذا السؤال: وما الذى يجعل زوجها يميل إلى غيرها ويستطيبه وهى الجميلة المتجملة المتزينة العاقلة المدبرة المطيعة التى تملأ فراغ نفسه ووقته وفكره وغير ذلك.

تقول بعض النساء: كل ذلك فينا ولكن من الرجال مَنْ عينه زائغة وهذه عبارة كما يقول العلماء عارية عن التحقيق، وتهمة المسلم براء منها؛ لأن مَنْ زاغ بصره إلى الحرام لا ينشد الزواج، إنما ينشد الزواج مسلم حريص على طاعة ربه ورسوله ﷺ إنه ينشد بيتًا كامل الأركان، ولا ينشد سريراً خاليًا من العمران.

وكم من رجال عزفوا عن الزواج بعد موت زوجاتهم قائلين: نفشل إن تزوجنا؛ لأنا ذقنا من المرحومة كل جمال هيهات أن نجده فى غيرها.

وكم ملأت نساء مفردات حياة أزواجهن فكن فى ضمائرهم وقلوبهم وعقولهم فى الحل والترحال والإقامة والظعن (السفر) وكن أمام أعينهم ليل نهار، فما فى هذه العبارة من علة صحيحة ولا فكر مستقيم، وإنما هى علة واهية، وسبب لا يلتفت إليه عاقل.

لقد فرطت كثيرات فى الاهتمام بأنفسهن بعد الزواج، وأعلنت ما كانت تخفى من أسرار فى فساد الطبع والعقل، كانت تتظاهر قبل الزواج بالقناعة فإذا هى بعده رمز للجشع، وكانت تتظاهر قبل الزواج بالذوق واختيار الألفاظ والحرص على المعانى العالية والمقاصد النبيلة؛ فإذا بها بعده تبدو ولا شىء من ذلك فيها.

ومن قديم روى عن رجل قيل إنه أبو الأسود الدؤلى واضع علم النحو بإشارة على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - كان يأتى بيته قبل أن يتزوج فيجد جارة له واقفة أمام بيتها تطمئن عليه ثم تدخل بيتها فى أدب جم حتى لفتت انتباهه إليها وصارحته ذات ليلة فقالت له:

- هل لك فى صاحب إذا غبت ينتظرك، وإذا جعت يطعمك وإذا مرضت يمرضك، وإذا أرقت يسامرك، وإذا وإذا وإذا وأخذت تعد له من الإغراء العالى ما جعله يقول لها:

- وأين لى بهذا الصاحب؟

فقالت: أنا، تزوجنى، فما دخل الرجل بيته حتى عقد عليها، وتزوجها.

فلما غاب لم يجدها فى انتظاره، ولما جاع لم يجد فى بيتها طعامًا، ولما أرق ألفاها (وجدها) نائمة فسهر الليل الطويل وحده، ما وجد شيئًا من وعودها قد تحقق، فنصح لها فهبت فى وجهه وزجرته وقالت له: ماذا تريد يا هذا، ألست مثلك من لحم ودم، إنك تريد امرأة من حديد، لا امرأة من جنس البشر.

فما كان منه إلاَّ أن قال لها: لقد نويت أن أدعو قومك إلى وليمة يوم كذا، فاستدعى كل أرحامك، ففعلت وذبح للقوم ذبيحة، ورحب بهم، وبعد أن أكلوا وشربوا قال لهم:

- لقد جمعتكم الليلة لأستشيركم فى أمر من أمورى، فأنا منكم وأنتم منى؛ فأخلصوا لى النصح.

فقالوا: نجتهد فى النصح لك، فهات ما عندك، فقال لهم:

- ما تقولون فى صاحب وعدنى بكذا وكذا فصاحبته فلم أجد شيئًا مما قال؟
فنطقوا جميعًا فى صوت واحد، وقالوا:

- لا خير لك فى مصاحبته.

قال: أهذا رأيكم؟

قالوا: نعم.

فقال: إن هذا الصاحب ابنتكم، واشهدكم أنها طالق.

ومثل ذلك يحدث من الرجال كما يحدث من النساء، ويجب أن يكون الجميع

على خلق الصدق والوضوح، كى تبنى الحياة على أساس متين، ويكون الرجاء ممكنًا فى استمرارها على مودة ورحمة وتعاون على البر والتقوى. ولله در القائل:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها

ولكن أخلاق الرجـال تضيق

فإذا ضاق بالمرء عيش أخذ يفتش عن سعة عيش آخر.

٣- ومن مبادئ هذا الدين «العدل»، والعدل فى تعدد الزوجات يقتضى العدل فى النفقة والسكنى والمبيت وسائر الأمور المادية، وقد قال النبى ﷺ **«اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما لا أملك»**.

ومن لم يعدل فى ذلك جاء يوم القيامة وشقه مائل كما جاء فى الصحيح عنه ﷺ.

والخطاب إنما يكون بذلك شأنه شأن الخطاب الدينى الذى يزكى السلوك، ويطهر من الآثام والخبائث، ويبنى خلق المسلم، فإذا تصرف فى المباح تصرف على حذر، فهو يخاف الله - عز وجل -، ويتقيه، ويخشى غضبه وعذابه، وقد ثبت أن النبى ﷺ كان يجد التمرة لقطة، فكان يقول: **«لولا أننى أخشى أن تكون من الصدقة لأكلتها»** هذا الضرب من التنزه يجب أن يزرع فى الأرض التى يربى فيها وعليها المسلم، لأن من يحوم حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

والفرح فى الإسلام مسئولية، وليس فى هذه المظاهر المعروفة من الألوان والطبول والزخارف، والصنوف من الطعام والأشربة، والضحك والتمايل، ماذا بعد ساعة الفرح؟ أو بعد ليلته، أو بعد شهر أطلق عليه شهر العسل؟ إن إجماع العلماء بناء على حديث رسول الله ﷺ أن الرجل إذا تزوج على امرأته فله أن يخص الجديدة إن كانت بكرًا بسبع ليال فقط، وبعدها تبدأ القسمة ويأخذ العدل مجراه، وإن كانت ثيبًا خصها بثلاث ليال فقط، بعدهن تبدأ القسمة.

وقد تزوج النبى ﷺ أم سلمة ﵂ فلما انتهت الليالى المخصصة وكن ثلاث ليال لأنها كانت ثيبًا، أراد النبى ﷺ أن ينصرف فأمسكت بثيابه، وتعلقت به، فقال لها: لا حرج عليك فى أهلك إن شئت سبعت لك، وسبعت لهن، وهذا معناه واضح فلا تختص الجديدة بشهر عسل، وإنما شرع الله تعالى على ما ذكرت.

فقل للذى ينوى الزواج بأخرى: هل تعلم ذلك؟

أم أنك نويت أنْ تصحب الجديدة إلى دنيا الهيام والغرام شهرًا وشهرين وسنة وتنسى أن على ذمتك أخرى أنت مسئول عنها، ومأمور بالعدل بينها وبين غيرها ممن أباح الإسلام لك أن تتزوج بهن عليها!

هكذا يكون الخطاب، لا شرط، ولا قيد، ولا عنوسة، ولا يبوسة، إنه أمر الله عز وجل ودينه، ومقتضى الأخذ بما أباحه الله عز وجل.

فقد دخلت امرأة النار فى هرة حبستها، والهرة من الطوافين علينا فى البيوت، فإمساكها وتربيتها من المباح شرعًا، ولكن إذا حبسناها فهل نحبسها ولا نطعمها ولا نسقيها! هكذا فعلت المرأة، لا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض، أى من رزقها الموجود خارج هذا البيت الذى لم يجعله الله عز وجل سجنًا لها ولا سجنًا لأحد، إنما هو سكن يستريح فيه كل حى، ولن تتم راحته فيه إلا إذا وجد ما يأكله وما يشربه وغير ذلك.

٤- على المسلم أن يقف مليًا قبل أن يفكر فى الزواج باثنتين وثلاث وأربع عند قول الله عز وجل: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا**﴾[1] وأن يسأل عن معنى قوله - تعالى -: ﴿**أَلاَّ تَعُولُوا**﴾.

وله معنيان يخاف منهما كل مسلم يرى فى نفسه العجز عن مخالفتهما:

الأول: الميل، **والثانى**: كثرة العيال.

والمعنيان فى أمهات كتب التفسير، وكلاهما خطر على المسلم الذى هو معرض بلا

(١) النساء: ٣.

شك للميل، يميل إلى إحداهن ويترتب على ميله لواحدة ظلم للأخريات أو للأخرى، وكذلك كثرة العيال والأول منقول عن عائشة ﵂ والثاني منقول عن الشافعي ﵁.

فلو أن رجلاً تزوج أربعًا، فولدت كل واحدة له أربعة. أو أربعًا فكان في حجره ستة عشر ولدًا فكيف يقوم بالمؤونة والرعاية والتربية؟ فرح يوم تزوج، فأدى الفرح إلى نتاج بشرى، كله أفواه مفتوحة جائعة، وأجساد عارية، وأمراض تصطرخ، وأدوية غالية، ومساكن كثيرة، وما لا يحصى من الأعباء فكيف يقوم بذلك؟!

وإن اعترض معترض على الشافعي - رحمه الله - في ذلك بحجة أنه من عال يعول، وإنما يقال فيما فسره الشافعي أعال يعيل إعالة فلا عبرة بهذا الاعتراض؛ لورود عال يعول بمعنى كثرة العيال وقد ذكر ذلك زيد بن أسلم وهو من أجل التابعين، وقراءة طاوس مؤيدة له.

وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: **«كفى المرء إثمًا أن يضيع من يعول»** فهل يتزوج بأربع وينجب أربعين ثم يتركهم عالة يتكففون الناس في حياته ويرى ذلهم وفقرهم وحاجتهم قبل مماته أم ماذا يفعل؟

هكذا يكون الخطاب دون قيد أو شرط أو عنوسة أو فلسفة.

٥- لا صحة أبدًا لما يذكره السادة والسيدات من المتحدثين بأن الله - عز وجل - قد اشترط العدل في التعدد ثم قال: **﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾**(١) فنفى العدل فليس في كلام الله عز وجل من تناقض ولا تعارض، والله - عز وجل- قال ذلك وقال بعده: **﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾** التي لا هي زوجة ولا مطلقة.

وهذا الذي يخوض فيه العجزة عن فهم كلام الله - عز وجل - من باب رحمته بعباده لا من باب التضييق عليهم، ومعنى هذه الآية أن الله عز وجل يعلم مَنْ خلق، وأن رجلاً ما كائنًا من كان لا يستطيع العدل بين الناس وليس معنى ذلك نفى التعدد

(١) النساء: ١٢٩.

وإنما معناه الاجتهاد فى القسمة بينهن، والنهى عن الميل لواحدة كل الميل وهجر الأخرى حتى تبقى كالمعلقة التى لا هى بزوجة ولا مطلقة طليقة تستوفى عدتها وتتخلص من حقوق الزوج عليها، وإن رغبت فى زواج تزوجت وإلاَّ عاشت غير مطالبة بحقوق زوج تسمع له وتطيعه وهو هاجر فراشها عازف عن القرب منها.

٦- على مَنْ ينوى التعدد أن يعلم المثل القديم الذى يمثل طباع الناس ما دامت الحياة، وهو قول العرب «بينهم داء الضرائر» فبين الضرائر داء لا علاج له.

وفى سورة التحريم نجد أن نساء النبى ﷺ كان بينهن ما بين النساء الضرائر من غيرة وغيرها وقد قال الله عز وجل فى ذلك: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)**﴾[1].

خمس آيات، أى أكبر من ثلث السورة التى هى اثنتا عشرة آية يتحدث فيها القرآن الكريم عن جانب من جوانب سيرة النبى ﷺ وهو جانب بيوته وأزواجه، يقول الزمخشرى فى الكشاف ٤/ ١٣٤ وما بعدها: «روى أن رسول الله ﷺ خلا بمارية فى يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة، فقال لها: اكتمى علىَّ، وقد حرمت مارية على نفسى، فأخبرت به عائشة وكانتا متصادقتين، وقيل خلا بها فى يوم حفصة وأرضاها بذلك، فلم تكتم فطلقها واعتزل نساءه، ومكث تسعًا وعشرين ليلة، وروى أن عمر

(١) التحريم من ١ - ٥ .

قال لها لو كان فى آل الخطاب خير لما طلقك فنزل جبريل عليه السلام وقال راجعها فإنها صوّامة قوامة وإنها لمن نسائك فى الجنة.

وروى أنه شرب عسلاً فى بيت زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة، فقالتا له: إنا نشم منك ريح المغافير، فحرَّم العسل؛ لأنه ﷺ كان يكره خبيث الرائحة، فنزلت وقد ورد أن ابن عباس رضي الله عنهما سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن اللتين قال الله عز وجل فيهما ﴿إِن تَتُوبَا﴾ وذلك حين حج معه، وصب عليه ماء الوضوء فقال عمر: عجبًا لك يا ابن عباس - كأنه كره ما سأله عنه - ثم قال: هما حفصة وعائشة.

وقول الله - عز وجل: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ معناه: إن تتعاونا عليه بإساءته من الإفراط فى الغيرة، وإفشاء سره فلن يعدم هو من يظاهره، قال الزمخشرى فى الكشاف ٤/ ١٢٧: «وكيف يعدم المظاهر مَن اللهُ مولاه؟ أى وليه وناصره.

فهل أنت أيها المسلم على استعداد لمواجهة داء الضرائر وأنت دون رسول الله ﷺ بلا شك، والضرائر اللاتى فى بيتك أو تنوى ضمهن إلى بيتك دون أمهات المؤمنين اللاتى اجتمعن ذات يوم وطلبن منه زيادة فى النفقة والحلى، فأنزل الله عز وجل قوله فى سورة الأحزاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾[1]

وقد اختارت كل واحدة منهن الله ورسوله والدار الآخرة، وأصبحن بذلك أمهات المؤمنين، فهل لديك أمة من النساء يخترن الله ورسوله والدار الآخرة أم أنك تسعى إلى طالبات دنيا أنت عاجز عن تحقيق الكفاية منها لهن؟ فتزوج من شئت فى حدود ما حصر لك وتحمل إن كنت رجلاً قادراً.

---

(١) الأحزاب: ٢٨ و ٢٩.

لقد ثبت أن أم المؤمنين عائشة ﵂ كانت تغار حتى من خديجة ﵂ وهى ميتة، وقالت فيما روى فى الصحيح: «ما كانت إلا عجوزًا أبدلك الله خيرًا منها» فقال عليه الصلاة والسلام: «والله ما أبدلنى الله خيرًا منها».

وقد غضب بسبب تلك الغيرة، وتدخلت أمها أم رومان وقالت له ﷺ إنها صغيرة، وأنت خليق بأن تتحملها فرضى ﷺ وقال مشترطًا فى الصلح على ألا تذكر خديجة.

والذى يتبع ذلك يوشك أن يقول إنها حياة معذبة، وليس فيها متعة، ولا راحة، ولا جمال، يتصورها صراعًا وغيره ووجع قلب.

ومحال أن توصف حياته ﷺ بذلك إنما هى مواقف اتسع لها صدره الشريف الذى شرحه الله عز وجل، وطبيعة البشرية التى تلقاها ﷺ وقرة عينه وآية سعادته فى الصلاة.

إنها ليست قصة حياة رجل تظاهرت عليه امرأتان من نسائه فعاش عمره فى شقاق ومعاناة، وطلاق ورجعة وصدود، وإنما هى سيرة رسول خاتم أتم الله - عز وجل به الرسالات، ودعا المؤمنين إلى التأسى بعظيم أخلاقه، وسيرته الحسنة، فقال عز وجل فى آية الأحزاب: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾[1] إنه ﷺ نعم الزوج، ونعم الوالد، ونعم الرحم، ونعم الرجل الذى قام بأمر الله - عز وجل - وبلغ الناس مراده، وشكر لله عظيم فضله عليه: ﴿**وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**﴾[2] فتورمت قدماه الشريفتين من كثرة القيام والركوع والسجود.

وحين سُمِعَ صراخٌ بالمدينة المنورة بليل كان ﷺ أول من اتجه نحو الصوت، ليرى ماذا جرى راكبًا ﷺ فرسًا كان لأبى طلحة ﵁ وحين هب الناس ليروا ماذا جرى قابلهم ﷺ عائدًا وبث فيهم الطمأنينة وبشرهم ألا روع عليهم ولا فزع، إنه

(١) الأحزاب: ٢١. (٢) النساء: ١١٣.

أول من أجاب ذا الحاجة الملهوف، وأول معروف بالشجاعة احتمى الشجعان به إذ حمى الوطيس.

وحين ضاقت الأرض على المسلمين يوم حنين وولوا مدبرين ما أدبر ﷺ وما ترك ساحة القتال، وناداهم وبشائر النصر تحلق بالأفق بعد الكرب قائلاً:

أنا النبي لا كـذب أنا ابن عبد المطلب

إنها حياة من ثبت الله - تعالى - بالقرآن قلبه، وأنار بنوره سبحانه وتعالى دربه، وأيده بجنود ما رآها بشر، وكانت في عينيه الكريمتين أشد وضوحًا من ضياء الشمس ونور القمر، إنه مَنْ آخى بين المسلمين، وعاهد غيرهم فما خان، ونشر الدعوة، ولقي الوفود، وجازاهم، ووصى قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى بأن يجازي الوفود الذين كان يلقاهم ﷺ بالترحيب مرحبًا بالوفد غير ندامى ولا خزايا.

إنه من قرأ القرآن على الناس، وهو أول من فسره لهم، وهو الذي قرأ عليه الناس القرآن، وأحب هو ﷺ أن يسمعه منهم، قال له أُبي: أأقرأه عليك وعليك أنزل؟ فقال: إني أحب أن أسمعه من غيري يزيده جمالاً على جماله أن يسمعه من أتباعه يجملون به أصواتهم، ويحسنونه على حسنه بحسن أصواتهم، وما كان أحدٌ أندى منه ﷺ صوتًا، ولا أجمل تلاوة، ما اغرورقت عيناه بسبب الضرائر ومكر النساء وكيدهن، وإنما اغرورقت عيناه حين وصل ابن مسعود رضي الله عنه في تلاوته بين يديه ﷺ سورة النساء إلى قوله عز وجل: **﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾**[1] . فقال له: أمسك، أي: توقف، واغرورقت عيناه، وفاضتا بأطهر دمع على أطهر حرم، إشفاقًا منه ورحمة بأتباعه الذين سيشهد عليهم بأمر الله - عز وجل يوم الدين أنه أمرهم بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ونهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي، وأمرهم بالنساء خيرًا، وأمر نساءهم بستر العورة والتحشم، وعدم الخضوع بالقول، وبكل معروف من شأنه إصلاح الحياة الدنيا والدين الذي هو عصمة أمر المتدين، والآخرة التي يتطلع إلى عظيم ثوابها ونعيم جناتها.

---

(١) النساء: ٤١.

إنها مسيرة حياة تجمعت كلها فى حياة رجل هيهات أن يكون غير محمد ﷺ، مسيرة حياة سياسية واجتماعية واقتصادية بكل ما فى ذلك من أبعاد حدد ﷺ معالمها، وأرسى قواعدها، وبين أسرار نجاحها وازدهارها. فالكلام على حياته الزوجية، والخوض فيها، إلى درجة تصويره ﷺ فى صورة زوج له زوجات من الإهانة للمتكلم الذى لا يطلع على العلم، كلام من نضب معينه فلم ير من نور النبوة إلا شمعة، وما تحدث أحدٌ فى ذلك بما يزيل شبهة ولا يرفع بأسًا عبر التاريخ كله، وهذا يدلك على تفاهة من يظن ذلك أمرًا ضروريًا قائلاً: نرد على الذين يزعمون أنه ﷺ كان مزواجًا وكان وكان.

وفى السيرة ذاتها موقف اتهم فيه حسان بن ثابت بالجبن، وأن صفية عمة رسول الله ﷺ نزلت وقاتلت يوم الخندق ووصفت حسان ﷺ بالجبن، وقد رد ذلك كبار العلماء بقولهم: إن حسان بن ثابت كان يهجو المشركين، ولو حدث ذلك لتناوله شعراؤهم، ولما سكتوا عنه، فلما لم يهجه أحد منهم دل ذلك على أن هذا المروى فرية (كذب).

وكذلك نرى أنه لما لم يتحدث أحد فى تعدد زوجاته ﷺ ولا فى صغر عائشة ﷺ يوم بنى بها ﷺ دل ذلك على أننا نقلب فى أمور لا موضوعية فيها، وأن حديثنا فى ذلك من باب إفلاسنا فى العلم، حيث لم نجد بفتح النون ولم نجد بكسرها موضوعًا من موضوعات الحياة التى جاء الإسلام بها: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾[١] .

ويبدو أن للنساء شهوة لسماع السير الذاتية والقصص والحكايات الغرامية؛ مما شجع كثيراً من المنتسبين إلى الدعوة والعلم أن يجعل من بيت النبوة موضوعًا للكلام، وخلاصة ما فيه، اتساع صدر النبى ﷺ للدنيا والطباع بما فى ذلك أزواجه وما جبلت عليه النفوس البشرية.

وأنه ﷺ كان فى خدمة أهله، وأنه ﷺ علّمهنّ؛ لأن العلم خير، وهو

(١) الأنفال: ٢٤.

القائل «وأنا خيركم لأهلى» وأنه ﷺ عدل بينهن وقال فى مرض موته: أين أنا غداً، ومرّض فى بيت عائشة التى كانت أحب نسائه ﷺ لصلاحها فلم ينزل عليه الوحى فى لحاف امرأة سواها، وإنما نزل عليه فى لحافها فقال النووى فى تعليقاته الطيبة على سنن النسائى ومن ثم كانت أحب أزواجه إليه. فمن قال ذلك؟ ومن دعا إلى حب الصالحات، فقط يقول هؤلاء: كانت بكراً، وكانت حمراء وكانت بنت صاحبه.

وأنه ﷺ كان يدخر لأهله قوت سنة، فمن دعا إلى ذلك؟

أهو حديث عن الحب والهيام أم هو حديث عن المسئولية وما يكون به الرجل رجلاً!

إنَّ الأمة تعانى ما تعانى مما لا يخفى على أحد، وقد ثبت عنه ﷺ يوم الأحزاب أنه قال: ملأ الله بيوتهم - أو قبورهم ناراً، شغلونا عن صلاة العصر.

ذلك للهجوم المفاجئ الذى عبر عنه الذكر الحكيم فى سورة الأحزاب بقوله عز وجل: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾[1].

ومن ثم انشغل النبى ﷺ والمسلمون بهذا الأمر الجلل الذى من أجله حفر الخندق وفق رأى سلمان الفارسى رضي الله عنه وكان النبى ﷺ يحفر كما يحفر الناس، بل كان يعمل العمل الذى لا يطيقونه، ضرب الصخرة مكبراً فصارت رمالاً، وكانت قد أعيت على الناس.

وما حل بهم يحل بنا الآن، فمن شمَّر عن ساعد الجد، ودعا إلى وحدة الصف دعوة مخلص يحب رسول الله ﷺ ونصرة دينه، وعد المسألة مسألة مصير إمّا النصر الذى نرتجيه وإمّا الشهادة التى هى مطلب الأبرار، والتى آثرها الولد لنفسه وما آثر بها أباه، ترجم ابن عبد البر فى كتابه الاستيعاب ٢٢/١٥٥ لسعد بن خيثمة الأنصارى فقال «ذكر أن رسول الله ﷺ لمّا استنهض أصحابه إلى عير قريش أسرعوا، فقال

(١) الأحزاب: ١٠.

خيثمة بن الحارث لابنه سعد إنه لابد لأحدنا أن يقيم فآثرنى بالخروج، وأقم أنت مع نسائنا فأبى سعد، وقال: لو كان غير الجنة لآثرتك به، إنى لأرجو الشهادة فى وجهى هذا، فاستهما، فخرج سهم سعد فخرج مع رسول الله ﷺ إلى بدر فقتل.

أين أمثال سعد؟ ومازالت قنوات المسلمين تعج بما لا يستطاب من الريح وأمة الإسلام بلا ريح وإنما الدولة والريح للعتاة الجبارين الغازين المحتلين.

هذا ما ينبغى أن يفهمه المسلمون من باب تعدد الزوجات، ولا أعنى بقولى «ينبغى» أن أسفه من رأى أحد، أو أن أغلق الباب دون اجتهاد أحد.

وإنما الرأى الذى أرى أنه لا مجال للاجتهاد فى مثل ذلك الذى لو فهم على هذا النحو لقال المتزوجون: لن نعدد وفق منهج عرفوه، لا وفق سياسة معينة، ولا بتخويف الناس من شيء، ولا تمحك بوضع شرط من الشروط، هذا دين الله الواسع، وما أكثر ما فيه من المباح، ولكن من ذا الذى يجد فيه طيب المستراح يا صاح!

حديث القرآن الكريم عن الزوجة المكروهة

أريد فى هذا الفصل من هذا العمل الذى أسأل الله - تعالى - أن يكون مباركًا وأن يتقبله وينتفع به كل من اطلع عليه أن أبين أن هناك فرقًا بين الكره والبغض، فالكره لا يقابل الحب كما هو شائع عند كثير من الناس إنما البغض مقابل الحب، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[١] وقال - عز وجل - فى آيتين من سورة المائدة: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾[٢]، و﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[٣].

والشنآن هو البغض أو شدة البغض.

لكن الكره شىء آخر مختلف، إذ معناه حمل النفس غير راغبة لكن مع الإمكان، وثقافة الكره ثقافة واجبة حيث ظهر الفساد بسبب الجهل بها، ألا تسمع الناس يقولون «أود طلاقها» لماذا يا ولدى؟

- لأنى أكرهها.

وتقول الفتاة:

- أنا أكرهه، ومن ثم يجب أن أفارقه.

وهذا عبث بالمعانى، وجهل، فالمكروه جنين فى بطن أمه لأنه سبب العناء، وقد قال الله ربنا ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[٤] ومع ذلك تسعى النساء إلى هذا الكره المحبب إلى النفس، وتدفع ألوف الجنيهات، وتصبر على العلاج من أجل ذلك الكره.

والقتال فيه كره؛ لأن فيه إنفاق المال والنفس، ولكن الخير فيه إذا لم يكن سبيل

(١) الكوثر: ٣. (٢) المائدة: ٢. (٣) المائدة: ٨.

(٤) الأحقاف: ١٥.

إلى الصلح وحسن المعاهدة قال الله - عز وجل -: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١] .

وإنما كان فيه الخير لأنه يترتب عليه صون مقومات الحياة من الوطن الآمن، والأعراض والأموال التى كان العدو ينوى الاستيلاء عليها لو لم يقاتل ويدحض وينتصر عليه.

وفى سورة النساء يقول الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٢] .

قال البيضاوى فى معنى قوله - تعالى -: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾: بالإنصاف فى الفعل والإجمال فى القول..

أى بالعدل فى الأفعال، والجمال فى الأقوال ولتنظر فى قوله تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ هذا شرط وفعله فأين الجواب الذى هو شرع الله ودينه؟

الجواب «فاصبروا» أى: لا تفارقوهن، وقد عبّر بالعلة - كما قال العلماء ووضعها موضع الجواب، حيث قال ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

ومعنى ذلك أن المسلم لا يطلق زوجته التى يكرهها والكره هنا ليس بُغْضًا، وإنما معناه أنه يتحملها ولكن ليس عن طواعية نفس، وهوى قلب، ورضا تام، ومعنى ذلك - بلا شك - أن الحياة مع الكره ممكنه.

قال القاضى البيضاوى: «أى فلا تفارقوهن لكراهة النفس فإنها قد تكره ما هو أصلح دينًا وأكثر خيرًا، وقد تحب ما هو بخلافه وليكن نظركم إلى ما هو أصلح للدين، وأدنى إلى الخير.

ويقينى أن تثقيف الناس وفق هذا التوجيه الإلهى من الضرورة، فقد ارتفعت نسبة الطلاق على حد من يقول بالنسبة بسبب غياب هذه المعانى، لأدنى ملابسة يحدث

---

(١) البقرة: ٢١٦. (١) النساء: ١٩.

الطلاق على حد تعبير النحاة، وظن كثير من الناس خصوصًا الشباب أن الطلاق فيه راحة، وأن نزع أحد الزوجين من الآخر يريح كلاً منهما وهذا وَهْمٌ لا حقيقة فيه، فقد تكون الزوجة ذات دين، وخلق، وتدبير، لا تكون مسرفة ولا سيئة ولا عيب فيها ويسرع زوجها الكاره فى طلاقها فيندم، وقد يحدث هذا بالنسبة إليها فيكون زوجها عادلاً بارًا كريمًا ذا خلق وتتسرع بطلب فراقه وخلعه، وتندم.

وليست ثقافة الكره خاصة بالحياة الزوجية فقط فقد قال الله عز وجل: ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ و«شيئًا» نكرة، والنكرة تدل فى أول معانيها وإيرادها على العموم.

• فطالب الجنة ومبتغيها يعلم حديث النبى ﷺ **«حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»**. فتأمل معنى «المكاره» لأن النفوس مجبولة على الشح والإمساك وهى ميالة إلى النوم والدعة والراحة والسكون، فإن تحركت فإنما تود أن تتحرك إلى المتنزهات والحدائق الغناء، ولذيذ الطعام والشراب، وغير ذلك، وفى سورة النازعات يقول عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[١] فالجنة مأوى مَنْ خاف مقامه بين يدى ربه العليم العلام الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، فإن لم يحمل الإنسان نفسه على ما تكره، ويتغلب على شهواتها فكيف يصل إلى رضوان ربه.

إنما يصل إليه من تراه راكعًا ساجدًا، قال الله تعالى فيه فى سورة الفتح: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾[٢] .

فابتغاء الفضل من الله - عز وجل - من سبله الركوع والسجود وقيام الليل والمحافظة على أوقات الصلاة المفروضة.

وفى سورة الجمعة يقول الله - عز وجل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾[٣] .

---

(١) النازعات: ٤٠، ٤١.   (١) الفتح: ٢٩.   (٢) الجمعة: ١٠.

فالابتغاء من فضل الله - عز وجل - من سبله الانتشار فى الأرض لا العكوف فى المساجد ولا فى البيوت، ونجاح طالب العلم يقتضى مقاومة هواه والتغلب على ما تحبه نفسه والاعتصام بكتبه، لقد كان الإمام البخارى لكثرة حفظه ودقته يظن به أنه يتناول دواء لحفظ العلوم، فسئل عن ذلك فأجاب ﷺ بأنه إدمان الكتب وكثرة الاطلاع، هذا هو الدواء لمن أراد دواءً، وهو لن يتناوله مغروراً بعقله وذاكرته وقدرته على التحصيل فى أيسر وقت، وليعلم طلاب العلم أن طلبه ليس لإفراغه على ورقة الإجابة، والحصول على درجات عالية بسبب تلك الكتابة التى يلقيها الطالب ثم ينساها، إنما هو بناء ذاته وزاد عقله، وسر حياته، وهذا يتطلب إنفاق الوقت كله فى طلبه، وأن يستثنى حياته من كتبه لا أن يكون كتابه استثناء من حياته.

وقد كان أحد العلماء يأكل الفتيت (الفتة) من الطعام ولا يأكل الخبز، فلما سئل عن ذلك قال: الفرق بين أكل الفتيت وأكل الخبز قراءة خمسين آية، فهذا رجل حسب الحساب واهتدى إلى الصواب، بالغ فى التحصيل حتى صار علمًا من الأعلام تسعى إليه الخلائق، واليوم نجد طالب العلم يقضى معظم وقته فى الشوارع يلعب ويمرح، ولا ينظر فى كتابه إلا قليلا.

وطلاب المجد والعلا والغلبة حين ناموا عن طلب ذلك وآفاق غيرهم صار حال الأمة الإسلامية شيئًا معروفًا. من أجل ذلك كان من الضرورى أن يتعلم الناس أنه لا مكروه يترك من أجل الكره، فكل شىء نبيل له ثمنه من بذل الجهد والطاقة، وقد قال الشاعر من قديم

لا تحسبن المجد تمرًا أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وقديمًا قالت العرب:

(عند الصباح يحمد القوم السُّرَى)

أى عندما يطلع الصباح على قوم سافروا بالليل يحمدون ويثنون على جهدهم الذى بذلوه بليل حين رأوا أثره فى الصباح، وقد يكون لهم مرافقون ناموا بالليل.

وقالوا: للنهار عينان، إذا طلع النهار مشينًا فطلعت الشمس حارة، فناموا نهارهم كما ناموا ليلهم ومازالت الشقة بعيدة ومازال الطريق الذى لم يقطعوا منه خطوة - طويلاً.

وقد قال الله - عز وجل -: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝﴾[1].

وقد أنزل الله - عز وجل - وحيه إلى رسوله ﷺ بألا يضع الناس سلاحهم وأن يدركوا بنى قريظة، فأمر النبى ﷺ أصحابه قائلاً: لا يصلين أحدكم العصر إلاّ فى بنى قريظة، وأخذ بعضهم بظاهر النص فما صلى العصر إلا هناك وكان على صواب، كما كان على صواب من فهم أن للعبارة مراداً هو الهمة والنشاط، وصلوا العصر حين حضر وقتها، كان كل على صواب حيث لم يؤخر من صلى العصر حين حضر وقتها إلاّ إقامة الصلاة.

ونحن قد أخرتنا عن إدراك المعالى أسباب كثيرة من ضعف الهمة، وفتور العزيمة، ومشاهدة المباريات والمسلسلات والعناية بتافه الأمور وترك عزائمها، وجميع الأسباب معروفة بلسان الحال والمقال، ولكن العجز عن مقاومة العادات والتقاليد وهوى النفس الذى استجاب له كثير من الشباب فبادروا بتطليق نسائهم لأول عارض وأقرب ريح، ظنا بأن وجع ساعة أولى من وجع العمر والشقاق.

الإسلام يفتح صفحات الأمل، ويأمر الناس بالموعظة، وهجر التأديب، والضرب غير المؤلم، وبعث حكمين من أهله وأهلها، ورغبة فى الإصلاح وقال ربنا عز وجل: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[2]، فكيف يغلق شبابنا أبوابًا فتحها الله عز وجل.

إن الأساس فى العلاقة الزوجية الاستمرار والتأبيد والطلاق عارض، شرعه الإسلام إذا استحالت الحياة بين الزوجين، والحياة لا تستحيل مع الكره وإنما هى ممكنة معه وقد كرهت بريدة زوجها، وشفع له عندها النبى ﷺ

فقالت: أهو أمرٌ منك يا رسول الله أم شفاعة.

---

(١) الشرح: ٧ و ٨.

(٢) النساء: ١٢٨.

فقال: بل شفاعة.

فقالت: لا حاجة بى إليه، وكان مغيث زوجها عبداً، وكانت قد تحررت، أعتقتها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها والأمة إذا تحررت كان لها الخيار، أن تقيم مع زوجها وتستمر حياتها الزوجية، أو تفارقه.

لكن النبى صلى الله عليه وسلم قال لها «**إن وطأك زوجك فلا خيار لك**» قال ابن قدامة فى المغنى ٧/ ٤٣٣: «جعل تمكينها دليلاً على إسقاط حقها فما بالنا بمن دخلوا، وعاشروا وأجنبوا، إن ذلك لا يعنى عدم جواز الطلاق، وإنما يعنى ضرورة الأخذ بحرمة التلاقى وقد قال الله - عز وجل - فى حرمة العلاقة الزوجية فى آية النساء: ﴿**وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**﴾[1] .

• هناك زوجة تكرهها النفس كما قال البيضاوى ولكن لك منها أولاد ربتهم على حبك، وعدم استنزاف مالك، ولو رأيتها وهى تدبر لهم معاشهم كى توفر لك لأحببتها أو لأدركت أن فيها الخير الكثير.

إذْ إن هناك من ترمى الجديد، لتأتى بغيره أو بالأجد منه، لا ترقب فيك عهداً ولا دينًا، إن ثقافتها «هات» وقد تكون المكروهة ثقافتها: أعانك الله وحرام علىّ التبذير.

لقد صرخ أحد الرجال وقال: لا أدرى أين تذهب أموالى، وأنا الذى أعود آخر النهار ولا أجد لقمة فى بيتى وخاطب زوجته قائلاً:

هات هات هات، وأنا أقول: خذى خذى خذى فأين طعامى وشرابى!، ووردت عليه أسوأ رد، وكان مما قاله: أتظن أن فلوسك فلوس، وأن مالك مال يا أبا مال، إن ما تنفقه فى شهر يعشى به زوج أختتى أسرته المكونة من نصف عددنا ليلة واحدة، غاظته، فكاد يقتلها وحمد الله - عز وجل - على نعمة النجاة من هذا الخطب الجلل، قال: كنت سأقتلها، وأضيع بذلك نفسى وصغارى، إلاَّ أن الله تداركنى برحمة من عنده.

• وقد تكون المكروهة التى تكرهها النفس ذات دين، ودعاء مستجاب فتحل

---

(١) النساء: ٢١.

البركة فى بيتك، وتنعم بصالحه من إماء الله - عز وجل - ما يكون لك خير أبدًا فى مفارقتها.

● وقد تكون المحبوبة على غير ذلك، تزرع فى نفسك الشك والريب، وكم من شخص تزوج بمن أحب، وشك فى سلوكها وخلقها فلما سألته عن ذلك قال لها:

- أوتذكرين ما كان بيننا!، ألم تفعلى كذا وكذا، ألم تدعى يوم كذا أنك ذاهبة لزيارة خالتك وصدّق أبواك، وكنت يومها معى فما المانع أن تقولى لى إنك ذاهبة إلى أمك وأنت ذاهبة إلى قاطعته:

- إلى أين؟

- قال: إلى شيطان جديد.

فقالت: أكنت شيطانًا قديمًا؟

قال: نعم.

قالت: لو كنت أدرى أنك شيطان لما أتيتك ولما أحببتك.

قال: لم يكن ما بيننا حبًا، كان ضلالاً.

قالت: الآن صار ضلالاً وقد كنت تقول فيه الشعر وتتمنى لقائى.

وهكذا يكون الصراع الذى يحدث أحيانًا.

● وقد تكون التى تكرهها النفس تنطوى على فطرة سليمة فى زمان فسدت فيه الفطرة، فأنت لا تراها مثل نساء عصرك وزمانك، لا لأنها معيبة، ولكن لأنك أنت الذى لا ترى آثار تلك الفطرة السليمة، والله عز وجل وصف المؤمنات «بالغافلات»، ورب غفلة تكون أفضل من معرفة كل ما فيها فساد، تظنها جاهلة وهى درة مصونة، وتحسبها متخلفة وهى عند الله - عز وجل - مكرمة.

ولا شك أن فيها ما يسرك، وقد أمر النبى ﷺ بالنظر فى محاسن المرأة التى تخفيها مساوئ تبدو لزوجها، فقال إن كره منها خلقًا رضى منها غيره.

ألا ترضى أن تكون زوجتك صاحبة كلمة طيبة!

ألا ترضى أن تكون زوجتك من أصل طيب!

ألا ترضى أن تكون زوجتك مطيعة لك!

ألا ترضى أن تكون وفية لعهدك محافظة على شرفك!

ألا ترضى أن تكون زوجتك ذات دين!

ألا تحب أن تراها تقيم الصلاة فى أوقاتها!

ألا تهوى أن تراها تكرم أمك وأختك!

ألا تحب أن تجدها دائمًا فى بيتك، وأنت ترى زميلك يشكو هجران زوجته بيت الزوجية، وأنها دائمًا عند أمها أو خالتها أو أختها أو صديقتها، وأنه لا فائدة فى نصحها، ولا تهديدها!

تطـــور الحيـــاة الزوجيـــة

هناك فرق كبير بين أن تتوقف الحياة الزوجية، وبين أن تتطور تلك الحياة، والحياة عند من يقرأ القرآن الكريم لا تتوقف إلاَّ بالموت ولكنها دائمًا متطورة، متحركة، ولا أعنى بالتطور: التقدم، وإنما أعنى بها انتقال من طور إلى طور، وليس من الضرورى أن يكون التطور انتقالاً من طور بداءة وحجرية وتخلف إلى طور حداثة وبرونزية وتقدم فلكل طور من الأطوار ظروفه وأحواله، لكن الحركة باقية ما بقيت الحياة، ولا يكون سكون أبدًا إلا عند الموت.

سكن الفؤاد فنم هنيئًا يا جسـد فالخلد مأوى والنعيم إلى الأبد

والدليل على ذلك قوله - عز وجل - فى سورة الروم: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ**﴾[١] .

فطور الضعف فيه حركة ونشاط، ومن يلاحظ ذلك فى الأطفال يجد عجبًا من قدرة الله عز وجل، فالأطفال يتحركون أكثر من الشباب ولا يقوى قوى على مسايرتهم، تراهم كالنحلة، هنا وهناك بسرعة البرق، وطوال الوقت.

وطور القوة حمل الأثقال، والقدرة على الانتقال من مكان إلى مكان، مع الرغبة فى إحداث تغيير، والثورة على الركود والجمود.

وطور الضعف قلة الحركة، والنوم، وغيرها مما قيل فيه:

اسـمع أحـدثك بآيـات الكبــر

تقارب الخطو وضعف فى النظر

---

(١) الروم: ٥٤.

وقلـة الطعـم إذا الأكـل حضـر

وقلـة النـوم إذا الليـل اعتكـر

نوم العشى وسعـال فـى السحر

وكثرة النسـيان فيمـا يذكـر

إلى غير ذلك، ومع ذلك كله فهناك طعام وإن قل، وذكريات وتذكر وإن ضعفت الذاكرة، وعبادة وطاعة وإن قل العطاء، وقصرت اليد، وتقاربت الخطا، هناك دائمًا حركة.

أراد سعيد بن المسيب أن يخرج للجهاد وقد كبر سنه وذهب بصره فقيل له: لقد رفع الله تعالى عنك الحرج فقال: خذونى معكم أكثر السواد، أى يزيد بمثلى عدد الجيش، والجيش يبدو سوادًا فى نظر مقابله لكثرته.

لقد رأى الرجل أن لوجوده نفعًا ما، وهو تكثير العدد الذى يرعب العدو، ويضعف من قوته المعنوية، صحيح أنه لن يرى هدفًا، ولن يسدد رمية، لأنه ضعيف القوة، مكفوف النظر ولكنه يحقق بوجوده هدفًا هو إضعاف العدو معنويًا فتصيبه رمية القوى من جنود المسلمين.

فالذى لا يرى لوجوده معنى ولا قيمة بتطور حياته حيث انتقل من مرحلة كان فيها قويا إلى مرحلة أخرى صار فيها ضعيفًا ليس على صواب فيما رآه.

- وقد رأينا كثيرًا من الناس بعد انتقاله إلى المعاش وإقصائه عن الوظيفة دب فيهم الشباب من جديد، وجرت مياه القوة فى عروقهم لما عملوا من جديد فى مشاريع خاصة، ووجدنا آخرين اعتبروا هذا الطور من حياتهم مرحلة انتظار للموت والنهاية فماتوا كل يوم حتى جاءهم الموت فعلاً.

- كان أحد قراء القرآن الكريم فى قريتنا «دبركى» مكفوف البصر، وكان إلى جوار تلاوته لكتاب الله - عز وجل - يصلح أجهزة الراديو على وجه شهد له به

الناس، وقالوا فيه: سبحان الله مع دقة هذه الحرفة، كيف كان يستعمل المكواة، وكيف كان يعرف الخلل ويصلحه، ويضع قطعة جديدة مكان قطعة قديمة إنه الشيخ «عيد عبدالله» رحمه الله، كان جميل الصوت فى التلاوة وجميل اليد فى الصناعة مع غياب البصر، لم يكن صاحب كُتاب يحفظ فيه الصغار كلام الله - تعالى - وإنما كان يقرأ فى المناسبات، فكان لا ينتظر المناسبات، ولا يود الموت للأحياء حتى يقرأ ويكتسب، وإنما صنع لهم شيئًا من الحياة من أجل الحياة.

● وقد جعل الله - عز وجل - رسالة للضعفاء الذين منعهم الضعفُ الخروج فى سبيله هى النصح لله ورسوله وألا يحبطوا القادرين على الجهاد، وألاّ يضعفوا الأقوياء معنويًّا، فقال عز وجل فى آية التوبة: **﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**[1] .

فإن قلت ما صلة ذلك بالحياة الزوجية، وكيف تتطور تلك الحياة؟ قلت لك: إن الحياة الزوجية تتطور بانتقالها من مرحلة التمهيد التى هى الخِطبة بكسر الخاء، إلى مرحلة إتمام الزواج، إلى مرحلة ما بعد الزواج من مسئوليات، إلى مرحلة الولادة والتربية ومشكلات الأولاد وغير ذلك.

والخطبة وعد بالزواج، ولا تستدعى حفلاً ولا إشهارًا كما نرى اليوم، من حفلات تسمى الشبكة والخطوبة، إنما هى مرحلة كلام وعرض، ووعود، قد تتحقق أو لا تتحقق، وقد يتم الزواج أو لا يتم.

والعلاقة بين الخطيب وخطيبته علاقة أجنبى بأجنبية فلا حق له عليها ولا حق لها عليه، ولا خروج ولا خلوة، ولا أحاديث خاصة، ولا شيئًا أبدًا مما يعرفه الشباب اليوم، من تشريع ما لم يأت فى شريعة الله - عز وجل - ومن استباحة لم يبحها كتاب ولا سنة تجلس معه وسط أهلها إن جلست، وتستمع إليه كما يستمعون، وتنتظر كما ينتظرون ذلك اليوم السعيد الذى يكون فيه العقد الذى هو بداية مرحلة جديدة،

---

(١) التوبة: ٩١.

وطور جديد تترتب عليه حقوق وواجبات، ثم البناء الذى يلى العقد أو يصاحبه فى الساعة نفسها، وبعد البناء تدب حياة جديدة قد تتطور بعد أيام بسبب حمل تم من أول لقاء؛ فيتغير بدن الزوجة ومزاجها، وتنتقل هى من مرحلة الخفة إلى مرحلة الثقل ﴿تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١) .

وبعض الناس يعتبر علاقته بزوجته قد انتهت بالحمل والولادة.

فى البداية حين تطلع إليها، وراقب خطوها، واطمأن لها، وعرف طيب سيرتها، ونبل شخصها، وأصالة طبعها، ومكارم خلقها كان كالطير يغنى على أيكها، طار خطيبًا طالبًا راغبًا، حمل الحلوى فى زينته، كان على عتبة بابها يخلع نعليه كأنها الوادى المقدس، وكأن بيتها مسجد، ابتسم، وصافح حتى الجيران، كان يجلس فى غرفة الصالون كأنه شخصية دبلوماسية رفيعة المستوى، بكامل بدلته ورباط عنقه، ورائحته طيبة، يثنى عليها كل من شمها، يتحدث بلباقة، يقبل يد أمها، يحنو على أخيها الصغير، يداعب قطتها، يمدح ذوقها ورقتها، وحين جاءت تتهادى فى جميل ثيابها قام من فوره تحية لها، فقد استعدت للقائه مثلما استعد للقائها، جلست إلى جوار أمها فى حياء، رحبت بها أمها كأنها ضيفة عما قليل سوف تنصرف، وأخذت أمها تمدح فيها وتطريها، وتشيد بعقلها وحكمتها، وأنها ست بيت ممتازة، برغم أنها خريجة الجامعة الأمريكية، لم تشغلها دراستها الرفيعة عن معرفة الأصول البيتية ومراعاة مستقبل الحياة الزوجية.

وابتسمت على استحياء، لم يدر بخلده أن هذه الرقة المتناهية بين خطيبته وأمها كانت منذ ساعتين معركة حامية، وذلك بإصرارها على أن يكون الحمام إلى جانب الدجاج واللحوم فى عشاء اليوم الذى سيحضره الخاطب المنتظر، وأن أمها قالت: كل هذا يكفى، ولا حاجة إلى حمام ولا ضرورة، فاليوم صارت الأسعار نارًا.

لم يدر بخلده شىء من ذلك ولا من غيره، كل الذى دار فى خلده أنه نظر إلى

---

(١) الأعراف: ١٨٩.

الحائط حيث علقت صورة أختها وزوجها ليلة الزفاف، ورآها أجمل من أختها، وإن كان في نفسه شيء من الواقف إلى جوار أختها، فهو أجمل منه وجهًا، وأطول منه قليلاً، وتمنى ذلك اليوم الذى تعلق فيه صورته وصورتها، وقد كان، وعاشا شهر عسل جميلاً، وبعد شهرين حملت، وتوجعت، وتألمت، وذهب بريق وجهها، وحل النمش الأسود، وانتشر فى الصفحة البيضاء، صفحة وجهها، الذى كان قبل الزواج والحمل صفحة البدر، وتابعت الطبيب.

عاد من عمله لم يجد طعامًا، فهى متعبة، وهى صادقة، قال الله - تعالى -: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾[1]، وضعت والحمد لله، ودفع مصاريف المستشفى، جاءت أمها معها، فى أيام النفاس، وجدها ترفع صوتها، وتلهبه بالأوامر، الولد حرارته مرتفعة، الولد لازم أن يزور الطبيب.. الولد ليس طبيعيًا.. الولد فيه حاجة.. أمسك.. سَمِّ الله.. بالراحة.. بهدوء عليه، إنه يشبهك.. وجد نفسه على حالة لم يضعها فى ذهنه ولم يتصورها، بعد أسبوعين تركتها أمها، وجاءتها أختها، وبالتناوب مرت مرحلة النفاس، وهدأت حالة الولد، ووجد بينهما ثالثًا إذا بكى قامت من سريرها وهرعت إليه تلملمه، وتضمه، وتقبله، وتقول له: سلامتك يا روحى... وحين يضرب رأسه فى السرير من صداع شديد لا تقول له

- سلامتك.

بدأ يسمعها وهى تتحدث إلى أمها فى التليفون، كل الحديث عن الولد، ومشكلاته، وفى النهاية... الحمد لله، مع السلامة

- أمى تسلم عليك.

- الله يسلمك ويسلمها.

تذكر يوم كانت تتحدث إليه فى التليفون وكأنها تتحدث عن الدنيا جميعًا، فهو الدنيا جميعًا، واليوم تتحدث عن مستقبل الولد، عن مدرسة خاصة، عن شقة باسمه

---

(١) لقمان: ١٤.

حتى تضمن له مستقبله، عن فكرة أمها وخالتها، رقت له في ليلة، وقد تغيرت هيئتها، واختلفت صورتها، فترهلت، وتغيرت. كان فى شوق إليها، قالت له: ألا ترى أن الولد فى حاجة إلى أخ أو أخت؟

إنها تريد أن تأتى بأخ للولد أو أخت له، فتغير إحساسه. ومع الأيام صار الأبناء ثلاثة، ووجد نفسه على هامش الحياة، فحديث البيت حول A. B. C، و أ، ب، ت، ث، ج. جمل، وعيب، وحرام، وبراڤو، وساندوتش، ودوا، وكحة، وإسهال، ولبس، وأعياد ميلاد.

ومع الأيام سوف يجلس مثلما جلس والد زوجته نصيبه من الحمام جناح، حين يأتى خطيب ابنته.

إن الحياة تتطور، من مرحلة إلى مرحلة، ومن ينظر إليها على أنها لقاء رجل وامرأة ومتعة جنسية فما فهم من الحياة شيئًا فضلاً عن عدم فهمه أصول دينه، فأنت عريس يوم الزفاف، ومن هذا اليوم أنت رجل مسئول عن النفقة وعن الذرية، وأمامك رحلة من التربية والمتعة بالأبوة ولا يعنى ذلك حرمانك من زوجتك واستمتاعك بها، لكن لا تقارن تلك المتعة بأيام العسل، فهناك فروق نقصت متعة الجنس بتغير الظروف، وعوض هذا النقص فى أشياء أخرى، فالتكامل موجود، لكنه موزع، فإما أن تقبل التوزيع إيمانًا واحتسابًا وحبًا لمن تنفعك دعوته وأنت تحت التراب، وإما أن تبحث عن تجربة أخرى إن كانت حرامًا فقد اخترت النار وإن كانت حلالاً فما أشبه الليلة بالبارحة.

حديث القرآن الكريم عن الأمهات

- ١ -

الحمل والولادة

الأمومة قد يتصورها كثير من الناس فى شكل الطفلة الصغيرة التى تضم إلى صدرها عروسًا من القماش أو البلاستيك، وتحاكيها مثلما تحاكيها أمها، وتنام فى حضنها، وتطعمها وتسقيها، وتضع أناملها الصغيرة الجميلة على رأسها برقة، وتمسح على الشعر المصنوع، عندئذ يقول هؤلاء:

- انظروا إلى الطفلة، إنها تشعر بمعنى الأمومة منذ صغرها، سبحان الله؟

وهذا الذى تخيله الكثيرون مظهرًا من مظاهر الأمومة بلا شك، ترى هل تحدث القرآن الكريم عن الأمومة من هذا الجانب، لعلنا إذا استعرضنا حديث الكتاب الكريم عن الأمومة نرى أشياء كثيرة هى معالم على طريق الحياة كما صورها خالقنا ورازقنا الله سبحانه وتعالى:

١- تدرج الحمل: تحدثت سورة الأعراف عن تدرج الحمل، من حيث الخفة والثقل، يقول الله - عز وعلا -: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[1] .

فالحمل يبدأ خفيفًا ثم يثقل، وهذا من رحمة الله - عز وعلا - بالأمهات، حيث إنهن لا يحملن ثقلاً من أول الأمر، وإنما يتدرج شيئًا فشيئًا، حتى تتعوده، ولا تمله،

(١) الأعراف: ١٨٩.

وقد أثبت علماء الاجتماع فى هذا التدرج تجربة خطيرة، حيث أتوا بفأر، وألقوه فى ماء يغلى فمات بعد إلقائه بلحظة واحدة. ثم أتوا بفأر، ووضعوه فى ماء بارد، ووضعوا تحت هذا الماء شمعة، وبدأ الماء يسخن شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى درجة الغليان والفأر يسبح فى الماء، وظل فترة طويلة حتى مات. وكانت النتيجة التى توصلوا إليها نتيجة معتبرة صحيحة، هى أن التغير المفاجئ صدمة، ولكن التغير البطيء تعتاده النفس، وقد حرّم الإسلام الخمر على مراحل، وهكذا، لو صحت الأم من نومها فوجدت نفسها حاملاً حملاً ثقيلاً لأصابها أذى وذعر، ولكن ينمو الجنين شيئًا فشيئًا.

٢- ووصفت سورة لقمان الحمل كله على الإطلاق بأنه تعب وإرهاق قال الله - عز وعلا -: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[1] والأمهات بمجرد حدوث الحمل يحدث التعب، والقيئ، وتغير الجسم، واختلاف العادات، والمزاج، وأشياء كثيرة تؤرق الحامل التى وصفها رب العزة بأنها فى وهن على وهن، والتعبير بحرف الجر «على» يفيد شدة التعب، فهو تعب على تعب محسوس مشاهد، كأنه ثقل فوق ثقل.

٣- ووصفت سورة الأحقاف الحمل والولادة بأنهما كره، فقال الله - عز وجل -: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾[2]. فهى متوجعة متألمة فى الحمل والولادة على السواء، وترى تعبير القرآن الكريم بالوصية قبل الأمهات، ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ﴾ ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ﴾.

لكنك تجد فى آيات متعددة نحو قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ...﴾[3].

---

(١) لقمان: ١٤. (٢) الأحقاف: ١٥. (٣) الإسراء: ٢٣.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[١].

وقوله عز وعلا: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[٢].

وكأننا نلحظ الفرق بين الوصية والحكم، وإن كان فى الوصية معنى الحكم، لدلالة الحكم على ذلك فى قوله - جل شأنه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ لكنه الأسلوب، لقد قالت العرب: «لا توص حريصًا» وقال الشاعر:

إذا كنت فى حاجة مرسلاً فأرسل لبيبًا ولا توصه

فاللبيب لا يحتاج إلى وصية، والحكيم لا يحتاج إلى وصية، وإنما يحتاج إلى الوصية مَنْ تراه متأبيا معرضًا، تقول للأخ القاسى: أوصيك بأخيك، وبالأب الجافى: أوصيك بولدك، وفى الوقت نفسه نتعلم من القرآن الكريم كيف يوصى بعضنا بعضًا.

انظر إلى هذا الأسلوب الوارد فى الوصية كما ذكرنا وإلى قوله عز وعلا -: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[٣] كيف تكون الوصية! إنها لا تكون بعنف ولا بغير الحكمة إذا كانت الدعوة فى عموميتها بالحكمة والموعظة الحسنة فما بالنا بالوصية، لابد أنها تكون برفق وتذكير بما للموصى به من حاجة إلى الموصَّى، وما له من فضل عليه، وفى غياب هذا المعنى غياب لفضل كبير، وفوات لخير كثير، فأنت توصى بكلمة طيبة مشفوعة بما لها تأثير على مخاطبك، فتقول للأب الجافى أوصيك بولدك، فلذة كبدك، الذى يرجو رضاك، فمن يرحمك إن لم تَرْحَمْه ومن يعينه إن لم تعنه، إنه قطعة منك، دمك الذى يسرى فى عروقك، ملامحه تنطق بآيات وجهك، وذكاؤه يدل على نبلك وعلمك، ثم إنه الضعيف الذى قواه الله بك، الحائر الذى هداه الله بك، وقد كنت سببًا فى وجوده فلا تكن سببًا فى فنائه.

وتقول موصيًا الولد العاق: أوصيك بأبيك الذى رباك صغيرًا، وتعهدك كبيرًا، فقد صرت قويًا وهو ضعيف، غنيًا وهو فقير، فما أشد حاجته إلى عونك وبرك، بمن هو أقرب الناس إليك، أصلك الذى منه خرجت، إنك ظله، فإن فنى عوده ذهب

(١) النساء: ٣٦. (٢) الأنعام: ١٥١. (٣) العصر: ٣

ظله، فإن قست قلوب الناس عليه فلا يكن قلبك من تلك القلوب، فأنت سلاحه فى مكافحة الكروب، وامتداد له فى كل الدروب، أحسن صحبة الناس واعلم أن عليك بره، وإن ضلت به سفينة الحياة فى بحر الشقاء فأنت بَرُّه، واعلم أن النبى ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة عاق**».

وما من شك فى أن وصيتك لمثل هذا العاق بأمه بعد أن تقول له: أوصيك بأمك تقول: التى حملتك فى بطنها جنينًا وأرضعتك طفلاً صغيرًا، سهرت لتنام، وتعبت لترتاح، وشقيت لتسعد، كم تألمت وتألمت من أجلك، وقد وصاك الله - تعالى بها، حيث قال: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ**﴾[1].

وقد سأل رجل النبى ﷺ فقال: مَنْ أحق الناس بحسن صحابتى يا رسول الله؟ قال: أمك، قال ثم مَنْ؟ قال: أمك قال ثم مَنْ قال أمك قال ثم من قال أبوك، ولو قال له الرجل ثم مَنْ؟ لقال أبوك حتى يبلغ الثلاث فلا فرق بين الأم والأب وقد قال القرآن الكريم ﴿**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ بالتثنية.

ولذلك إذا عدت إلى سورة العصر، حيث وصف الله - تبارك وتعالى - الذين استثناهم من الخُسْر والهلاك والضياع والعذاب بقوله - جل وعلا ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾[2] وجدت أن من أوصى أخاه المؤمن بالحق ذكره بفضله وفضيلته، ومَنْ أوصى أخاه المؤمن بالصبر ذكره بعظمه ولذيذ أثره، برفق وحسن اختيار للكلمات، لا بعنف وتجريح، إنّ الوصية بالحق أخذ بيد الضال إلى سبيل الرشاد، والوصية بالصبر أخذ بيد الضجر إلى خير مآل، والموصى والموصى له شريكان فى الفضل، والموصى اليوم موصى له غدًا، والموصى له اليوم موصٍ غدًا، فقد قال تعالى: ﴿**وَتَوَاصَوْا**﴾ أى يوصى بعضهم بعضًا.

وكثيرًا ما تقرأ أو تسمع قول أحد الموصين لأخيه أوصيك بتقوى الله وإقامة الصلاة، وذلك لحاجته إليهما، وليس لحاجة التقوى والصلاة إليه.

---

(١) لقمان: ١٤.
(٢) العصر: ٣.

- ٢ -

الرضـــــاع

إسناد الفعل إلى الفاعل عملية من أهم عمليات صناعة الكلام، والقرآن الكريم بلسان عربي مبين، وقد أسند الرضاعة إلى الأمهات، فقال - عز وعلا -: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾[1] .

الوالدات يرضعن، لبن الحياة فى فم الوليد ذكرًا كان أو أنثى هو العوض عن الحبل السرى الذى انقطع بمجرد الولادة، يقول للوليد إذا انقطع حبل واحد بينى وبينك كان يوصل لك الغذاء وأنت بداخلى، فقد وصلتك عناية السماء بحبال، لبن خالص لك، افتح فمك ومصه، وكل واشبع، افتح هذا الفم والتقم هذا الصدر، وخذ ما يكفيك، عساك تذكر هذا الفضل فلا تقسو حين تكبر، وعسى هذا الفم الذى فتحته وأنت لا تدرى لكى ترضع وتعيش تفتحه بكلمة طيبة تعيش عليها التى أرضعتك.

لقد تحدث الأطباء عن لبن الأم، وبينوا فوائده وأنه أنسب شىء للطفل تكوينًا لمواده، وحفظًا من التلوث، سال دون أن تتدخل فيه أيدى البشر، لم يوضع فى علب، ولم يعبأ فى مصانع، ولم تحمله سيارات، ويوضع فى ثلاجات ، وإنما هو طاهر طيب مفيد مائة فى المائة، صنع الله وحده، ومع ذلك وجدنا شابات فى زمن العلم والتقدم يعزفن عن رضاعة أولادهن حفاظًا على صدورهن، وأدخلن سمومًا وملوثات فى أجواف صغارهن، ووجدناهن يرضعن أولادهن من الأيام الأولى أشياء أخرى من السوائل قائلات: لقد أجاز الطبيب ذلك وأساتذة طب الأطفال من الذين هم أمناء على هذا العلم. ينصحن الأمهات اللاتى يبادرن بإطعام أولادهن بعد شهور أربعة طعام الكبار قائلين: لو أراد الله - تعالى - للوليد أن يأكل معنا من أول يوم جاء

فيه إلى الدنيا لأنزله من بطن أمه كامل الأسنان، وهذه جملة غالية، فإن نزول الطفل إلى الحياة الدنيا بلا أسنان يقول: لا تطعمونى، وإنما أرضعونى، فأنا لا أسنان لى مثلكم، اصبروا علىَّ، ولكن لا أحد يسمع، نحشو جوفه بالبطاطس والبيض وأشياء أخرى ونقول: إنه لا يرفض وهل يعلم شيئًا حتى يقبل أو يرفض، إنه بأمر الله - تعالى - يصرخ حين يجوع، ويفتح فمه ليلتهم أى شىء، وهذا الفم الخالى من الأسنان لغته تقول، ولسان حاله يقول اللبن اللبن، ولبن الأم غذاؤه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾.

والرضاعة ليست مجرد غذاء، وإنما هى حب من جانب الأم، التى من الممكن أن تنسى كل شىء إلاّ إرضاع ولدها أو بنتها، وهذا المعنى تحدث عنه القرآن الكريم فى أول سورة الحج، حيث قال عز وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾[1] أى الشىء الوحيد الذى يمكن أن يذهل المرضعة عما أرضعت هو قيام الساعة، وهذا مظهر من مظاهر هولها وشدتها، فأنت حين تقرأ قول الله - عز من قائل - فى سورة المزمل: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾[2] تقف عند تصوير الحق - تعالى - هول هذا اليوم بأنه يجعل الولدان شيبًا، عجيب أن يشيب الوليد، ومثل هذا العجيب أن تذهل المرضعة عما أرضعت.

لقد رأينا أمهات يفزعن من مجلس، أو ينفضن أيديهن من عمل حين يسمعن صوت الوليد، قبل أن يستحيل صراخًا واستغاثة، كنا لا نسمع له صوتًا، وإنما تسمع هى وحدها كنا لا نشعر بشىء، وإنما تشعر هى بمن ولدت كأن بينها وبينه اتصالاً لا أحد يراه إلاّ أمه، لا أحد يسمع صوته غيرها.

واليوم أصبحنا نرى أمهات مستغرقات فى النوم أو فى مشاهدة المسلسل، والوليد يصرخ، ويستغيث تجيبه كل المشاعر البعيدة وأمه لاهية مشغولة عنه، وليس ذلك بعجيب فى زمان كل شىء فيه عجيب، كل شىء فيه قد تغير، لكن أن تتغير الأم،

(١) الحج ١ و٢.
(٢) المزمل: ١٧.

وتذهل عن وليدها الذى ترضع قبل يوم القيامة، ولشىء دون أهوالها بملايين الملايين من المراحل الشاسعة فهذا أمر يدعو إلى الحيرة، ويدعو إلى ضرورة الإصلاح، ونحن مأمورون جميعًا بهذا الإصلاح، منهيون عن الفساد والإفساد، لقد كان من عادة العرب أن يرضعوا أولادهم خارج قبائلهم وكانت المرضعة، ومازالت، وستظل إلى قيام الساعة أمًّا لمن أرضعت ذكرًا كان أو أنثى، وقد قال الفقهاء إنما صارت أمًّا له لأن اللبن جزء منها، فقد صار نسبًا بينه وبينها، وصار أولادها إخوة له، وأمها جدة له، وأختها خالة له، بل إنَّ زوجها صار أبًا له كذلك، ونحن نحفظ القاعدة الشرعية القائلة: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**».

وفى سورة النساء يقول ربنا - عز وجل: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾[(١)] وقد ترتب على الرضاع أن صارت الأجنبية أمًّا للرضيع تحرم عليه تحريمًا ابديًّا مثل أمه التى ولدته، ولا فرق بينهما إلاَّ فى الميراث فهو لا يرث أمه التى أرضعته، وهى لا ترثه، والأم التى ولدت لا يشغلها شىء إلا الاهتمام بابنها أو ابنتها، وفى سورة الإسراء يقول ربنا - تعالى -: ﴿**وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾[(٢)] فمن موجبات الدعاء بالرحمة للوالدين التربية فى الصغر، وهل يربى مولود معدوم أم يربى مولود موجود، وللوجود أسبابه وأهمها حفظ حياته، وذلك بإرضاعه صغيرًا، فإن كانت الأم مريضة غير قادرة، أو كانت قليلة اللبن، لا يكفيه بحثت له عمن ترضعه، وسلمته إليها، وقد ترتب على رضاعها أن رخّص الشرع لها الإفطار فى نهار رمضان حفاظًا عليها وعلى صحتها، وعلى حياة مولودها الذى لا طاقة له بالصيام، وقد وردت النفقة فى موضع الرضاع مع أنها واجبة برضاع وغير رضاع.

---

(١) النساء: ٢٣.

(٢) الإسراء: ٢٤.

فالزوج ينفق على زوجته حملت أو لم تحمل، أرضعت أو لم ترضع، لكنه قال عز وعلا -: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1] ، لأنها إنْ كانت فى حاجة إلى النفقة فى حياتها فهى حينما ترضع أشد حاجة، وكأنّ صورة الزوجة وهى ترضع ابن الرجل أو ابنته توحى إليه بالاهتمام بها، والإنفاق عليها بالمعروف.

وقد ذكر الرضاع فى سورة القصص، حيث قال ربنا - تعالى -: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[2] ولأنه عز وعلا وعدها برده إليها قال: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ حتى يعود إليها لكى ترضعه كما أوحى إليها، وإذا كان الوحى كما قال المفسرون إلهامًا، والإلهام من الفطرة، فعلينا ألا ننسى أن للفطرة عوامل تساعدها، ومن تلك العوامل التربية فنحن فى حاجة إلى تربية البنات قبل أن يصبحن أمهات مرضعات.

---

(١) البقرة: ٢٣٣.

(٢) القصص: ٧.

- ٣ -

النفقـة علـى الأمهـات

أشرت إلى أنَّ نفقة الزوج واجبة على زوجته، ولا يعفيه منها أن الزوجة غنية، وهذا بإجماع العلماء، فإن كانت غنية وهو فقير وبينهما الكفاءة المعتبرة فى الإسلام فى الزواج وهى كفاءة الدين، جاز وحسن أن تواسيه من مالها مشاركة ومودة، وليس على سبيل الوجوب، وقد جاء ذكر الإنفاق والكسوة فى آية البقرة مرتبطًا بالوالدات المرضعات، قال الله - تعالى - : **﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾**[1] والكلام على النفقة بالمعروف بين الفقه الإسلامى الذى استمد مادته العلمية من كتاب ربِّ البرية وسنة خير الخلق وبين النفقة فى زماننا، وما يحدث بسببها من مشكلات.

إنّ نص الكتاب واضح، حيث قال سبحانه وتعالى: **﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾** ونص الحديث النبوى واضح حيث قال عليه الصلاة والسلام لهند زوجة أبى سفيان: «**خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف**»، وهنا وقف الفقهاء عند سؤال: هل تأخذ الزوجة نفقتها بأثر رجعى أم لا تأخذ، قولان، استدل المانعون بأن هند سألت رسول الله ﷺ فقال لها: «**خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف**» وذلك باعتبار المستقبل، ولم يأمرها بأن تأخذ العوض عما سبق، واختلف الفقهاء كذلك حول تقدير النفقة هل تقدر مثلما تقدر النفقة فى الكفارة: **﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾**[2] بالقياس على الأقوال التى أصحها أنها لا تقدر بصاع ولا صاعين، وإنما حدّها المعروف فلا إسراف ولا تقتير، وهذا منهج الإسلام فى النفقة بوجه عام، قال الله - تعالى -

---

(١) البقرة: ٢٣٣. (٢) المائدة: ٨٩..

فى سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾(١)، أى أنَّ الإنفاق وسط، والوسط هو المعروف الحسن.

وهذا الذى قرره العلماء فى ضوء الكتاب والسنة يجعلنا ننظر فى هذا المعروف اليوم، هَلْ تقنع الأمهات خصوصًا الشابات بهذا المعروف، وهل تتغير نسبة المعروف من زمان إلى زمان؟

لا شك أنَّ نسبة المعروف قد تغيرت تغيرًا شديدًا، فنحن نرى الأم الشابة من أول يوم لظهور الحمل تتصل بطبيب أمراض النساء والولادة للمتابعة، ومتابعة الحمل مكلفة، ومن الشابات مَنْ لا تلد إلا فى مستشفى خاص مكلف، ويأتى المولود مكلفًا أيضًا من حيث الملابس الكثيرة، والزيارات المتعددة لطبيب الأطفال، وما تقتضيه من أدوية وأوصاف، وما يرتديه من حفاضات غالية الثمن. لم تعد شابة اليوم تلك الشابة التى كانت تلد فى الحقل وحدها وهى تعمل، خرجت من دارها حاملاً وعادت بوليد، تمشى على رجليها وتحمل فى حضنها وليدها، وهى ذات خبرة، وإن لم تكن فأمها وجاراتها أستاذات فى العناية بالأطفال وتتبع أحوالهم. وكانت الأم التى رأيناها، وطواها الموت، والله يرحمها ويرحم أخواتها اللاتى على شاكلتها أمًّا متصرفة بحيث لا يشعر بها أحد، فهى كانت تعد ثوبًا قديمًا لها أو لزوجها، وتصنع منه لفافات للمولود، وكانت تخيط له بيديها ثيابه، وتصنع له بيديها لعبة، وتغنى له من موروثها الشعبى ومن قريحتها الصافية ما يؤنسه ويطربه، وكنت ترى هذا الوليد أكثر صحة وعافية، وأنضر نموًّا، وأزكى تربية.

كنت ترى الوليد يشب أسرع وأجمل، وكان أبوه كما كان يقال - يراه (فى طوله) فجأة، وكلمة «فجأة» معناها دون إحساس بمرارة هذا النمو، فوالد اليوم حين يرى وليده (فى طوله) يكون قد زاده رهقًا وألمًا، ومع ذلك تجد الأم ناظرة إلى أختها أو إلى جارتها بالنسبة إلى التحاق وليدها بمدرسة أجنبية، مصروفاتها باهظة، وتكاليفها

(١) الفرقان: ٦٧.

كبيرة، مثلما أصرت على أن تلد فى المستشفى الفلانى لأن أسرتها لا تذهب إلى غيره.

فإن قال قائل: ما الذى يمنع من هذا كله ما دمنا قد فتح الله علينا، وفاضت أموالنا، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[1] ؟

فالجواب أنه لا مانع إذا أعطى الغنى زكاة ماله كما قال عثمان بن عفان لأبى ذر، الذى كان يرى أن الله - تعالى - أمر الأغنياء بالإنفاق على الفقراء، وقال لعثمان لا تقبلوا من الأغنياء غير ذلك، أى لن تكفى الزكاة وألا تنظر المرأة التى تزوجت من شاب متوسط الحال إلى ما عليه أختها المتزوجة من غنى.

ثم إن رسالة المال رسالة مهمة فى الإسلام، ولها وظائف حيوية تستفيد منها الأمة المسلمة وغير المسلمة، لقد خلق المال للاستثمار، الاستثمار الحلال الذى ينميه، ويطهره، فتعمل الأيدى، وينتفع العمال، ويبتكر العلماء، وتعمر الصحراء، وتسرى ينابيع المال فى كل مكان. إن أهل الاقتصاد والمعنيين بالإصلاح الاقتصادى يضربون المثل باليابان التى تحولت من دولة تم اغتيالها، وما كان أحد ينتظر أن تبعث من جديد - تحولت إلى دولة غنية متقدمة، وليس وراء هذه الأمة اليابانية من سر بعيد المنال، وإنما أمرها واضح علانية، وما حظيت اليابان بهذا التحول إلا بالعمل، عمل الرجال والنساء والأطفال؛ تحولت البيوت إلى مصانع صغيرة زودت المصانع الكبرى بكل شىء، وحظيت السمعة اليابانية الصناعية بما لا يخفى على أحد، فأنت تدفع الكثير وأنت راضٍ؛ لأنك تعلم أنك تشترى سلعة معمرة ممتازة.

لماذا لم تحظ صناعة عربية إسلامية بمثل ما حظيت به الصناعة اليابانية وغيرها؟ والجواب: أننا مسلمون منفقون مستهلكون، إنّ حديثى عن الأم الفلاحة يجب أن نعلى ذكره، ونستعيد مجده وأثره، فهى الأم التى كانت منتجة، ولم تكن الأم المستهلكة، إنها الأم التى وفرت وادخرت، وبنت وعمرت، وأصبح لها رأس مال من النذر اليسير، إنها الأم المباركة، والبركة كما أقول دائمًا لابد لها من خميرة، قليل من

---

(١) الأعراف: ٣٢.

الماء فاض بين يدى النبى ﷺ ماء غزيراً، وكسر من الخبز، وقليل من اللبن طعم منه خلق كثير، وهذا رمز يعطى المسلمين درسًا، ابذلوا قصارى جهدكم يبارك لكم، أخلصوا النية لله فى العمل يبارك الله لكم، لقد كانت بيوت أمهاتنا مصانع ومزارع ومستشفيات ومدارس واليوم نجد كثيراً من بيوتنا زخرفة وديكور، لا تنطق بحياة الثلاجة فارغة، والأنبوبة فارغة، والخزين ينتهى، قلما تجد شابة تصنع بيديها ثيابًا لوليدها قبل أن يأتى وبعد تشريفه، إنها تريد مالاً ينتهى أسرع من البرق، زيارة واحدة للأسواق تضيع فيها الألوف من الجنيهات، ثم تقول: لا بركة، تجيد أن تصنع فى أظافرها الألوان، وعلى خدها الألوان، وعلى عينها الرموش والحواجب، وتلصق ذلك بالدين قائلة: أمر الإسلام المرأة أن تتزين لزوجها، أى زوج هذا الذى ليس لها منه إلا جيبه، وجيبه يعصيه، حيث إنه قد عصاه قبل مرغمًا إنه لا يضع فيه شيئًا فكيف يأخذ منه أى شيء، الزوج المنهك كالبيت المنهوك من الشعر ذهب ثلثاه وبقى ثلثه أية زينة ترضيه، وهو يقبض ليصرف، لا يرى أثراً، ولا مال عنده يستثمره فى مشروع صغير، إنَّ جمع ثمن علبة من الحفاضات من كل أسرة كفيل بنهضة الأمة، لكن كيف يتم ذلك ونحن ننفق الملايين لنضع آثارها فى سلة القمامة، فمتى نفيق.

البيت بين الشكل والمعنى

جميل أن يكون لك دار، بيت تأوى إليه، فيه تستريح، وتنام، وترى فى نومك الأحلام، وتصحو فيه والناس نيام، تذكر ربك، فتصلى، وتشكر، وتناجى، وتخرج منه فى البكور، قبل أن تنطلق الطيور، فتشقى، وتتعب، وتجتهد وتعرق، وتنقل إليه الخير، ويحسن بيتك مرفقا، أى يكون بيتك عونًا لك، فالمرفق الساعد، والساعد رمز العون، فإذا نقلت سعيك كله إلى زينته، ونقشه وزخرفته، وأهملت الخير، فلم تدخر مالاً، ولم توفر طعامًا، وشعرت بالجوع، فليس البلاط بمخرج لك نباتًا، وليست النقوش بمسقطة لك حبا، وليس النجف وجميع ما فى السطح بمنزلٍ لك مطرًا، ودعنى أذكر لك قصة فلاح، كان له شريك فى الجاموسة يسكن فى القاهرة، وكان لزامًا عليه أن يزوره ذات مرة، ليسلمه حقه فى العجل الذى ولدته الجاموسة، النتاج، باع الفلاح العجل بمائتين، وكان نصيب شريكه مائة، فجاء بها إلى القاهرة، وعند موقف الخازنداره وضع يده فى جيبه، فاطمأن على حافظة نقوده التى فيها المائة السليمة غير المنكوشة، وأخرج العنوان، وكان رجلاً صاحب عقل، حيث وضع ورقة العنوان إلى جانب الحافظة خشية أن يخرجها فيراها اللصوص، وسأل أحد الواقفين عن العنوان فدله عليه.

فانبرى يسأل حتى وصل، ودخل بيت شريكه وقال: بسم الله، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، صالون وأنتريه، وآرائك، وحجرة للضيوف، وزينة، ونقوش، ونجف، انبهر الرجل، ولكن انبهاره قد تلاشى شيئًا فشيئًا حين غاب عنه الكرم، لقد فتحت له الخادمة، وأجلسته فى حجرة الضيوف، وقالت له إن سيدها وسيدتها فى العمل، وله مطلق الحرية، فى الجلوس أو النوم، أو الخروج للفسحة حتى يأتيًا.

- عندكم فطور!

- طبعًا يا حاج.

- ماذا عندكم؟

- عندنا جبنة وزيتون ومربة، وعيش «فينو».

- هاتى ما عندك، والأمر لله.

أكل فما شبع، فلم يتعود هذا الصنف من الفطور، جاع بعد قليل، فناداها، وسألها عن طعام، فقالت:

- إن شاء الله وعليك خير الغدا حين يؤذن للعصر ويحضر القوم، خشى الفلاح أن يعطى الخادمة المبلغ الكبير، فطوى ضلوعه على الجوع، والصبر، حتى جاء شريكه، وسلمه المبلغ، وولى مسافرًا إلى قريته وأقسم ألا يأتى إليه، وإن اضطر فسوف يتصرف ويرسل إليه حقه مع بعض المأمونين من الذين يسافرون إلى القاهرة، وصور لزوجته ما رآه من عنت، ووصف لها دار شريكه بأنها قصر مهجور، لا ثوم فيه ولا بصل، ولا عنزة ولا بطة، ولا «بوشة» لبن، ولا صُفّة فيها البيض والجبن الأريش، والزبدة، والمش، والجبنة القديمة و«مشنة» العيش وأن هذا هو الفقر، ثم قال لها:

- لقد فرحت فى آخر الأمر بهذه الزيارة على الرغم من المرارة!

- كيف؟

- ذلك حتى أحمد الله على دارى، وامرأتى، وما أولانيه ربى من خيرات أعوذ بالله، هذى حياة بؤس، تذكرنى تلك القصة بقول شاعر قديم:

جمال الدار بالإطعام لا بالفرش والنقش
وما للدار من فضلٍ ولو شيدتْ إلى العرشِ

فما قيمة أن تكون الدار جفافًا بلا رى، جوعًا بلا طعام، نقشًا بلا معنى، زينة بلا نبض، زخرفًا بلا عطاء، جمالاً صناعيًا بلا روح.

لقد وصف الله - عز وجل - الجنة فى سورة الكهف بقوله عز من قائل: ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾[١] لماذا حسنت الجنة مرتفقًا؟ والجواب أنها حسنت مرتفقًا لما فيها من نعيم، فالله - تبارك وتعالى - يقول: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾[٢] ويقول: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[٣] ويقول سبحانه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا (٢٦) وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨)﴾[٤].

وغير ذلك من الآيات التى تحدثت عن نعيم الجنة، وخلاصته قول الله تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٥] هذا مع نعيم الشكل والبناء الذى ورد فيه أنها لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وما فيها من سرر مرفوعة، وأكواب موضوعة، ونمارق مصفوفة، وما فيها من أنهار تجرى، وصفاء يسرى لا غل فيها ولا حقد: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾[٦] لذلك كله وغيره حسنت الجنة التى هى دار المتقين مرتفقًا، وقد كان الرجل قديمًا يقول لأخيه:

- لمّا نذهب إلى البيت، إذا طلب أخوه شيئًا.

فالطعام فى البيت، والثياب فى البيت، والشراب فى البيت، والإبرة فى البيت، والخيط فى البيت، والدواء فى البيت، والحب فى البيت، فى البيت أم أو زوجة تعين مَنْ يدخل دارها، وتطعمه وتسقيه، وتمرضه، لها خبرة بالحياة، بيوت مقصودة

---

(١) الكهف: ٣١. (٢) الرعد: ٣٥. (٣) فصلت: ٣١.
(٤) الواقعة: ١٧ وما بعدها. (٥) السجدة: ١٧. (٦) الحجر: ٤٧.

لحاجات مرصودة، أما البيوت التى خلت من الخير، لا زيت فيها ولا سمن، ولا حطب أو بوتاجاز، ولا دواء، وفيها الدولاب خال من الثياب، وفيها الشيوخ فى أعمار الشباب، وفيها بلا مبالغة معنى الخراب فهى زنزانة للعذاب، وليست بيوتًا للمسلمين، الذين أسرف كثير منهم فى الهدم والردم، والتغيير والتبديل، ونسوا أنهم ضيوف فى بيوتهم، لم يكرموا هذه البيوت بتعميرها، وإدخار الخير فيها؛ فلم تكرمهم بيوتهم.

من أجل هذا المعنى طلب الناس الرحيل والهجرة تطلعًا إلى الخير، وعدوا الوطن كله بما فيه بيوتهم دار مذلة؛ إذا غشيه الفقر، وأظلته الحاجة، وقال بعضهم:

وإيـاك والسكنـى بـدار مَـذَلَّة ... تُعَدُّ مسيئًا فيه إن كُنْتَ محسنا

ونَفْسَكَ فاكرمها فإن ضاق مسكنٌ ... عليك بها فاطلبْ لنفسك مسكنا

فما معنى العيش فى وطن الذل والفقر والحاجة؟ وما معنى مُكث الرجل فى بيت زينه وبناه وزخرفه وهو عاطل، ينام فيه، وماذا بعد النوم؟ ماذا بعد ساعات الاسترخاء، والدعة، إن بعد النوم جوعًا يلهب، وعطشًا يغضب، وحاجة تقطع فى القلب والنفس، لابد من حركة، ولابد من كسب، ولابد من مال وخير، يودع فى هذا البيت، ألا ترى خليل الله إبراهيم عليه السلام، وقد جاءه الضيوف فذبح من أجلهم عجلاً سمينًا، إنه بيت، انظر إلى قول الله - تعالى -: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾[1] وإلى قول المفسرين فيه حيث قالوا: قائمة فى خدمة ضيوفه أى ليست نائمة، ولا قائلة:

- وأنا مالى!

إنا لله وإنا إليه راجعون، إن البيت ليس أركانا، وإنما البيت معنى يشع وجدانا، وإن شئت فقل إنه بناء تفجر فى عيون الناظرين إنسانا.

---

(١) هود: ٧١.

حديث القرآن الكريم عن الأزواج الأعداء

فى سورة التغابن التى تبدأ بقول الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ②﴾[1] يحذر ربنا - تعالى - الذين آمنوا من بعض الأزواج وبعض الأولاد، وتحذير القرآن الكريم هنا نحن فى حاجة إلى تدبره، واستلهام معانيه، فمن رحمة الله - عز وعلا - أنه ساق إلينا هذا التحذير بـ «مِنْ» و«مِنْ» حرف جر يأتى لمعان متعددة فى العربية ومعناه فى هذه الآية الكريمة التبعيض، فإذا قال ربنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] فمعنى ذلك أنه ليس كل الأزواج والأولاد أعداء لنا، وإنما بعض الأزواج وبعض الأولاد أعداء، وقد قال الحق - تعالى -: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ إذْ لا يحذر إلا الأعداء، وهنا نسأل: كيف يكون الزوج عدوًا لزوجه، وكيف يكون الولد عدواً لوالده؟

والجواب باختصار أنه يكون عدوا من حيث الفتنة، إذا كانت الزوجة فتنة لزوجها، تباعد بينه وبين رضوان ربه فهى عدوه، وإذا كان الولد فتنة على هذا المعنى فهو عدو والده.

إنّ عمر بن عبدالعزيز حين نوى أن يضم ضيعة (مزرعة) خاصة به إلى بيت مال المسلمين صرّح بذلك لولده وكان يمشى إلى جواره، فقال الولد لأبيه:

ومتى نويت أن تفعل هذا؟

فقال عمر:

---

(١) التغابن: ١، ٢.

(٢) التغابن: ١٤.

- يوم الجمعة إن شاء الله.

فقال الولد:

- ولماذا؟

قال عمر:

- حتى أشهد الناس على ذلك.

فقال الولد:

يا أبتى، إنك لا تضمن أجلك إلى الجمعة، افعل من الآن وأنا عليك من الشاهدين.

فقال عمر:

الحمد لله الذى جعل من ذرية عمر مَنْ يعينه على تقواه وطاعته.

إن الابن الذى يقول: نحن بالضيعة أولى، نحن مساكين نحن فقراء، نحن إلى مَنْ تتركنا يا أبى، إنما يقف حجر عثرة بين أبيه وبين رضوان الله - تعالى.

ولا يجب أن تختلط الأوراق هنا، فيضيع المعنى الكبير الذى هو من وراء النصوص الدينية، فإن الابن إذا وجد أباه مسرفًا نصح له برفق، وإذا رآه قد جن وفقد عقله كان له حق أن يحجر عليه، علينا أن نفرق بين إضاعة المال سدى، وبين إنفاق بعضه فى سبيل الله، انظر إلى قوله ﷺ: «**لأن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس**» وقد قال ذلك لمن أراد أن يتصدق بجميع ماله فلما وصل فى عرضه بين يديه ﷺ إلى الثلث، أقر له النبى ﷺ ذلك له قائلاً: والثلث كثير، وبعض الأزواج وبعض الأولاد يفتون للرجال، بأنّ أحدًا لا يستحق الصدقة، وأن أحدًا لا يستحق المعروف، وأنهم لا يضمنون الزمن وغدره، والأيام وما تحمله من مفاجأة، ويقفون بينهم وبين ما يقربه من رحمة ربه، وبركته فى عمره وفى رزقه فيؤدى ذلك إلى قطع أرحامه، وسوء معاملة جيرانه، وغير ذلك من الفضائل.

وقول الله - عز وعلا -: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾؛ لأن العداوة فى البيت تخفى على المستعدى عليه، حيث إنّ أحدًا لا يشك فى أهله ولا يفكر فى أنهم أعداؤه، كيف يظن ذلك وهم أقرب الناس إليه، ومن ثم كانت العداوة الداخلية أشد خطرًا من العداوة الخارجية لخفائها، كما أن المنافق أشد خطرًا من الكافر، لأنه يلبس لباسنا ويأكل طعامنا، ويصلى فى مساجدنا، ويخفى فى نفسه عداوتنا، وقد قال الله عز وعلا - فى المنافقين: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (١)
وقد قال الشافعى:

احــذر عــدوك مــرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربمـا انقلــب الصديـ ـق فكـان أعلـمَ بالمضـرة

فعدوك ظاهر، لكن صديقك باطن، وعدوك لا يعرف ما عندك، أو جميع ما عندك، لكن صديقك يعرف كل شيء عنك، فإذا انقلب عليك عرف من أين يأتيك، وما الذى يقضى عليك، ومن ثم وجب أن تحذره ألف مرة، فإن قيل كيف يكون الحذر من الصديق والزوج العدو والولد والعدو.

فالجواب: أن يعاملهم بمنهج الله - عز وعلا - بأن يعطيهم حقوقهم، وألا ينسى حقوق غيرهم، ففى الحديث: «فأعط كل ذى حق حقه» ألا يسلم نفسه، عقله، وقلبه لأحد، وإنما يتصرف وفق منهج الله - عز وعلا - ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧)﴾(٢) .

إن بعض الناس يمشى وراء صديقه أينما ذهب «معاهم معاهم عليهم عليهم» أينما يوجه يتوجه، ويحكى له كل صغيرة وكبيرة، حلوة ومرة، قريبة وبعيدة، ويقول: هو صديقى الوحيد، وهو (أنتيمى) وليس ذلك من الإسلام فى شيء، إنما صديقك من

(١) التوبة: ١٠١.
(٢) الإسراء: ٢٦، ٢٧.

صدقك وصدقته ينصح لك وتنصح له، يشاركك فى الفضيلة وينأى بك عن القبح والخبائث، يعينك على البر وتعينه، لا حقيبة أسرارك ولا مستودع ذكرياتك، حبكما فى الله لا فى عادات وتقاليد ونزعات نفسية وشهوات بدنية، على شاكلتك فى الخلق وليس على شكلك فى المأكل والمشرب والملبس وحب هذه الأشياء وكره تلك الأشياء.

ولزوجك حق السكنى والنفقة وحسن المعاملة ولولدك مثل ذلك فى التربية والتعهد، وأنت تربى أهلك وتنصح لهم وتأمرهم بالصلاة وتصطبر عليها، ولا ننسى أن نقول إن بعض الرجال عدو لأزواجهم من النساء كذلك، حيث إنك تجد امرأة ورثت مالاً كثيرًا، وأرادت أن تتصدق منه على بعض المحتاجين فيحول بينها وبين ذلك رغبة زوجها المحمومة فى الاستيلاء عليه، بل إن بعض النساء يردن ارتداء الحجاب مجرد طرحة على الرأس فإذا بك تجد زوجها يعرض عنها، ويقول لها: شكلك الأول قبل هذه كان أفضل وأجمل، أين فلانة الجميلة الأنيقة التى أحببتها وتزوجتها حتى يجعلها تخلع أو تصرخ وتنادى: ما حكم طاعة الزوج فى مثل هذه الحالة يا علماء الدين ماذا تقولون؟

وخلاصة الأول أنَّ من مقاصد الزواج فى الإسلام أن يكون كلا الزوجين عونًا لصاحبه على طاعة رب العالمين، فإنْ حدث من صاحب لصاحبه عدوان بأن منعه من فعل الخير كان عدوًا له فإن تاب ورجع فالحق - تعالى - يقول: **﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**[1] .

وغاية العداء تكون فى المال، ولذلك تجد السورة تنتهى آياتها بالحديث عنه: **﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٥ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٦ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٨﴾**[2].

---

(١) التغابن: ١٤.

(٢) التغابن: ١٥ وما بعدها.

رفقــًا بالقـــوارير

أى جمال تشعر به المرأة وقد صورها النبى ﷺ فى أجمل صورة، حيث قال لحادى الإبل التى حملت النساء، وقد أسرع بهن: «رفقًا بالقوارير» وصدق الله العظيم القائل: ﴿قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾[1] وقال فى ذلك الشاعر:

أوردها سَعْــدٌ وسعـــدٌ مشتمـل

ما هكـذا تـــوردُ يا سَعْــدُ الإبـلْ

رفقًا بها يا حادى، فهى قارورة مصونة، فى رحمها الرجال الأبطال، والنساء الكريمات، لا تسرع بهن هكذا.

إننى أذكر ذلك، وأذكر قول «الكمسرى»[2] الذى ينادى سائق الأتوبيس عندما يقف، ويوصيه أن يقف مليًا قائلاً له: «حاسِبْ... معك كعب عال» أى إنَّ الكمسرى ينبه السائق إلى أن هناك امرأة أو أكثر سوف تنزل عند المحطة القادمة، فعبر عن ذلك بالكعب العالى، كنَّى عن المرأة بالحذاء، وشتان ما بين تعبير الهادى البشير ﷺ بالقوارير وما بين تعبير الكمسرى بالأحذية، لقد درسنا البلاغة العربية، وعندما عرفنا أن مثل قول الكمسرى كناية عن نسبة باعتبار قول الشاعر:

فشككـت بالرمــح الأصــم ثيــابه

أو مجال مرسل، علاقته المجاورة، أو كناية عن موصوف باعتبار أن المرأة موصوفة بذلك، فهى التى ترتدى الحذاء ذا الكعب العالى من الخلف، ومهما وقعت

---

(١) الإنسان: ١٦.

(٢) هو محصل الأجرة فى سيارات الأجرة بمصر.

بسببه، أو انكسر فأصبحت حافية تعرج، تبحث عن محل أحذية لإصلاحه، ثم هى لا تتوب، وتشترى غيره، وربما تتنازل عن درجة أو درجتين، الذى لا يجعلها تتراجع عنه عادة، وتتراجع عنه فوراً إنْ قال لها الطبيب اخلعيه فوراً، عندئذ تستجيب خوفًا على صحتها أو على حوضها لا خوفًا من الله - تعالى - ربها، الذى نهاها كما نهى الرجل عن الفتنة.

وقد قال الله - عز وجل - فى المرأة: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾(١) أى جمال بعد هذا الوصف، وهذا الرفق، مَنْ قال إن دين الله تعالى فيه قسوة على المرأة، وهى شقيقة الرجل، لقد قال النبى ﷺ «هن شقائق الرجال» وقد أوصى بهن الرجال، فقال: اتقوا الله فى النساء فمن قال إنها تطيق أكثر من ذلك، وليست بضعيفة ولا جاهلة ولا فقيرة ولا ولا ولا، اليوم غير زمان لقد أصبحت وأصبحت وأصبحت...

إننى فى هذا المقال أريد أن أبين فكرة، هى أن أبواق الكلام غير المحقق تخدع الغرة البريئة وتملأ الشريط الفارغ من العبث بكل صنوف العبث، فما داموا يقولون فالقول صواب، هذا الذى يقال يا شقيقتى ينبغى أن تحذرى منه، فليس كل ما يقال ويذاع وينشر صوابًا - فإن القرآن الكريم قد نقل إلينا أقوال الذين ظلموا أنفسهم، فاستعيدى ما ذكره ربنا تعالى عنهم ثم انظرى إلى سوء عاقبتهم ومصيرهم ومآلهم لقد دمر الله عليهم، وساقهم إلى جهنم وساءت مصيراً، لقد حكى لنا القرآن الكريم قول فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾(٢) ، وقد أغرقه الله - تعالى - وجنوده أجمعين، ونجى الله المؤمنين، وحكى الله - تعالى - قول قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾(٣) وكانت النتيجة أن قال الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾(٤) وانظرى إلى ما بعد ذلك، حيث يقول الله - تعالى -: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ

---

(١) الزخرف: ١٨.
(٢) النازعات: ٢٤.
(٣) القصص: ٧٨.
(٤) القصص: ٨١.

اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾[١] وقبل أن أنتقل بك إلى نموذج ثالث أذكرك بأن هناك مَنْ كان من قومه من يقول: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٢] .

ولما رأوا ما فعله الله بقارون من خسف قالوا: ﴿لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[٣] فمن الذى يضمن لك أنَّ الخسف لن يكون لك، فلا تتمنى أن تقولى مثلما تقول غيرك من التى تزين الباطل وتصدك عن سبيل الله.

بل إن القرآن الكريم قد نقل إلينا كلام بنى إسرائيل من اليهود فى ذم الله، قال الله - تعالى -: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[٤] .

وحكى قولهم: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[٥] .

وانظرى إلى هذا المصير: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ لقد قال الناس كلامًا فى الهواء، والهواء واسع والله تعالى يسمع ما قيل وما يقال وما هو فى الصدور ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۝﴾[٦] أما المسلمون فقد عبر عنهم النبى ﷺ بقوله: «ولا نقول إلاّ ما يرضى ربنا» فالمسلم لا يقول إلا ما يرضى ربه من دعاء ونداء، واسترجاع، ودعوة إلى سبيله ودينه.

---

(١) القصص: ٨١. (٢) القصص: ٧٩. (٣) القصص: ٨٢.
(٤) المائدة: ٦٤. (٥) آل عمران: ١٨١. (٦) الرعد: ٩، ١٠.

من معانى البيوت الأهل

أهل البيت، وأهل بيت، أى أصحاب الشرف العالى، فرق كبير بين أن تقول: رجعت إلى امرأتى، وبين أن تقول: رجعت إلى أهل بيتى، هذا هو المعنى الذى وقف عنده المفسرون قائلين: لماذا قالت أخت موسى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾[1] ولم تقل: هل أدلكم على امرأة ترضعه؟

وأجابوا بأن قولها: ﴿أَهْلِ بَيْتٍ﴾ يعنى: أهل الشرف، الذين لا يأنف الملوك من خدمتهم ورعايتهم أبناءهم، أى هل أدلكم على أهل بيت ليسوا مجرد ناس، وليسوا مجرد قوم عندهم امرأة ترضع، وتأمل قوله - تعالى -: ﴿يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ وقف عندها كذلك فى سورة آل عمران: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[2] وراجع معنى كفالة الطفل، تجد أهل العلم يقولون: تربيته فى الحجر، أى ليس فى الحضانة، ولا بتسليمه إلى الجدة والجارة، والصديقة والبوابة ورميه هنا وهناك، والله - تعالى - يقول: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾[3] كما قال فى نعيم الجنة: ﴿الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾[4] ونعيم الجنة كثير لا عد له، ودخول من كفله الله تعالى - على مريم بلا عدد رعاية وصونًا، واهتمامًا وخدمة وحفظًا، فمن معانى البيوت الأهل، ومن علامات خراب البيوت ألا أهل فيها، خاوية وإن كانت عامرة، فارغة وإن كانت تئن بحمل الفرش والزينة. إن القرية التى أتياها موسى والعبد الصالح - عليهما السلام - كانت آهلة بالناس، لم تكن خاوية على عروشها كالتى مر عليها الذى قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[5] ولذا قال ربنا - تعالى -: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾[6] فكل مَنْ عمر داره فهو أهل،

---

(١) القصص: ١٢. (٢) آل عمران: ٣٧. (٣) آل عمران: ٣٧.
(٤) البقرة: ٢٥. (٥) البقرة: ٢٥٩. (٦) الكهف: ٧٧.

وكل من لزمت دارها فهى أهل، وكل بيت خلا من أهله فهو طلل، وأهله ليسوا بأهله إلاّ إذا تواجدوا فيه، ولزموا الإقامة فيه، لا تخرجهم سوى الضرورة، وتأمل آيات سورة هود: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣)**﴾[١].

وتأمل قوله تعالى: ﴿**وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ**﴾ أى فى خدمة زوجها وضيفه، ومعنى ذلك أنها موجودة فى بيتها، وتعرف مهامه، وتؤدى رسالته، ومن ثم قيل لها: ﴿**أَهْلَ الْبَيْتِ**﴾. ولأن أهل البيت هم أهل السيادة والشرف والطهارة قال الله عز وجل: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[٢] وذلك بالمنهج الذى أنزله الحق - تعالى - من أجل ذلك، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله، هذه دعائم الشرف والسيادة، وأركان العزة والريادة، ومعنى الحضارة والإمامة.

وإذا عدنا إلى آيات سورة القصص وما ذكره المفسرون فى (**أَهْلَ الْبَيْتِ**) يتضح لنا معنى احترامهم وتقديرهم، فإن فرعون الذى استعبد الناس، واستخفهم فأطاعوه، وكانوا قومًا فاسقين لم يجرؤ على أن يستعبد أم موسى، أو أن يستدعيها إلى قصره لكي ترضعه، وإنما سلمها إياه، وأعطاها موسى، وأجرى عليها نفقة ذلك، وإن شئت فقل ذلك الفضل من الله يؤتيه من يشاء، ومن أسرار المشيئة أن يؤتى الفضل من هو أهله، وأهله هم الذين يعتزون ببيوتهم، ولذلك كانت أم المؤمنين خديجة ﵂ تتاجر وهى فى بيتها، فلم تفتح دكانا، ولم تخرج إلى السوق، وكانت رمزًا من رموز الغنى والثراء، وفى زماننا الذى كثرت فيه الأوجاع وجدنا منذ أربعين سنة ويزيد أن الخياطة

(١) هود ٦٩ وما بعدها.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

التى لزمت بيتها كانت تربح أكثر من اللاتى فتحن المحال والدكاكين، تأتيها النسوة فى بيتها بالقماش، ويعدن لاستلامه مفصلاً ومعهن الأجر ومن الله - تعالى - الأجر الأعظم وحسن الثواب، وإجماع العلماء على أن فرعون أعطى موسى أمه، ولم يقل بالأمر: امكثى هنا فأنا رب أعلى، وأمرى الأمر، ولى ملك مصر، وهذه الأنهار تجرى من تحتى، وإنما ذلك صنع الله، ليتجدد فينا معنى من استعف أعفه الله، ولك أن تتخيل امرأة غير أم موسى استدعاها من هو فى مكانة فرعون بين الجاهلين الذين استعبدهم، وكانت قبل أن يستدعيها أهل بيت، فلما جاءت إلى قصر زاغ بصرها، وسال ريقها، ورغبت فى خلع ثياب أهليتها، وقالت له:

- لو أنك تحب بقائى هنا لبقيت وأحبب إلى نفسى ذلك عندئذ تهون، ومن هان على نفسه هان على غيره.

الفصل الثالث

حقـــــوق النســـاء

عضل المرأة

للمرأة فى دين الله - تعالى - حقوق يجب أداؤها، ويمكن استخلاصها من الكتاب والسنة فيما يأتى:

١- حسن المعاملة.

٢- مراعاة رأيها واختيارها.

٣- صداقها.

٤- ميراثها.

٥- حقها فى الخلع إن لم تطق الحياة.

العضل[١] : التضييق، يقال عضلت الدجاجة ببيضها.

والعضل منهى عنه شرعًا، وللمرأة حق الشكوى إلى السلطان بسببه قبل زواجها، وأثناء زواجها، وبعد طلاقها إن رغبت فى العودة إلى من طلقها ومنع ذلك وليها، وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك فالله - تبارك وتعالى - يخاطب أولياء النساء بأسلوب النهى، نهاهم عن عضل النساء فى سورة البقرة، فقال - عز وجل -: **﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾**[٢] .

---

(١) لسان العرب مادة (ع - ض - ل).

(٢) البقرة: ٢٣٢.

قال معقل بن يسار: زوجت أختى من رجل، فطلقها حتى إذا انقطعت عدتها جاء يخطبها، فقلت له: زوجتك وأفرشتك وأكرمتك فطلقتها، ثم جئت تخطبها، لا والله لا تعود إليك أبدًا، وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ وقال له النبى «فزوجها إياه» رواه البخارى.

وفى حياتنا المعاصرة نماذج متعددة لهذا العضل، بل أشد منه عنفًا، فإن أهل المرأة يمنعونها العودة إلى زوجها الذى جاءت منه غاضبة، وسبب ذلك أنها وقد شحنت عقلها بثقافة المسلسلات والأفلام قد قصت ما كان منه من أذى، وشتائم لأهلها أحياء وأمواتًا، فما كان منهم إلاَّ الحلف والإصرار على عدم العودة إليه، وليضرب رأسه فى الجدار، أو ليشرب من البحر.

وبعد حين تهدأ النفوس، وتسكن ثائرة الغضب، ويأتى الزوج لمصالحة زوجته وإرضائها فيجد من أهلها هذا العزم على الفراق؛ لأنه رجل لا يعاشر.

وذلك يعود بنا إلى ما كتبناه حول مسألة خروج المرأة من بيت الزوجية، وأن هذا الأمر قد صار هينا عليها، فهى تخرج غاضبة والله عز وجل أمر بألا تخرج مطلقة والطلاق أشد من الغضب.

إنَّ خروجها غاضبة يفتح الباب أمام شياطين الإنس والجن لإشعال نار الشقاق، وتصير الجملة عبارات وجملاً، وتصبح الحبة قبة والله - عز وجل - يقول: ﴿فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾[1] فالتربية والتهذيب والعتب والحوار، وتصفية الأجواء مما يشوبها من كدر الخلاف واختلاف وجهات النظر والآراء محله البيوت والمضاجع، لا محله بيوت الآخرين، وقص الحواديت، واللجوء إلى الحوانيت والصديقات والأصدقاء.

إنَّ الزوجة من نفس الزوج، وقد ذكرنا فى هذا الكتاب ما قاله الفقهاء فى علة عدم سقوط ميراث أحد الزوجين لاتصاله بنفسه دون واسطة، فلا واسطة بين الزوج

(١) النساء: ٣٤.

والزوجة إلاَّ إذا تصدع الأمر، كالواسطة بين الإنسان وأعضاء بدنه إذا حل الحظر، يكون الطبيب واسطة وضرورة.

وحين أرسل الخلفاء الراشدون حكما من أهل الزوج وحكمًا من أهل الزوجة أرسلوهما إلى بيت الزوجية، إمّا إصلاحًا وإما تفريقًا، ولكن لم يثبت أن بعث الحكمان العدلان الراشدان الأمينان إلى بيت أهلها؛ لأنها هناك غضبى، تركت بيته وفراشه وحاله ولاذت إلى أبيها أو أمها أو أخيها تقص عليهم ما قد سلف من آيات الغضب والحدة والانفعال والشتائم.

أمر خطير هذا السلوك الذى يبرهن على نقص الوعى بالدين، وفقه المعاملة، هناك امرأة مازالت عند أهلها منذ عام وعامين، تركت فراش الزوجية، وخرجت ولم تعد وأخذت تتابع أخبار زوجها من بعيد.

بل إن هناك قضايا مرفوعة إلى القضاء تطالب فيها الزوجة بقائمة منقولات ونفقة وهى فى بيت أهلها وما أكثر هذه القضايا والأباطيل التى أفسدت حياة الناس، أهذا زواج وأمن ودفء وسكن ومودة ورحمة.

وشاع عند كثير من الشباب اليوم ظاهرة الانفصال غير الطلاق، يقولون: نحن منفصلون ولكن بلا طلاق، ولا يعرف هذا العبث فى دين الله الإسلام الذى فيه يقول الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[1] إمَّا حياة طيبة بالمعروف تتحقق فيها مقاصد الزواج، وإما تسريح بإحسان تترتب عليه نفقة وسكن إن كان الطلاق رجعيًا، واستيفاء عدة، تكون فرصة لإنشاء علاقة مازال حبلها موصولاً وتظهر فيها براءة الرحم، فتتزوج إن كانت راغبة فى الزواج.

أمَّا أن ينفصل كلاهما عن بعض، وتظل عقدة الزواج مربوطة على الأوراق فهذا ما أنزل الله به من سلطان.

لقد قال معقل بن يسار لمن زوجه أخته: زوجتك وأفرشتك وأكرمتك فطلقتها، وأقسم ألا ترجع إليه أبدًا وكان الرجل لا بأس به، وكانت امرأته التى هى أخت معقل

(١) البقرة: ٢٩٩.

ابن يسار تريد الرجوع إليه، فنزل الوحى، وأمر النبى ﷺ وامتثل معقل؛ لأن فى إصراره هذا عضلاً لها، أى تضييقًا عليها والله عز وجل لا يضيق على عباده وقد قال فى سورة الزمر: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1] .

وهذه الصورة إحدى صور العضل، عضل الولى الذى يمنع عودة المرأة التى هو وليها بعد طلاقها، إن كان الطلاق رجعيًا تكون العودة بعده ممكنة فالطلاق مرتان، فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجًا غيره نكاحًا صحيحًا على أساس الديمومة، فإن طلقها هذا الثانى لعلة غير علة أن تعود إلى الأول، أو مات عنها فقضت عدتها فى الحالتين صح أن تعود إلى الأول إن ظنا أن يقيما حدود الله.

وقد يعضل الولى ابنته أو أخته التى ترغب فى الزواج من كفء لها كما قال ابن قدامة فى المغنى ٧/ ٤٣٤.

والكفاءة يراد بها الكفاءة في الدين والخلق فقد قال الله - عز وجل - فى آية الحجرات: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2] .

ومن حق المرأة أن ترفع أمرها إلى السلطان فله الولاية العامة، وهو مكلف شرعًا برفع الظلم عن أفراد رعيته، وسبب هذا العضل فى الغالب مرجعه إلى نوع تسلط من الولى ووهم أنه يكون بذلك ضعيفًا تلوى ابنته ذراعه، أو تجبره عل غير رغبة منه أن يضع يده فى يد شخص يكرهه.

أو أن يكون هذا الكفء قريب أمها، وهو لا يحب أقاربها ولا شيئًا يأتى من رائحتها، ونسى أن الأبناء لا يحصدون ثمار البغض والكراهية، وقد يكون هذا القريب من أمها أنسب الناس لها وأصلح من تقدم لخطبتها.

وقد رغبت أم المؤمنين خديجة ؓ فى أن يتزوج أبو العاص بن الربيع وكانت خالته من كبرى بنات النبى ﷺ زينب، وكلمت رسول الله ﷺ فى ذلك فهو

(١) الزمر ١٠.

(٢) الحجرات: ١٣.

أبوها، وكان رجلاً تاجراً غنيًا وكان على خلق، ويقول التاريخ: وكان النبى ﷺ يحب إرضاءها وموافقتها فيما لا يتعارض مع الوحى، فزوج ابنته ممن أحبت أمها؛ حيث لا عيب فيه، وقد نزل الوحى بالنهى عن العضل.

وقد يكون العضل بسبب الرغبة فى ميراث البنت والانتفاع بها وبمالها كما ذكر البيضاوى فى تفسيره، حيث كان من الناس من يعضل النساء لوراثتهنّ والانتفاع بهن.

★ وهم العضل

هذا، وقد تتوهم الفتاة أن فلانًا أصلح لها، وأنها ترى فيه ما لا يراه وليها، فتحدث مشكلات بينها وبين أهلها وتزعم أن فى ذلك عضلاً وظلمًا.

وقد يكون وليها على حق وصواب، يختار لها الأصلح من الرجال، ذا المسكن والوظيفة والخلق الطيب، بينما ترى هى أن هذا الوجيه المرسوم صاحب الرومانسية المزعومة الموهومة هو فتى الأحلام.

والحياة ليست أحلامًا ولا منامًا، وإنما الحياة مقومات ودعائم تصون الكرامة وتحفظ البطن وتزكى النفس، الحياة خبرة بمواطن النفع ومواقع الضرر، ويجب أن تكون هناك لغة مشتركة بين البنات وبين أوليائهن، وحب ومودة وصراحة وشفافية بلغة الإعلام السعيد.

فالولاية بدأت مع الرضاع ﴿**وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾(١) والأب هو الذى أنفق واحتضن، وربى ونصح، وصُنعت ابنته على عينه، فلما كبرت كانت كالزرع لمن بذر وروى ودفع السوء والأذى، فبينه وبين ابنته مودة قديمة وحب طويل، وهى كما قال النبى ﷺ فى ابنته فاطمة ﵂ إنها قطعة منه ﷺ.

ويجب على الأب أن يشعر ابنته بهذا المعنى الجليل الكريم، بأنها قطعة منه، فما يسعد الجزء يسعد الكل، وما يتعب الجزء تتداعى له سائر الأجزاء، «**مثل المؤمنين فى**

(١) البقرة: ٢٣٣.

توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر».

وهذا الإشعار لا يتأتى بكلمة، ولا بخطبة، ولا قوة وإنما تحمله الأعمال والأقوال، وتزرعه الأيام التى كانت ظرفًا لجميل الصناعة، وآيات الندى والإغداق، فقد نامت البنت فى أدفأ حضن، وشربت أصفى حب، ألفت أبًا رأى الدنيا برغم ما فيها من أوجاع وأغيار جنة وارفة الظلال لأن ابنته فيها، ورأت هى الدنيا بعينه، فهو الذى علمها وأرشدها ونصح لها وأوقفها على طيبها وخبيثها، وفى عبارة موجزة.

لقد تبين للبنت من خلال صحبتها أباها أن أباها أهون عليه أن يتردى من فوق جبل أو برج من الأبراج البالغة مئات الطوابق من أن يضر ابنته.

تمامًا كالذى كان يتوضأ إذا أكل لحم جزور لما نقل عنده من فعل رسول الله ﷺ فلما أخبره ثقة بأنه صلى وراء أبى بكر ؓ وكان أبو بكر قد أكل من جزور فلم يتوضأ أكل هو كذلك وصلى على وضوئه الذى كان ولم ينتقض قبل الأكل، فلما قيل له عجبًا لأمرك: كنت تتوضأ عمرك من أكل الجزور فقال: لئن يرمى أبو بكر فى بحر، أو أن يتردى من فوق جبل أهون عليه من أن يخالف رسول الله ﷺ.

وهذا المعنى ذكره كثير من العلماء والفقهاء وأكدوه فكلهم أجمع على صواب الصحابة وسلامة أفعالهم وفقههم عن رسول الله ﷺ.

وغياب هذا المعنى الكريم من حياتنا يشجع المفسدين فى الأرض على ارتكاب مزيد من الفساد، ألا ترى أن الذئب الذى يختطف الفتاة يعلم بفساد العلاقة بينها وبين أبيها، لأنها مستعدة أن تخالف أباها وأخاها وأمها وأعمامها وأخوالها وكل من له حق عليها إن أشار إليها أدنى إشارة.

إنها على استعداد للحرب، وعلى استعداد للهرب متى أشار بذلك حبيب قلبها لا جعل الله لها قلبًا ولا حبًا، أى خير رأته فيه حتى تعق وتظلم وتحارب وتعادى من حملها طفلة ورباها جاهلة وغذاها جائعة، وصنعت على عينه تألم يوم اشتكت، وتململ يوم تألمت، وفقد لذة الحياة حين مرضت، ورأى الدنيا فراغًا ساعة غابت!

أى شىء أحدثه فيها ذلك الطاغوت الذى لو كان صادقًا فى حبه لألفته بين يدى أبيها، وقد دخل البيت من بابه!، أى حب هذا الذى أودعه فيها فأنساها حب السنين فى ساعة أو فى أول نظرة!

هذا أشبه ما يكون بالخمر - والخمر حرام - تنسى لب شاربها فإذا به يزنى بأمه، ويقتل ولده، ويضيع ماله، حتى إذا أفاق ندم.

وقد ندمت كثيرات من النساء على ما فعلن من سوء حين أعلن الحرب على الآباء والأمهات، وهددن بترك البيت وجلب العار والفضائح إن لم يخضع الجميع لهذا الراغب القادم على الأصول الطالب للحلال.

وبعد أن شيعوها إليه وهى تظن أنها ليلة العمر رأت الأعاجيب فمزقت الجلابيب، وودت لو أن الزمن يعود للوراء لتقول: لا، وربما مات أبوها بحسرة على هذا الموقف، إنه يدرى أنه رجل سوء، وأن مثله لن يكون أمينًا عليها، وأنه لا قدرة له على إنفاق مال ولا وجدان، لكن غلبت شقاوة النفس والشيطان، وكان ما كان ولم تستطع أن تطوى الضلوع أبدًا على سرها الحزين وفشلها البين، فرغت جعبة القصص الكاذبة، والنوادر المصنوعة، وادعاء السعادة، والواقع يشهد بالعذاب، فلما صارحت قيل لها

- ألم نقل لك!

وكان بغضها له أشد؛ لأنها تتذكر ما كان منها من تحد وإصرار، وما كان منه من سوء الصنيع، فهل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان فأين هذا الإحسان؟

هذا التوهم للعضل كفيل بإشعال نار الشقاق بين الذين ينبغى لهم أن يعيشوا فى اتفاق لا شقاق، وفى مودة لا فى قساوة، وفى رحمة لا فى عذاب.

وما من سبيل إلى القضاء على هذا الوهم غير الحوار الذى لا ينشأ بين يوم وليلة، وإنما يجب أن يكون امتدادًا لحوار قديم منذ نعومة الأظفار، وعهد الصبا والشباب.

وأما الصورة الثالثة للعضل فقد تحدث القرآن الكريم عنها وهى عضل الزوج

زوجته والتضييق عليها بسوء المعاشرة حتى تتنازل له عن حقوقها كلها أو عن بعضها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾(١) قال البيضاوى فى تفسيره مع حاشية الشهاب ٣/ ١١٨: «كانوا يحبسون النساء من غير حاجة ورغبة حتى يرثوا منهن أو يختلعن بمهرهن».

وهذا يعرفه الناس من قديم بقول مَنْ قال: أنا أجعلها تقول: حقى برقبتى، أى كما يقول الناس فى دول الخليج: «يا الله الخراج» وذلك بسوء المعاملة والمعاشرة وسوء الخلق، ولذلك صور يعرفها الناس تكاد تنحصر فيما يأتى:

١- الهجر للفراش.

٢- والمبيت عند أهله.

٣- وقلة الإنفاق.

٤- وسوء الخلق.

٥- والعناية بالأجنبيات.

٦- والضرب الشديد والسب والشتم.

٧- وإهمال المظلومة فهو لا يسمع لها كلمة ولا يهضم لها رأيًا.

٨- وإعلان الرغبة فى الزواج بغيرها.

كل ذلك من أجل أن تتنازل له عن بعض حقها عليه، وهذه دناءة من الرجل الذى قال مثله قديمًا

فلو أنَّكِ فى يوم الرخاء سألتنى

طلاقك لم أبخل وأنت صديقُ

فهذا رجل سألته امرأته الطلاق فود لو أنها سألته ذلك حال رخائه حتى يكرمه

---

(١) النساء: ١٩.

عند طلاقها، ما منعه أن يطلقها إلاً سوء حالة ماديا، فهو يؤجل طلاقها إلى حين ميسرة، فأين نبل النبلاء، وتسريح المحسنين «أو تسريح بإحسان».

لقد لجأت نساء فى زماننا إلى محاكم الأسرة طالبات للخلع، تود الواحدة منهن إلى الخلاص من حياة زوجية كل ما فيها ضرر وعذاب، وهن فى الأصل وحقيقة الأمر طالبات طلاق للضرر، أى الواجب أن يأخذن جميع حقوقهن بالمعروف، وأن يطلق سراحهن لا أن يتنازلن عن جميع الحقوق بغية الحرية.

لقد وجدت فى أحد شوارع القاهرة زحامًا فى منتصف الليل غير معهود، وسمعت وسطه طبلاً وزمرًا، وعرفنى أحد الناس وسلم علىَّ، فسألته عن هذا الذى أرى، فقال: مطلقة وأهلها قلت: سبحان الله، أليس الطلاق نهاية عشرة وخاتمة حياة امتزج فيها إحساس بإحساس، أيكون الاحتفال به كأنه عرس! فقال لى هذا الرجل:

لقد تزوجها هذا الآدمى، وتركها ستة أعوام دون أن يتصل بها أو أن يرسل إليها مليمًا، أو يخبرها بشىء عن مكانه وأحواله، عاشت أعوامًا على مرارة ويأس، وفجأة علم أهلها بوجوده عند أحد أصدقائه فهجموا عليه هنالك، وأصروا على أن يطلقها، قبل أن يصبح حبة ملح سقطت فى بحر، فقال: كنت أنوى طلاقها ولكن بعد حين ولكنكم تعجلتم فالأمر أمركم، والرأى رأيكم، فلما طلقها انطلقت تزغرد هى وأمها وأخواتها على ما ترى، فهم فى سعادة الخلاص من رجل كتم أنفاسهم، وضيع شباب ابنتهم أو كاد، إنهم كانوا قد فقدوا الأمل فى الحصول عليه، تضاربت الأقوال حوله، ولم يكن من يقين فى خبر من تلك الأخبار الكثيرة المتناقضة.

صداق النساء

فى مطلع سورة النساء يقول الله - عز وجل -: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فإن طبن لكم عن شيءٍ منه نفسًا فكلوه هنيئًا مريئًا﴾[1].

ويقول الله - عز وجل -: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾[2]
ومعنى النحلة: العطية، وقد فسرها العلماء بالفريضة بالنظر إلى مفهوم الآية، لا إلى موضوع اللفظ.

ولقول النبى ﷺ فيما رواه البخارى: «التمس ولو خاتمًا من حديد» وذلك يمثل الأدنى من الصداق، ويمثل الأعلى قول الله تعالى ربنا: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾[3] فلا حد لأدناه ولا حد لأقصاه، وإن اختلف الفقهاء فى الأدنى.

وفيما رواه البخارى وغيره من قول النبى ﷺ زوجتك إياها بما معك من القرآن، رأى المحققون من العلماء أن ذلك معناه زوجتك إكرامًا لما معك من القرآن، والتعليم غير مذكور فى النص، وأنه على الزوج بلا خلاف، يظل فى رقبته إن سماه أو دخل بها ولم يسم لها مهر فلها مهر المثل.

والصداق يجوز أن يكون مالاً وعقارًا وأرضًا، وكل شىء يدخل تحت ضابطه، وضابطه كل ما تنتفع به المرأة.

والخطاب فى قوله - تعالى - ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ للأزواج والأولياء، فلا يستولى زوج على صداق زوجته، ولا يستولى ولىٌّ على صداق من ولى أمرها، وزوجها.

وقال الشهاب الخفاجى فى حاشيته ٣/ ١٠٣ «وقيل إن الصداق كان فى شرع من

---

(١) النساء: ٤. (٢) النساء: ٢٤. (٣) النساء: ٢٠.

قلنا للأولياء بدليل قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾[1] ثم نسخ فصار ذلك عطية اقتطعت لهن، فسمى نحلة».

ويرد الصداق إلى الزوج بالعيب، وتستحقه هى بالدخول، وتتحمله إن كانت هى الغاشة التى خدعت زوجها.

وللأب أن يزوج ابنته بصداق قليل، وهو من السادة، قال ابن قدامة فى المغنى ٤٥٧/٧: «وزوج سعيد بن المسيب ابنته بدرهمين وهو من سادات قريش شرفًا وعلمًا ودينًا، ومن المعلوم أنه لم يكن مهر مثلها ولأنه ليس المقصود من النكاح العوض، وإنما المقصود السكن والازدواج ووضع المرأة عند من يكفيها فى منصب، ويصونها، ويحسن عشرتها.

والظاهر من الأب مع تمام شفقته، وبلوغ نظره أنه لا ينقصها من صداقها إلاّ لتحصيل المعانى المقصودة بالنكاح، فلا ينبغى أن يمنع من تحصيل المقصود بتفويت غيره، ويفارق سائر عقود المعاوضات، فإن المقصود فيها العوض فلم يجز تفويته.

فأما غير الأب فليس له أن ينقصها من مهر مثلها، فإن زوج بغير ذلك صح النكاح؛ لأن فساد التسمية وعدمها لا يؤثر فى النكاح، ولكون لها مهر مثلها لأنه قيمة بضعها، وليس للولى نقصها منه فرجعت إلى مهر مثلها».

وقد رضيت امرأة بنعلين صداقًا لها فقال لها النبى ﷺ أرضيت بنعلين من نفسك؟ قالت: نعم، فأجازه النبى ﷺ. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لو كان مكرمة فى الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم بها رسول الله ﷺ يعنى غلو الصداق، قال ابن قدامة: فإن رغبت فى كفء بعينه، وأراد وليها تزويجها لغيره من أكفائها وامتنع من تزويجها من الذى أرادته كان عاضلاً لها، فأما إن طلبت التزويج بغير كفئها فله منعها من ذلك، ولا يكون عاضلاً لها بهذا؛ لأنها لو زوجت من غير كفئها كان له فسخ النكاح، فلأن تمتنع منه ابتداء أولى. والمرأة تستحق الصداق كله إذا دخل بها أو اختلى بها على خلاف بين الفقهاء فى الخلوة، أتستحق المهر كاملاً بسببها أم أن العبرة

---

(١) القصص: ٢٧.

بالدخول قولان للعلماء، وتستحق نصفه إلا أن تعفو إذا طلقت قبل الدخول بها لقول الله عز وجل في سورة البقرة: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١) .

وفي صداق اليتيمة نزل قول الله - عز وجل -: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾(٢) .

قال عروة سألت عائشة عن قول الله - تعالى - ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ فقالت: يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها، ويشركها في مالها ويعجبه مالها وجمالها فيريد أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها، فنهوا عن نكاحهن إلا أن يقسطوا فيهن، ويبلغوا أعلى سنتهن الصداق. متفق عليه.

وفي سورة النساء يقول الله - عز وجل -: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾(٣) .

إن اليتيمة مناط طمع، وظلم من وصيها الذى يرغب فى نكاحها طمعًا فى مالها ونقصان صداقها، وقد يمنع غيره أن يتزوج بها حتى يأكل مالها.

والملاحظ أن (أَن تَنكِحُوهُنَّ) يحتمل إضمار (فى) ويحتمل إضمار (عن) والأول يدل على رغبة فى الزواج والثانى يدل على النقيض.

وفى الشهاب ٣/ ١٨٤: «قوله - أى البيضاوى فى أن تنكحوهن أو عن أن تنكحوهن: أورد عليه أن أهل العربية ذكروا أن حرف الجر يجوز حذفه باطراد مع «أن» و«أنّ» بشرط أمن اللبس بأن يكون متعينًا نحو عجبت أن تقوم، أى من أن تقوم بخلاف قلت أن تقوم، لا يجوز فيه الحذف لاحتمال «إلى أن تقوم» أو عن أن تقوم والآية من هذا القبيل، وأجيب بأن المعنيين هنا صالحان لما ذكر فى سبب النزول

(١) البقرة: ٢٣٧.
(٢) النساء: ٣.
(٣) النساء: ١٢٧.

فصار كل من الحرفين مراداً على سبيل البدل، ومثله لا يعد لبسًا، بل إجمالاً، كما ذكره بعض المحققين».

وكذلك كان الجاهليون يفعلون فى المستضعفين من الولدان، حيث كانوا يورثون الرجال الكبار، ولا يورثون الصغار.

فنهى الإسلام عن الظلم بوجه عام، ونهى عن ظلم اليتامى صغارًا وكبارًا، ذكرانًا وإناثًا، وأثبت أن لليتيمة صداقها، ومن خاف من ظلمها فى صداقها فليتزوج غيرها.

إن الإسلام لم يحرم على الناس أن يتزوجوا اليتيمات اللاتى فى ولياتهم، وإنما نهى عن ظلمهم فى بخس صداقهن.

صداق المرأة بين الشرع والعادة

علمنا أن الله - عز وجل - قال: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[1] وإطلاق كلمة «النساء» لا تفريق فيه بين البكر والثيب فللبكر صداقها، وللثيب كذلك صداقها.

والزواج له أركان شرعية من الإيجاب والقبول والولى وشاهدى عدل.

وما ورد من فرق إنما هو فى التعبير عن رضا المرأة، وقد بين النبى ﷺ أن البكر يكون سكوتها آية رضاها، لأن الحياء غالب عليها، وإن نطقت وقالت: أنا راضية، أو أنا موافقة كان ذلك أدل على الرضا، وليس بطلانًا للقبول كما يرى أهل الظاهر، الذين يأخذون بظاهر النص، إمَّا سكوت وإلاَّ فلا.

ولو أخذ برأيهم لكان فى ذلك تعسير على الناس خصوصًا فى زماننا، حيث نرى الفتيات منذ نعومة أظفارهن يقلن بصراحة أريد، ولا أريد، بل إن الواحدة منهن تعبر عن رضاها بوسائل شتى معروفة فى البيوت.

لكن الثيب تعرب عن نفسها، وتنطق بما فى ضميرها لأن لها عهدًا بالرجال، هذا هو الفرق.

---

(١) النساء: ٤.

وأمَّا الصداق فلا ينقص بسبب الثيوبة، فقد تزوج النبى ﷺ البكر وهى عائشة ﵂، وتزوج الثيبات وهن سائر نسائه ﷺ ولم يكن من فرق بين صداق البكر وصداق الثيب فيما نقله الرواة ودونه التاريخ، وصرّح به عمر بن الخطاب ﵁، وقد ذكر السهيلى فى الروض الأنف أن النبى ﷺ أمهر خديجة عشرين ناقة.

وحين ذكر العلماء الفقهاء مهر المثل لم يذكروا البكارة، وإنما المثل فى الشرف والحسب والمنزلة، وقد علمنا أن سعيد بن المسيب قد زوج ابنته بدرهمين مع علو نسبا ومنزلته، وذلك بالنظر إلى حال الزوج، فقد يكون قصير اليد لكنه عالى الهمة عظيم الدين، فلا يقف الصداق حجر عثرة بينه وبينها وهو كفء لها فى الخلق والدين.

أما الشائع فى عرف الناس أن التى سبق زواجها ثم طلقت أو مات عنها زوجها يكون مهرها ناقصًا، يقولون لأنها ليست «بنت بنوت». وهذا لا يليق بكرامة المرأة، ولا ينبغى أن يكون فى فكر مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر، فإنَّ الله - عز وجل - قد جعل المرأة أمانة عند الرجل، وهذا معنى قوله ﷺ «أخذتهن بأمانة الله» كما فسر العلماء، أى أن الرجل قد أخذ المرأة أمانة عنده، جعلها الله عز وجل عنده أمانة دون فرق بين الثيب والبكر.

فالمرأة إنسان لها كرامة وكيان، ووصفها بذلك هو وصف تشمئز منه النفوس الكريمة.

إن ما ورد عن النبى ﷺ تفضيل زواج البكر، وبهذا قال العلماء علة ذلك أنه أعذب فمًا، وأنقى رحمًا، وأنها تداعب وتلاعب وتسر، وقليل من الرجل يكفيها، لكن لكل إنسان ظروفه ومن تناسبه.

لقد تزوج النبى ﷺ أول زوج، خديجة ﵂ وقال فيها: والله ما أبدلنى الله خيرًا منها، وظلَّ يذكرها حتى انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وقال فيها آمنت بى إذ كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس وواستنى بمالها إذ منعنى الناس.

وإذا كانت البكر مفضلة لما ذكره العلماء فينبغى أن يحافظ على أصل التفضيل.

المحافظة على أصل التفضيل

كانت أمام عينيه، درة تاج، وبدر ظلام، وأُنس وحشة، عرف الربيع إذا حضرت، وشاهد الخريف إذا غابت، كان لقدميها وقع فى قلبه إذا تحركت كما قال الشاعر:

كأن مشيتها مــن بيت جـارتها مَرُّ السحابة لا ريث ولا عجل

خفيفة الظل والروح، فى دعائها وصدقها بلسم الجروح، جارة ونعم الجارة كانت، خدمت والدته العجوز، وكانت أحنى عليها من ابنتها، لم تكن تنظر إليه حين خدمت أمه، لم تكن تطمع فيه، هو نفسه يعرف ذلك، إنها شيء برىء، ليس له من غاية سوى أن ينشر الجمال فى كل أرض يكون بها، كانت لا تعرف من أماكن الدنيا سوى دارها، ودارهم بحكم الجيرة، والسوق بحكم الحاجة، والصيدلية بحكم الضرورة. لم تكن لفافة، ولا معتادة دخول البيوت، ومحادثة النساء، لم تكن تغير فى كل ساعة ثيابها، لم يعرف فيها ألوانًا، ولا تبرجًا، هادئة مثل أحلام الصِّبا، رقيقة مثل أنفاس الصَّبَا، كانت بذرة حلم أشع بالنور والدفء والخير فى كل مكان. لم تكن فيها سوى مشكلة واحدة، أنها مطلقة، تزوجت لمدة ستة أشهر، وانتهت قصة الزواج بالعبارة الشائعة: كل شيء قسمة ونصيب، طلقت فى هدوء كما تزوجت فى هدوء، لا أحد يعلم: لماذا تزوجت؟ وكذلك لا أحد يعلم: لماذا طلقت؟ هكذا كانت بلا شكوى، ولا كلام، ولا لغط، ولا لعنة لأيام الزواج الفاشل، ولا شكوى بسبب الطلاق السريع، فما المانع أن يتزوجها؟ إنها علاج نفسه وصلاح حاله، وأعرف الناس بظروفه وبيته وإمكاناته، إنها تكاد تكون جزءًا من بيته الذى فيه نشأ، لا غرابة لا حاجة إلى شرح وتحليل. إنها بحكم معرفتها الطويلة له ولأمه تعرف دون تكلف ما يحب وما يكره، وتعرف من عاداته ومزاجه ما لا تعرفه غيرها، ولكن كيف يتزوجها وقد سبق لها الزواج من غيره؟ لقد قرأ حديث البخارى الصحيح عن رسول الله ﷺ حين قال النبى ﷺ لجابر: هلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك، وقد سأله بكرًا تزوجت أم ثيبًا، فلما قال: ثيبًا قال له النبى ﷺ ذلك، وقد شرح له جابر الظروف

والأسباب التى صرفته عن البكر إلى الثيب، فقد كان له أخوات، تركهن أبوه، فلم جاء ببكر صغيرة مثلهن لما استطاعت أن تعالج أمورهن، وقد ذكر البخارى ذلك تحت عنوان: «باب زواج الرجل لمصلحته» وهذا يرد على كثير من الذين يقولون: إن الغرض من الزواج الاستمتاع فقط.

والعلماء الذين يشرحون الحديث يقفون عند ذلك ويذكرون تفضيل البكر على الثيب، ويقولون فيما يقولون إنها لا عهد لها بالرجال، وقليل يكفيها، ولا تحن إلى زوجها الأول، ولا تنسى من فض بكارتها، فالثيب لا تنسى، وأن النفوس مجبولة على أنس أول مألوف، وغير ذلك، ووقف صاحبنا عند قول العلماء فى الثيب إنها لا تنسى زوجها الأول فقال: يا ويلى، ويا سواد ليلى، لا يا عم، خلينا بعيد أحسن.

واختار صاحبنا بكرًا، لم يسبق لها الزواج، وقيل فيها ما يقال فى مثلها: قطة مغمضة، وعجينة تشكلها بإيدك زى ما أنت عايز، فطيرة، رغيف، كعكة، بسكوتة. على راحتك يا باشا.

ومضت أيام العرس الأولى فى أفراح، وليال ملاح، وبعدها وجد القطة ذات أنياب، ووجد العجينة قطعة من الصخر لا تلين، ولا تتشكل، متمردة، ساخطة، مستهزئة، جشعة، مسرفة، شرسة فى العملية الجنسية، تتحدث عنها دون حياء، وتعرف عنها الكثير بحجة أنها قرأت، وأنها شاهدت الأفلام، وذات يوم قالت له:

- إن البنت فى السنة الخامسة من عمرها تعرف عن الجنس أكثر مما تعرفه أمه التى جاوزت الخامسة والسبعين من عمرها، وأن الزمان قد تغير، وقالت له: صح النوم.

احتار صاحبنا، وقال: أين ما قاله العلماء فى البكر؟

وقلت له: يا ولدى ما قاله العلماء فى البكر صحيح، فالعلماء كلامهم حجة وكلامهم صحيح، ولكن ذلك باعتبار الأصل والأصل قد ضاع، ولأن الوسائل المحسوسة تعين على الفهم أضرب لك مثالاً، إن طريقًا عرفته من القاهرة إلى منوف مرورًا بالقناطر الخيرية، والباجور وسرس الليان تقطعه فى ساعة، لكن حين تكسر بهدف إصلاحه ظننا يومًا أنهم أصلحوه، ومشينا فيه فوجدناه ما زال متكسرًا، كل

مطبات، فأخذت السيارة تنتقل من حفرة إلى حفرة ومن جبل إلى هضبة، حتى قضينا فيه ست ساعات، فالأصل ساعة، فلما تهدم الأصل صارت الساعة ساعات، وكذلك الطريق من مصر الجديدة إلى ماسبيرو، كنا نقطعه فى ربع ساعة فلما كان ما كان من سوء المرور، وكثرة السيارات صرنا نقطعه فى ساعة ونصف ونحمد الله ونصلى على النبى عليه الصلاة والسلام، ونشكو السكر والضغط، وتلوث الرئتين، واضطراب نبضات القلب، فلو أننا حافظنا على الأصل لكان للتفضيل معناه وثمرته نستمتع به ونحن نجنى الثمر، وكذلك الأصل فى أمة الإسلام قول الله - تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

فلما غاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ودخلت البدع فى الإيمان، واختلط الحابل بالنابل، وصار الناس فى حيص بيص، ونامت الأمة واستيقظ غيرها تخلفت وافتقرت، وجاعت وتشردت، وتفرقت، وصارت نهبًا لكل ذى ناب وسلطان، فالتفضيل قائم على شرطه، وتفضيل البكر على الثيب قائم إلى قيام الساعة باعتبار الأصل، كما أن الأمة المحمدية خير أمة باعتبار الأصل، كما أن قصر المسافة بين مصر الجديدة وماسبيرو قائم باعتبار أصل الطريق سلسبيلاً، فإذا أردنا أن يعود الزمن فى قطع المسافة إلى ربع الساعة فهيا بنا نرفع العثرات، أى: هيا بنا نخرج هذا الزحام إلى الفضاء العريض، إلى المدن الجديدة، هيا بنا إلى تغيير العاصمة، لتكن فى أى مكان آخر، وتكون القاهرة كالإسكندرية القديمة عاصمة جديدة قديمة، فإذا ظللنا على إقرار العثرات فسوف يزداد الأمر سوءًا، وسوف تقطع المسافة فى ثلاث ساعات وعشر ساعات ما دمنا لا نفعل شيئًا، البوتاجاز أسرع من الباجور، ولكن إذا وجد الغاز الطبيعى أو الأنبوبة، بدون الأنبوبة لن يكون هناك معنى للتفضيل، والسيارة أفضل من ركوب الحمار، ولكن إذا كان بها وقود وموتور، فإن كانت مجرد هيكل فهى صورة، وما أسوأ أن نرى الأشياء مجرد صور، لا معنى للبكارة مع الشيطنة والثقافة الفارغة ولا معنى للحياة مع التلوث، ولا قيمة للنقود إذا كانت مغشوشة، شكلها

(١) آل عمران: ١١٠.

نقود، لكنها لا تساوى شيئًا، وكذلك ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ الل
بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[1] هذا هو الأصل، والأصل حكم، فإ
فقد الرجل معناه، وصار بلا عقل ولا قلب ولا مال فلا وزن له عند الرجال، ويبق
الأصل، إن عدنا إليه فقد عدنا إلى الكمال، وإن تخلينا عنه فنحن ماضون إلى أس
حال.

والأصل فى البيت: السكن، فإذا صار مقهى ومكانًا للخبط والأوجاع واللغ
والصراخ واللعب فلا معنى له، ضاع، ولا راحة فيه ولا هدوء، ولا فكر، و
عبادة، ولا سر، ولا جمال. لابد من العودة إلى الأصل إن أردنا حياة، فإن تخلي
عن الأصل فقد نزعنا ثوب الحياة، وارتدينا أى ثوب آخر، وبالحق والعدل نكون ة
ارتدينا ثوب الموت وإن زعمنا أننا أحياء. يا صاحبى لقد قصدت الأصل حين تزوجه
البكر، لكنك لم تجدها عندها أصلها، فضيعت على نفسك فرصة جارتك ولم تحة
بغيتك مثلما مشينا فى الطريق المتدغدغ ونحن نظن أنه عاد سيرته الأولى فتعبنا تع
شديدًا والله معنا ومعك.

(١) النساء: ٣٤.

ميراث النساء

للمرأة حق في الميراث كالرجل له حقه فيه، والسبب الذى يرث به الرجل هو عين السبب الذى ترث بسببه المرأة، فالرجل يرث أبويه ويرث زوجته وأولاده، وكذلك المرأة تمامًا بتمام، ترث والديها ويرثها والدها، وترث زوجها وأولادها وهم يرثونها وكذلك توصى المرأة كما يوصى الرجل، ويوصى لها كما يوصى له، وهكذا. وحظ النساء فى المواريث بيِّنٌ فى الكتاب والسنة وإجماع علماء المسلمين قال الله - عز وجل: **﴿للرجال نَصيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ وَلِلنساء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مما قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾**[1] وقال عز وجل فى سورة النساء أيضًا: **﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾**[2] .

وخلاصة ما يقال فى ميراث النساء ما يأتى:

١- أنها ترث نصف التركة بصريح القرآن الكريم إن كانت متفردة ونصيبها فى ذلك يساوى نصيب الرجل من زوجته الميتة إن لم يكن لها ولد، وهذا النصف ترثه البنت من أبويها على سواء بهذا الشرط.

٢- وإن كانت زوجة ومات عنها زوجها ورثت ربع تركته إن لم يكن لهذا الزوج ولد منها أو من غيرها.

٣- وترث الثمن من تركة زوجها إن كان له ولد ذكرًا كان أو أنثى منها أو من غيرها.

٤- وأجمع أهل العلم على أن بنات الابن بمنزلة البنات عند عدمهن فى الميراث، فمن مات جدها عنها فهى كابنته فى الميراث إن لم يكن له بنات.

---

(١) النساء: ٧. (٢) النساء: ١١.

٥- وأجمع العلماء على أن فرض البنتين الثلثان، وقد قال النبى ﷺ لأخى سعد بـ الربيع: أعط ابنتى سعد الثلثين.

٦- وإن كانت مع البنت - يعنى بنت الميت بنت ابن فلبنت الابن السدس تكمـ الثلثين.

وقد روى هذيل بن شرحبيل الأودى قال: سئل أبو موسى عن ابنة وابنة ابـ وأخت، فقال: للبنت النصف وما بقى فللأخت فأتى ابن مسعود وأخبره بقول أبـ موسى؛ فقال لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين، ولكن أقضى فيها بقضاء رسو الله ﷺ: للبنت النصف ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين، وما بقى فللأخت فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال: لا تسألونى عن شىء ما دام الحـ فيكم.

٧- والأخوات من الأب بمنزلة الأخوات من الأب والأم إذا لم يكن للميت أخوا لأب وأم.

فإن مات ميت، وترك أخوات لأب، فإنهن بمنزلة الشقيقات، فإن مات وتر أخوات شقيقات فلا ميراث لأخواته البنات من أبيه إلاّ إذا كان معهن ذكر فيعصبن فيـ بقى ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾[1].

٨- وإن مات الميت وترك أختًا واحدة لأب وأم وأخوات لأب فلأخته الشقيـ النصف، ولأخواته من الأب واحدة كانت أو أكثر السدس تكملة الثلثين إلاّ يكون معهن ذكر فيعصبهن فيما بقى للذكر مثل حظ الأنثيين، قال الله عز وجـ فى ختام سورة النساء: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْـ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَـ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾[2].

٩- وإن استكملت الأخوات من الأبوين الثلثين وبقيت أخوات من أب وكان معهـ

---

(١) النساء: ١١.

(٢) النساء: ١٧٦.

ابن أخ لهن لم يكن للأخوات من الأب شيء، وكان الباقي لابن الأخ؛ لأن ابن الابن وإن نزل ابن.

١٠- هناك أربعة من الذكور يعصبون أخواتهن فيمنعونهن الفرض ويقتسمون ما ورثوا: للذكر مثل حظ الأنثيين، وهم الابن وابن الابن والأخ من الأبوين، والأخ من الأب.

١١- للأم الثلث، ثلث تركة ابنها، وللأم فى الميراث ثلاثة أحوال:

الأول:

أ- لها ثلث التركة مع عدم الولد وولد الابن من الذكور والإناث.

ب- ولها ثلث التركة مع عدم الاثنين فصاعداً من الإخوة والأخوات.

والثاني:

جـ - ولها السدس إذا لم يجتمع الشرطان، بل كان للميت ولد أو ولد ابن أو اثنان من الإخوة والأخوات، قال الله - تعالى -: ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾[1] وأقل الجمع ثلاثة.

والثالث: لها بقية التركة إذا كان زوج وأبوان، أو امرأة وأبوان وليس للأب مع الولد الذكر أو ولد الابن إلا السدس فإن كن بنات كان له ما فضل.

توفى عن زوجة وأم وأخت وجد فما نصيب كل؟

للزوجة الربع، لأنه - رحمه الله - مات وليس له ولد وللأم الثلث.

والباقى بين الأخت والجد على ثلاثة، فإن كان أخ أو أخت أو ثلاث أخوات حجبوا الأم إلى السدس.

فإن مات عن زوجة وأخت وجد وجدة فهى كالمسألة السابقة، إلا أن للجدة السدس مع الأخت الواحدة والأخ الواحد، فإن كانوا أكثر من واحد فحكم الجدة والأم واحد.

---

(١) النساء: ١١.

١٢- وفروض الأخوات من الأبوين كفرض البنات سواء، إلاَّ أنه لا يعصبهن أخوهن، فللواحدة من الأخوات للأبوين النصف، وللأختين فما زاد الثلثا فإن كانت الأخت لأبوين وأخت أو أخوات لأب فلهن باقى الثلثين وذلك السد تكملة الثلثين كبنات الابن مع البنات.

وإن لم يكن للميت أخوات لأبوين وكان له أخوات لأب فلهن حكمهر للواحدة النصف وللأختين فما زاد الثلثان، وهذا لا خلاف فيه بل هو إجماع أه العلم.

١٣- وقد أجمع أهل العلم على أن للجدة السدس إذا لم يكن للميت أم.

وقد روى قبيصة بن ذئيب: قال: جاءت الجدة إلى أبى بكر تطلب ميراثها فقال مالك فى كتاب الله - عز وجل - من شىء، وما أعلم لك فى سنة رسول الله ﷺ شيئًا، ولكن ارجعى حتى أسأل الناس، فقال المغيرة بن شعبة: حضرت رسول ا ﷺ أعطاها السدس، فقال: هل معك غيرك؟ فشهد له محمد بن مسلمة فأمضاه ا أبو بكر، فلما كان عمر جاءت الجدة الأخرى، فقال مالك فى كتاب الله شىء، ف كان القضاء الذى قضى به إلاّ فى غيرك، وما أنا بزائد فى الفرائض شيئًا، ولكن ، ذاك السدس فإن اجتمعتما فهو لكما، وأيكما خلت به فهو لها.

١٤- وأجمع العلماء على أن الأم تحجب الجدات من جميع الجهات، روى ابن بري عن أبيه أن النبى ﷺ جعل للجدة السدس إذا لم يكن دونها أم.

١٥- وأجمع العلماء على أن ميراث الجدات السدس وإن كثرن.

١٦- كما أجمعوا على أن القربى ترث والبعدى التى هى أمها أى أم الجدة - وه تعد جدة للميت أو الميتة - لا ترث وإن كانتا من جهتين والقربى من جهة ال فالميراث لها وتحجب (تمنع من الميراث) البعدى.

دروس من الميراث:

لا خلاف بين العلماء فى أنَّ هناك ميراثًا لا يسقط أبدًا وذلك محدد فى:

١- الزوجين، أى إن مات أحدهما لا يسقط ميراث الآخر.

٢- والأبوين.

٣- وولد الصلب.

والجملة خمسة (زوج، زوجة، أب، أم، ولد (ذكرًا كان أو أنثى)).

وعلة ذلك هى درس مستفاد، وهى أن هؤلاء يمتون إلى الميت من غير واسطة.

فما معنى هذا؟ وما الدرس المستفاد.

معناه أن حفيدك يمتّ إليك بواسطة ولدك لكنّ ولدك يمت إليك بنفسه دون واسطةً.

فأيهما أغلى وأحب؟

أعز الولد ولد الولد، هذا كلام غير موضوعى، ولا صلة له بالعلم، إنما هو جبر خاطر، وحبر على ورق، أعز الولد ما اتصل بك بنفسه دون واسطة بينك وبينه.

وأخوك يمت بنفسه إليك ولكن بواسطة والديك أحدهما أو كليهما، ولذلك يسقط ميراثه منك مع وجود ولدك الذكر الذى هو من صلبك.

والدرس المستفاد من ذلك أن من حكم الشرع بعدم سقوط ميراثه أبدًا لعلة أنه يتصل بك مباشرة دون واسطة يجب أن يكون لذلك أثر فى الحياة.

وقد ظهر هذا الأثر فى سيرة النبى ﷺ قبل البعثة، حيث اختار زيد بن حارثة ﷺ المقام مع النبى ﷺ.

وآثره على أبيه وعمه وقومه وأمه، فقد كان زيد مولى لحكيم بن حزام فأهداه إلى عمته خديجة زوج النبى ﷺ فاهدته إلى رسول الله ﷺ فلما علم بمكانه أبوه وعمه جاءا إلى مكة يفتديانه ويطلقان عنانه، ويعودان به إلى أهله ودياره، وقصة بعده أن أمة خرجت به لزيارة أهلها الذين هم أخواله وأرحامه، فقطع الطريق عليها قوم مغيرون فاختطفوه وباعوه لحكيم بن حزام بن خويلد.

حضر والد زيد بن حارثة وعمه، فعرفاه وعرفهما وقدما إلى النبى ﷺ الأمو
مفتوحة العدد لكنه ﷺ عرض عليهما أمرًا آخر فقال لهما: إنه يخيِّره، ف
اختارهما فالرأى رأيه وهو لهما دون مال وفداء، وإن اختاره ﷺ تركاه له فقالا ل
أنصفت وأحسنت.

ما كان يخطر على بال أحد خصوصًا الوالد أن ولدًا يؤثر العبودية - كما ك
الظاهر ينطق بذلك - والرق على أبيه وعمه وديار قومه، والعودة إلى الحر
والانطلاق ومربع الصبا ومسقط الرأس.

وناداه النبى ﷺ وقال له - أتعرف من هذا؟ وأشار إلى أبيه فقال نعم، ه
أبى، قال: وهذا؟ قال عمى وعرض عليه مسألة الاختيار، فقال زيد لأبيه وعمه ل
رأيت منه أمرًا وما أنا بتاركه أبدًا.

فلما قال زيدٌ ذلك أعلن النبى ﷺ فى الناس أن زيدًا ابنه وقال هذا زيد
محمد وارثًا وموروثًا، وظل يدعى زيد بن محمد حتى نزل قول الله تعالى: ﴿ادْعُو
لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾[1] وحرم الإسلام التبنى فدعى زيد بن حارثة.

والشاهد أنه ﷺ ذكر الميراث لابن تبناه لأنه آثر البقاء معه، أى آثر الاتصال
دون الانفصال، فما لأبناء المسلمين وبناتهم لا يحبون هذا الاتصال، فإن مات الآ
والأمهات جاءوا جميعًا يطلب كل منهم ميراثه من أبيه، وميراثه من أمه.

كأنه عرف أباه بعد موته، لأن له فى ماله حقًّا، ولا يستطيع عالم أن يفتى بحرم
ولد أو بنت من ميراث أبيه أو أمه اللهم إلا إذا كان هذا الولد ذكرًا كان أو أنثى
قتل أباه أو أمه، فلا يرث قاتل.

أما عقوق الأبناء فلا يمنع الميراث، ولكنا نقول هنا فلتأخذ حقك وميراثك،
فلتأخذ الدنيا بما فيها ولن تغنى عنك من عذاب الله شيئًا إن عذبك بسبب هذا العقوق

ثم انظر هل تهنأ لك لقمة، وهل تستسيغ لك شربة، من ميراث مَنْ ناد

---

(١) الأحزاب: ٥.

فانصرفت عنه، واستغاث بك فلم تغثه، ورجاك ليوم ضعف ونزول جائحة فإذا بك لا تدرى ما أصابه، ولا ما جرى له، وكان غيرك الذى لن يرثه أقرب الناس إليه، وكنت أنت أيها الوارث أبعد الناس عنه.

حرمان البنات من الميراث

وإذا كان العاق من الأبناء لا يمنعه الشرع ميراثه وإنما يمنع القاتل فما ذنب البنت التى ما عقت وما قتلت بل كانت ربما الممرضة التى تعبت وشقيت وسهرت وأخوها كان فى مسرح اللذات، وأرض الله الواسعة يبحث عن رزق أوسع وعيش أرغد، ولا حرج فى ذلك ما دام يرسل منه ما يحتاج إليه أبواه، لكنه ما أرسل منه شيئًا واضطرت البنت أن تخلع ذهبها وأن تبيع الغالى عندها من أجل أن تشترى الدواء لأبيها وأمها، فلما قضيا جاء الأخ الشقيق واستولى وحده أو بمشاركة إخوته الذكور على الأخضر واليابس وحرمها.

وإذا كان الله - عز وجل - يقول فى الموءودة التى دفنها الجاهلى على قيد الحياة - كما تقول: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾[1] فإننا نقول: «والمحرومة من الميراث بأى ذنب حرمت».

اوراق معجونة

١- ومن الأوراق المعجونة فيما يتصل بقضية الميراث عد جهاز البنت حقا من الميراث، تكون قد استوفته فى حياة أبيها أو أمها، فلما جاء الأجل قال الذكر: لقد أخذت حقك وزيادة.

وهذا مما لا يصح، فإن الميراث حق الله - تعالى - والمال ماله ولم يتركه سبحانه وتعالى لملك كريم، ولا لنبى معصوم، وإنما وزعه - عز وجل - بنفسه، وبين أن له حدوده، وهو لا يكون فى حياة المورث وإنما يكون بعد التأكد من موته، وغسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه، وتنفيذ وصيته وسداد دينه، قال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾[2].

---

(١) التكوير: ٨ و ٩.

(٢) النساء: ١١.

وما جهز به ابنته وما أنفقه فى تعليمها وتعليم إخوتها وغير ذلك مما أنفقه حياته لا يعد ميراثًا، ولا يحتسب منه ولا يخصم من فريضة وحظ، فهذه ورقة حيا وهذا حق واجب بعد الموت، تركه لمن لهم فيه حق.

٢- وينظر كثير من الناس فى علة الحرمان هذه البغيضة على أن المال سوف ينتهى إ زوجها وهو أجنبى، قال أحد الذين ورثوا الجاهلية فى زماننا: لو كان المال الذ تركه أبى سوف تناله أختى لما عز علينا، بل أعطيناها وزيادة ولكن نصيب أخ مليون وزيادة، وسوف يقبض هذا اللص... قاطعته

من اللص؟

قال: زوجها

قلت: ولماذا زوجتموها بلص؟

قال: هذا ما حدث، غفر الله لأبى هو الذى زوجها وعطف عليه وآواه، ولّ عض اليد التى أحسنت إليه وآذى الرجل الذى جعل منه رجلاً... و....

أتعرف يا علامة ماذا يفعل صاحبنا بهذا المليون؟ إنه سوف يفتح به مشرو تجاريًا، ويشرب منه خمرًا، ويتزوج به عليها، تلك البلهاء التى لا تعرف من الحق شيئًا.

قلت له: يا أخى، المال مال أختك، وهذا حقها، ولها مطلق الحرية، تعد زوجها، تعطيه مَنْ تشاء، إن عليك إلا اتباع الحق، وإعطاء كل ذى حق حقه.

٣- وبعض الأزواج يزيد النار اشتعالاً، فمن يرى الإخوة من الذكور يتهربون مسألة التوزيع، ويعزمون على حرمان أختهم التى هى زوجته يقومون بإيذا وضربها وطردها، قال زوج لزوجته.

اذهبى إلى أخيك، ولا تعودى إلا وميراثك فى يدك وحلف بالطلاق، وهد وأرغى وأربد، فذهبت إلى أخيها وانتابها الحياء فلم تصرح له حتى علمت زو- بقصتها فأعطاها شيئًا، فعادت به، فقال زوجها:

- أنظام تقسيط هو؟ اللهم صبراً.

صبرًا على ماذا يا هذا، إن الحق لها وليس لك، إنها زوجتك، ولا صلة لعقدة الزواج بأن تحصل على ميراثها أو لا تحصل عليه، إنك لم تتزوجها على شرط، والنفقة عليك واجبة حتى ولو ورثت زوجتك مالاً يفوق مال قارون.

٤- بل إن بعض الإخوة من الذكور قال لأخته التى تزوره هى وأولادها بصريح العبارة:

اعلمى أن باب هذا البيت مفتوح أمامك ما دمت ساكتة عن حقك فى ميراث أبيك فإن طلبته فخذيه ولكن على ألا تدخلى هذا البيت أبدًا، لا أنت ولا أحد من أولادك الذين يأكلون ويشربون ويمرحون. وكأنه يريد أن يكرمها، ولكن على حسابها وعلى نفقتها، ويريد أن يكرهها على التنازل حتى يظل باب بيته مفتوحًا.

يريد أن يأكل السحت والحرام فى ظل المودة والأخوة وهذا عين الحرام، يا هذا لقد أخذت ضعف نصيبها، فاجعل من زيارتك المشروعة سلمًا للصلة وحبلاً للمودة.

٥- وكان رجل قد تزوج بعد وفاة زوجته بأخرى التى أنجب منها ولدًا صار تاجرًا كبيرًا وصاحب أموال، وأنجب من الجديدة طفلاً تركه مع أمه، فجاء أخوه التاجر الكبير لينال حظه من الميراث فدعت عليه أم الطفل وجدته لأمه والجيران ومن حضر من الناس، وقالوا له:

حرام عليك، لقد كبرت، وطعمت شهد أبيك ألا تترك لأخيك الضعيف المسكين ما تركه أبوه، أهذا برك بأخيك وعطفك عليه، دع له العمارة والسيارة وحساب أبيه فى البنك فإن عندك أضعافه.

ولا وجه لما قالوا، ولا رفع لدعاء بنى على باطل، فإن للكبير حقه كما للطفل، بل كما للجنين الذى مات أبوه وهو فى بطن أمه إن جاء ذكرًا مثله، فليأخذ كل ذى حق حقه، ولتبدأ ورقة أخرى هى عطف الكبير على الصغير ورحمته، وحنو الغنى على الفقير وتعهده بالرعاية والحفظ والإنفاق.

وقد يكون هذا التخبط من الدعاء عليه وتأنيبه سببًا فى قسوة قلبه وجفائه وزي
فى بعده ونأيه وهجره.

٦- وقد اعتاد بعض الناس أن تستولى البنت أو البنات على ذهب أمهن وحليه
يقولون: الذهب للبنات، وهذا لا أصل له، فالتركة تركة بذهبها ونحاسها وترا
وعقارها والواجب أن تقدر قيمة الذهب، وأن يأخذ كل وارث نصيبه من الذك
والإناث، فإن رغبت بنت فى ذهب أمها لأنه غال عندها عزيز عليها فلا بأس
تدفع ثمنه وتحتفظ به دون ظلم أو استيلاء بباطل وإثم، لها فيه مثل ما لغيرها
الورث، فلتأخذ سهمها وحظها، ولتدفع الباقى إلى أصحاب الحقوق.

٧- يتسرع بعض الآباء والأمهات بكتابة أموالهم فى حياتهم إلى أبنائهم وبناته
يقولون: نفعل ذلك فى حياتنا حتى نموت ونحن ضامنون ألا نزاع بينهم.

ومثل ذلك وإن ورد عن سعد بن عبادة ﷺ حيث قسم أمواله بين أولاد
وذهب إلى الشام فمات بها لكن المتأمل فى القصة يجد أنه ترك امرأة له حاملاً فولد
ذكرًا فقال ابنه قيس بن سعد ﷺ نصيبى كله لأخى هذا المولود ولا أغير ما فعل أبى

فمن فى الأولاد كقيس؟

والله عز وجل شرع الميراث بعد الوفاة لا فى حياة الموروث، فلا يدرى أحد
يموت قبل الآخر، وقال عز وجل: ﴿مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾[1] .

ومن مساوئ هذا السلوك أن يتعرض مَنْ كتب إلى ذل يعيشه، وإهانة ما
يخطر على باله أن تكون فإن القلوب تتقلب، والنفوس تتغير، والعوارض لا يه
أحد متى تعرض أو تعترض.

وقد ألقى الأبناء بأبيهم على الرصيف بعد أن كتب لهم كل شىء، وتلقاه ر
مسيحى كان يعمل عنده فى وقت مضى، وأودعه دارًا من دور المسنين وأنفق ع
فمن ذا الذى يحب هذا المآل لنفسه؟ ومن التى تحب ذلك؟ أليس شرع الله أو
بالاتباع!

(١) النساء: ١٢.

٨- وقد يكتب بعض هؤلاء لأحد أبنائه شيئًا نفيسًا لحبه إياه أو لصغر سنه، من باب الوصية، وقد بيّن النبى ﷺ أنه لا وصية لوارث، فقد أعطى الله عز وجل كل صاحب حق حقه، وجاء ذلك فى خطبة الوداع ولم ينسخ، وقد كتب بعض الباحثين المعاصرين فى ذلك وأجاز الوصية للوارث إن وافق الورثة.

وقد يوافق الورثة إكرامًا لأبيهم أو أمهم وهم كارهون، ورحم الله عمر بن الخطاب حين قال إثر قراءته قول الله عز وجل ﴿**وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا**﴾[1]: النساء يعطين رغبة ويعطين رهبة، فلا آخذ منهن شيئًا.

٩- ورأيت بعض الذين لم ينجبوا إلاّ بنات يدرسون الميراث جيدًا جلست إلى زوجها وقالت له:

- أرأيت بعد عمر طويل، يعنى يعنى.. لا قدّر الله ماذا يحدث؟

- قالت: ماذا؟

- قالت: لو كنت موجودة... الله أعلم فلى الثمن ولبناتك القمرات النيرات الثلثان، ولفلان وفلان من إخوتك الباقى، وهذا كثير ما شاء الله.. ما شاء الله.

- قال: صحيح.

فقالت

وأنت تعلم ما هم فيه من خير، ولا أحد فى هذا الزمان يسأل عن أحد، فلو سمعت مقالتى وأخذت بمشورتى.

- قال: ماذا عندك؟

قالت: تكتب كل شيء باسم البنات، أنا لا أريد شيئًا لى ولكن نضمن حقهن، ونؤمن مستقبلهن، فقال: أحسنت أكتب كل شيء، على أنه بيع وشراء، لا أحد

---

(١) النساء: ٤.

يضمن، والبنات ضعيفات، والزمن غير الزمن، وذلك أيضًا فساد، وقد قال الله - وجل -: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا ا وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾[1].

وليس هذا الفعل من التقوى في شيء، لأن فيه - إن مات قبل ورثته - حر من لم يحرمه الله تعالى.

١٠- ومثل ذلك امرأة ورثت عن أبيها الكثير من المال والعقار، وغير ذلك، وجد نفسها وبين يديها ثروة طائلة، فلم تفكر في حج ولا عمرة، ولا إنفاق في سـ الله تعالى. وإنما فكرت في شيء واحد، في ثلاثة ملايين سوف تنتهي إلى ا الزوج الذي ما رأت منه خيرًا أبدًا، قالت أموت ويرقد هو على أموالي هذ لابد أن أكتبها إلى أخواتي البنات، هن أولى بالأموال منه، على الأقل هذا ا أبيهن الذي هو أبي.

أدى البغض إلى مجاوزة الشرع، والله - عز وجل - يخاطبنا بقوله من سـ المائدة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[2].

---

(١) النساء: ٩.

(٢) المائدة: ٨.

الفصل الرابع

حديث القرآن الكريم عن المطلقات

- ١ -

الطلاق معناه حل عقد الزواج، وإسقاط ما يترتب على هذا العقد من حقوق، وحديث القرآن الكريم عن الطلاق يختلف عن حديث الناس، بل إنه يختلف عن حديث الفقهاء الذين يرجع إليهم أمر الطلاق من حيث الإفتاء بوقوعه من عدم وقوعه، عامة الناس يقولون: «شيل ده عن ده يرتاح ده من ده.. اطلقى.. طلقها.. يا عم كل واحد يروح لحاله... زى ما دخلنا بالمعروف نخرج بالمعروف..».

وحديث الفقهاء عن الطلاق يكون فى بيان أنواعه من الصريح كقوله الرجل لزوجته «أنت طالق»، والكناية نحو قوله لها: «الحقى بأهلك»، والمعلق على شرط، نحو «إنْ كلمت فلانًا أو فلانة فأنت طالق» والنية فى أى أنواع الطلاق تعتبر، والعدة، والرجعة، وغير ذلك من مسائل الطلاق فى أمهات كتب الفقه الإسلامى.

أمَّا حديث القرآن الكريم عن الطلاق فهو يختلف عن هذا كله من حيث الدعوة إلى التريث والتفكير قبل إحداث الطلاق، وهذا ما لا تجده فى كلام أحد إلاَّ فى كلام الله رب العالمين. فأول باب الطلاق فى كتب الفقه تعريفه وأنواعه، وأول آية فى سورة الطلاق الدعوة إلى التريث والهدوء والانتظار، وهذا يتطلب التفكير، والأخذ والرد، تقرأ قول الله - عز وعلا -: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ**﴾[1].

لقد كانت هذه الآية دليل الفقهاء على طلاق السنة، وهو أن يطلقها فى طهر لم يجامعها فيه، وكلامهم صحيح، وما كتبوه مما أشرت إليه صحيح، لا عيب عندهم؛ لأنهم علماؤنا المعنيون ببيان شرع الله وأحكامه، ومن رحمة الله تعالى بنا - أن تركوا لنا شيئًا نقوله فى مثل هذا المقال، فإنى أرى أن قول الحق - تعالى - ﴿**فَطَلِّقُوهُنَّ**

(١) الطلاق: ١.

لعدتهن﴾، أي: انتظروا حتى تكون المرأة مستقبلة عدتها بأن تطهر من حيضها، ثم الخيار، إن شاء أمسك فجامع وعاشر وإن شاء طلق إذا هداه فكره إلى أن الحـ أصبحت مستحيلة بينهما، فالآية مع ما فيها من بيان الحكم الشرعى دليلى ع وجوب التريث والتثبت والتفكير، هب أنّ رجلاً أراد أن يطلق امرأته، بعد أن جام بيوم، وكانت قد تطهرت من حيضها منذ يومين فمعنى ذلك أنه لن يطلقها إلا ؛ شهر تقريبًا أو يزيد ، فماذا يفعل فى هذا الشهر؟

أتراه سيبقى على غضبه؟ ألا يجوز أنها تصالحه وترضيه؟ ألن يعيد النظر المسألة واتخاذ القرار؟

إنه حتمًا سيعيد النظر فى أمره وما هو مقبل عليه، وماذا بعد الطلاق؟ ثم هَبْ امرأة هى التى طلبت الطلاق، أو كانت سببًا فى أن يعزم زوجها طلاقها أى ينو؛ وكانت عالمة بأحكام دينها، وعلمت أنه لن يوقع الطلاق عليها إلاّ فى هذا الوقت ف ستظل طيلة تلك المدة حـادة منفعلة، مصرة على ذلك، أم أنها ستعيد النظر جديد؟

لقد حدث أنَّ زوجة ثارت فى وجه زوجها، وقالت له طلقنى، وكان الز؛ حليمًا، فذكرها بالله تعالى، ونسبة نبينا ﷺ وقال فى لطف وبشاشة: ترى لو نفذ طلبك فورًا ألا تندمين؟

- نعم لن أندم أبدا.

- إذن تكونين سعيدة!

- سأكون سعيدة جداً.

- لماذا تطلبين منى ذلك؟ هل وجدتنى رجلاً لا أصلى ولا أصوم ولا أ؛ الرحم، ولا أحسن الجوار، ألسبب فى خلقى؟

- لا.

- هل أسأت إليك؟ هل ترينني بخيلاً؟

- لا، بالعكس، أنت رجل طيب، وخلقك كريم، وأية امرأة غيرى تتمناك.

- إذن لماذا تطلبين الطلاق؟

- أنا وأنت شخصان مختلفان فى النشأة والتربية والبيئة ولا يمكن أن نلتقى.

- يا حبيبتى، من لقنك تلك الثقافة الفارغة، انظرى إلى الواقع، مهما كنا مختلفين فنحن نعيش عيشة طيبة، وأنا أفعل كل ما فى وسعى لإسعادك، وأحسن معاملتك، ولا أشق عليك، ولا أناقشك فى شىء من العلم أو الفكر العقيم، إنَّ واقع الحياة يشهد بأننا فى سلام، فلماذا نزرع الحرب فى أرض صالحة للسلام؟!

- من الآخر لابد من الطلاق، أنا أريد أن أنال حريتى، أن أنام على راحتى، أصحو على راحتى، أسافر خارج البلاد.

- هل أزعجتك ذات مرة، أو وجدتك نائمة وحرَّمت عليك النوم؟

- لا.. لا.. لا.

- أية حرية تلك التى تنشدين!

- أنا أصلاً، أساسًا ضد فكرة الزواج.

- هل أصبح الزواج فكرة؟ لماذا إذن تزوجتنى!

- كانت تجربة.

- ومَنْ قال لك إننى نموذج للتجربة!

وضرب كفا بكف، وترك المكان مستعيذًا بالله من الشيطان الرجيم، دخل حجرة مكتبه، وكان بها سرير صغير، اضطجع فوقه، وفاضت عيناه، وأخذته سنة من النوم، تقلب وهو نائم فألفى شخصًا شاخصًا أمامه، ظن نفسه فى منام، لكنه سمع صوت بكاء، فتح عينيه، فإذا هذا الشخص زوجته نظر إليها وقال:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، مالك؟ ما الذى يبكيك؟ هب جالسًا، وظ أنها تستعجله فى أمر الطلاق، فقال:

- لا تبكى، نحن الآن فى منتصف الليل، وأظن أننا لن نجد فى هذا الوقـ مكتب مأذون فاتحًا (الصباح رباح).

- هل يمكن لى أن أطلب منك شيئًا؟

- ماذا تريدين؟ لقد قلت كل شىء، هل بقى شىء؟

- نعم.

- ماذا عندك؟

- إن ما أطلبه منك أن تنسى كل كلمة قلتها لك.

- هل أنت واعية مدركة؟

- طبعًا.

- يعنى لا تريدين طلاقًا!

جلست إلى جواره، وارتمت فى صدره، وقالت:

- هو أنت فيه زيك؟!

- صحبها إلى حجرة نومه، ومسح دموعها بيديه، فابتسمت ومضى الليل إل صبح طيب، وعلى مائدة الفطور.

قال لها وهى تناوله كوب الحليب.

- هل تحدثنا فى شىء البارحة؟

- أبدًا.

- إذن كان كابوسًا اسأل الله ألا يعود.

- آمين.

هب أنَّ هذا الرجل بادر زوجه بقوله: «أنت طالق» ووقع الطلاق دون نظر فى السنى والبدعى، أثارته فثار، وطلبت منه فاستجاب، ثم جاءت معتذرة، وراجعها، وحسبت مرة، لم يعد لهما سوى أخرى لقوله - تعالى - : ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ﴾[1] فهل نتوقع أن يكون بينهما وبين المرة الثانية أمد بعيد بهذه الطريقة، أم أنها ستأتى سريعًا كالأولى، وتنتهى علاقة زوجية وليدة، يصح أن نطلق عليها الموءودة التى قتلت بلا ذنب إلاّ ذنب التوهم بأنّ هناك خلافًا واختلافًا، أو السماح لمن لا شأن لهم بالعلاقة بالتدخل. فمن الناس مَنْ يسعده أن يفرق بين الجماعات، ويفسد صافى العلاقات، ويقطع أواصر المحبة بين المتحابين، لقد طلبت زوجة أخرى الطلاق لأنها كانت فى زيارة والديها فوجدت أحد أقاربها هناك، نام والداها فى وقت الظهيرة وتركاه معها، فأسر إليها بأنه يحبها منذ الطفولة، وأنه كان ينوى الارتباط بها لكن زوجها سبق وأنه لا يمكنه الزواج بغيرها، لعب برأسها، فطلبت من زوجها الطلاق لتحصد ثمار الحب الكبير، فلما تمهل زوجها اكتشفت أن قريبها كل يوم مع واحدة، فاعتذرت لزوجها، الذى لم يعلم شيئًا عن حوار الظهيرة الذى كان.

---

(١) البقرة: ٢٢٩.

حديث القرآن الكريم عن المطلقات

- ٢ -

ووقع الطلاق

بعد أن دعت الآية الأولى من سورة الطلاق إلى التمهل والتريث والتفكير في وقوع الطلاق أو إيقاعه نرى أنها في الآية نفسها تدعو إلى تقوى الله، يقول الله - عز وعلا -: **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾**[1] والدعوة إلى تقوى الله دعوة إلى نبذ أثر الخلاف والشقاق اللذين من الممكن حدوثهما إثر وقوع الطلاق، فإنّ بعض الناس إذا حدث بينهم الطلاق أصبحوا أعداء من بعد محبة، وأباعد من بعد قرب، وسوءًا من بعد حسن، أي اتقوا الله ربكم ولي نعمكم، الذي أعطاكم كل شيء قبل أن تسألوه أي شيء، واحذروه، واعلموا أنّ المطلقة ما زالت في بيتها، فالبيت بيتها ما دامت في أشهر العدة، فلا تخرج من بيتها إلاَّ إذا ارتكبت فاحشة كبيرة، وقوله - عز وعلا -: **﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾** تعبير قلما يتأمله الناس في زماننا، فمعظم الناس يزعمون أن حدود الله هي قطع يد السارق، وجلد الزاني، وحدود الله عز وعلا - دينه الذي شرع، وأحكامه التي بيّن، وحدود الله تعاليمه، أوامره ونواهيه، ما ذكره من حلال يجب اتباعه، وحرام يجب اجتنابه.

وحدود الله بين الزوجين حسن معاشرة، وعون على طاعة الله، إنما يتزوج المسلم بمن تعينه إذا ذكر، وتذكره إذا نسي، أي إذا ذكر فضيلة أعانته على أدائها، وإذا نسي ذكرته بها، وهو كذلك بالنسبة إليها، **﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾**[2] .

(١) الطلاق: ١.
(٢) البقرة: ٢٢٨.

وحدود الله إذا وقع الطلاق أولها أن تبقى المطلقة فى بيتها تقضى فيه عدتها، وقد ظن كثير من الناس أنها تكون فى عدتها، ويكون معها مطلقها، وهذا لم يقل به أحد من العلماء.

وقد عكس الناس الحد من حدود الله، ففى أيامنا إذا طلق الزوج امرأته جمعت ثيابها، وهرعت إلى أهلها، والعكس هو الصواب، أن يترك هو المنزل حتى تنتهى العدة، وقد يعود فى أيام العدة ويراجعها، وقد يراجعها بعد العدة، أو يفارقها بمعروف، وقد نصّ العلماء على علة إطالة مدة العدة وهى ثلاثة أشهر مع أن براءة الرحم تكفيها حيضة واحدة، أى شهر واحد، فقالوا: إنما طالت فترة العدة لتكون فرصة للمراجعة، بأن يحدث الندم بعد وقوع الطلاق، فتكون هناك فرصة لعودة الحياة بين الزوجين.

هذا الأمل الثانى، مازال له وجود فى شرع الله - تعالى - وهو من التيسير على كلا الزوجين، ومن رحمة الله بهما، فإنَّ الإنسان فى بعض المواقف والظروف يعمل عملاً، ثم يندم عليه، فإن لم تكن أمامه فرصة لإصلاح ما أفسد، ولجمع ما فرّق، ولتدارك ما ضيع صعب الأمر عليه، وشق على نفسه، ودين الله الإسلام يسر لا عسر، وكان الأمل الأول ألاّ يقع الطلاق أصلاً، وذلك بالتريث والتفكير فى فترة انتظار الحيض والطهر منه، حتى يكون الطلاق مسنونًا شرعيًا، ففى فترة الترقب تفكير، وأمل ألا يقع الطلاق، وبعد وقوعه يكون الأمل الثانى، وهو العودة والرجعة، إلى هذا الحد يكون الإسلام حريصًا على البيت المسلم، ولمِّ شمله، لاستقرار النفس بالزواج، ولدوام المعاشرة بين حليلين اجتمعا على كلمة الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.

وبالتأمل فى قوله - عز وعلا -: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾[1] يتبين لنا أنَّ فى الطلاق عبادة، كما أن فى الزواج عبادة، والعبادة فى الزواج تكون بإقامة حدود الله من الإنفاق، والسكنى، والكسوة، وحسن المعاشرة، لتتحقق مقاصد الزواج من المودة والرحمة، والعبادة فى الطلاق إنما تكون أول ما تكون فى عدم

(١) الطلاق: ١.

الإسراع في إيقاعه، وأنه إذا تم وجبت مراعاة حدود الله فيه، بالإبقاء على المطلقة في بيتها، والنظر في رجوعها إذا كان الطلاق رجعيًا بأن كان أول مرة، أو كان للمرة الثانية؛ لقول الله - تعالى -: ﴿**الطلاق مرتان**﴾، والتطلع إلى العودة تطلع إلى قدر الله القادم بها؛ لقوله سبحانه -: ﴿**لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا**﴾[1] وتطلع إلى فرج الله عز وعلا - : لقوله سبحانه: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**﴾[2].

لقد تفنن الناس في إفساد الزواج والطلاق على سواء، فرأينا زواجًا شكليًا صوريًا، لا دفء فيه ولا مودة ولا رحمة، ورأينا من يعزم على الطلاق ويضر بالمرأة حتى يسقط حقوقها، ورأينا نية مبيتة على الإمساك على كره، بتعسير أمر الزواج، وكتابة أوراق و(شيكات) لضمان استمرار الحياة الزوجية، إن قلت لولي المرأة لماذا تحرص على قائمة المنقولات وكتابة مؤخر صداق، وكتابة كذا وكذا قال لك: حتى يحافظ عليها وكأنه يريد أن يقيد الزوج بسلاسل من حديد حتى لا يطلق، أما سمع قوله ﷺ : «**تزوج بخاتم من حديد**» وأنه زوج رجلاً بما يحفظ من القرآن، وفيه قال الفقهاء لأنه سيحفظها ما يحفظ فتتحقق لها المنفعة التي تتحقق لها بالمال، وأنه إذا وسع الله عليه أعطاها شيئًا من المال صداقًا لها، وكذلك يكون استمرار الحياة مع الحب والاقتناع أعلى وأبهى من استمرارها على خوف من القضاء والشكايات وغير ذلك من وسائل الإكراه، إننا نريد المسلمين أن يعودوا إلى دينهم، وأن يعلموا بناتهم أصول الدين، بحيث إذا ما صرن زوجات تعلقت بهن قلوب الرجال الأزواج، فأحبوهن لذواتهن، ورجوا دوام المعاشرة لطيبهن وصلاحهن، فلو فرض وعرضت الدنيا بما فيها على زوج يحب زوجته نظير أن يطلقها لآثر زوجته على الدنيا بما فيها لما فيها من صفات تضيف إلى حياته معنى الحياة، وتحقق له السكن، وتأسره بالمودة وتغطيه بالرحمة، وتصحبه على منهج الله عز وعلا، وتكون عونًا له على أداء دوره في الحياة.

---

(١) الطلاق: ١.
(٢) الطلاق: ٢.

وأفسد الناس عبادتهم فى الطلاق، فأصبح من اليسير أن يتلفظ به الناس، وهذا ليس فى زماننا، وإنما له فى الأوائل نظائر، فقد قال رجل لعمر بن الخطاب: لقد طلقت امرأتى ألف مرة، فقال له عمر: يكفيها من الألف ثلاث، وفرق بينهما ألبتة، ومعروف أن عمر بن الخطاب قد أوقع الثلاثة فى المجلس الواحد ثلاثة حتى يؤدب هؤلاء الذين يقولون: «أنت طالق بالثلاثة». وأفسد الناس الطلاق بإيقاعه لأسباب خارجية، لا صلة لها بالحياة الزوجية، فالذين يحلفون بالطلاق فى الأسواق، والذين يوقعون الطلاق من أجل غضب صديق، أحس بأنه لم يكرم فى منزل صديقه المتزوج، والذين يوقعون الطلاق بسبب كلمة لا تقدم ولا تؤخر، والذين يوقعونه بسبب وهم وظن وريب، كل أولئك متلاعبون بحدود الله - عز وعلا - مفسدون عبادة، مخربون بيوتهم بأيديهم فضلاً عن تفاهات الأمور، يحكى أن رجلاً طلق امرأته لأنها قطعت ليمونة بالطول لا بالعرض، فقال لها: هل توجد امرأة فى الدنيا، تقطع الليمونة بهذا الشكل؟ أنت طالق بالثلاثة.

والخطاب فى سورة الطلاق للنبى ﷺ ولأمته جميعًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾[1]. وإنما كان الخطاب للجماعة كلها ليشعر بعدم الاستثناء، فالأحكام عامة للأمة كلها، وفيه أيضًا مسئولية المجتمع عن إحداث الطلاق. فقد يتسبب أحد فيه بسعيه فى الإفساد بين الزوجين غيرة وحسدًا وحقدًا، أو مرضًا فى النفوس التى تكره الجمال وتحب القبح، تكره الاجتماع وتحب التفرق، تؤثر الدموع وتنبذ الشموع، تفرح فى المصائب، وتحزن فى المسرات، البخيل فى بيته يكون كريمًا مع زوجة جاره حتى تكره زوجها، والمهملة فى بيتها تكون نظيفة فى بيت جارتها حتى يكرهها زوجها، وهكذا يسعى الناس فى الفساد، ويحسبون ذلك هينًا وهو عند الله عظيم.

(١) الطلاق: ١.

حديث القرآن الكريم عن المطلقات

- ٣ -

الزوج أحق بردها بشرط

وقد يقع الطلاق ويتفرق الزوجان، ولا تعلم الزوجة أنها حامل، ولا يعلم الزوج بحملها، وعلى المطلقة ألاَّ تكتم حملها، قال الله - تعالى -: **﴿وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا﴾**(١) .

لقد طلقت شابة، وفى أول شهر من أشهر العدة شعرت بما تشعر به الحوامل، فأخبرت صاحبة لها، فقالت احمدى الله

- على أنى حامل؟

- لا، على أنك أخبرتنى بذلك.

- هيه

- أعرف طبيبًا ممتازًا، تدركين الأمر قبل فوات الأوان.

- ماذا تقصدين؟

- تنظيف، كحت، عشان نتجوز تانى من غير وجع قلب

- أهذا رأيك؟

- لا ترددى، كل الموضوع نصف الساعة، ولو أردت أن تتزوجى على أنك بنت بنوت ولا يهمك.

---

(١) البقرة: ٢٢٨.

إزاى؟

- اللى ح يخلصنا من الريحة غير الطيبة يرجعنا تانى.

أهذا تقدم العلم!، العلم الذى صعد به أعداؤنا إلى الآفاق نتخذه نحن وسيلة للبعد عن حدود الله - عز وعلا - .

كثيرات يفعلن هذا، ولهن حجتهن المجردة تمامًا عن الدين، لقد انخرط الناس فى الدنيا انخراطًا كبيرًا، نظروا إلى الحمل على أنه إعاقة وتقليل من فرص الزواج الثانى، إن قول الحق - تعالى -: **﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن﴾** وما لا يحل يحرم، فما بالنا بالإجهاض، وقتل الأولاد من أجل أن تتزوج كما يقلن «نظيفة»، أية نظافة تلك التى يتحدث عنها الناس، وهى ملوثة بدماء القتل، قتل ما خلق الله - تعالى - فى أرحامهن، إنَّ شابًا فلاحًا كان قد طلق زوجته الشابة إثر خلاف حدث بينها وبين والديه، فآثر بر الوالدين، وطلقها، وقابلته إحدى جاراتها، وهمست فى أذنيه قائلة:

- البنت حامل.

تسمرت خطاه، ودمعت عيناه، وعاد إلى أبيه وأمه، وقال ناشدتكما بالله، اسمحا لى آن أراجعها، فإن فى بطنها دمى وروحى، الذى سيقول لك يا أبى: يا جدى، ويقول لك يا أمى: يا جدتى، إننى لو رأيته معذبًا عند أبيها فسوف أفقد عقلى وقلبى، وأهيم على وجهى، ولن أدرى يمينى من شمالى، وسوف أواجه ما لا طاقة لى به، ومنعًا للنزاع بينكما سوف أستأجر لها دارًا بعيدة من أجل ولدى وأظل تحت أقدامكما، فرق قلب أبيه، وبكت أمه، وقالا: افعل ما ترى فقبل أياديهما، وجرى إليها، وراجعها، وكان الولد سببًا فى استئناف حياة وعودة مياه، واستقرار نفوس وبر والدين.

إنَّ التى تعتبر ما فى بطنها قيدًا لها، وتقليلاً من فرص زواجها لم تطلع على الغيب، وربما كان ما فى بطنها إن كانت مطلقة أو متزوجة وعندها عدد لا بأس به فى نظرها، واكتفت بهذا العدد، وأرادات التخلص منه.. ربما كان هذا القادم أرحم

الناس بها، وربما كان سببًا فى دخولها جنة ربها، بأن تصبر عليه، وعلى تربيته حتى يكون عالمًا نافعًا يدعو لها بعد رحيلها «أو ولد صالح يدعو لها» وربما قسا الكبار الذين ظنتهم كفاية وما رحمها غير هذا القادم الصغير، وبعض النساء يتخذن من التقدم العلمى وسيلة وحجة ودليلاً على التخلص، تقول الواحدة منهن: إن العلم أثبت أنه سيولد معوقًا، فلماذا آتى به لكى يتعذب فى هذه الحياة الدنيا، أتخلص منه رحمة به.

وتلك رحمة كاذبة، ووهم خطير، وغرور لا يليق بمسلمة أن تفعله، فهى لا ترحم نفسها فضلاً عن رحمتها به، ثم إن الله - عز وجل - يخلق ما يشاء ويختار، وقد تصدق كلمة العلم، ويكون الولد معوقًا ذا عاهة ومع ذلك يصير عالمًا كبيرًا، فقد كان الزمخشرى برجل واحدة، وكان ابن جنى بعين واحدة، وكان طه حسين بلا عينين، وغيرهم، وغيرهم، وربما نشأ المعوق على خلاف هؤلاء، ويكون الصبر عليه وتحمله عملاً طيبًا بما يتطلبه من صبر وبذل، أفترفض المسلمة خيرًا كثيرًا قادمًا إليها، كالتى أصابها هوس الاستنساخ وتريد ولدًا أزرق العينين أحمر الشعر يشبه الممثل الفلانى الذى حصل فيلمه على «أوسكار» وحصل على أربع ميداليات وأربعين جائزة «أحسن ممثل». هذا هوس مدمر لكيان المرأة والرجل على سواء.

ثم يقول الحق - جل وعلا -: **﴿وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك﴾** أى إن ظهر الحمل كان الزوج فى ذلك أحق بردها إلى عصمته من أجل هذا الوليد القادم، ذكرًا كان أو أنثى، ولكن الإسلام وضع شرطًا لهذا الرد، وهذا الشرط مستفاد من قوله - عز وعلا: **﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾** أى أنه أولى بردها بشرط الإصلاح، لا يردها من أجل ولده ويضرها، فالله - عز وعلا - يقول: **﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾**[(1)] والقاعدة الشرعية: لا ضرر ولا ضرار، وقد قال الله - تعالى -: **﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾**[(2)] ومعنى ذلك أن إرادة الإصلاح ممكنة وجائزة ومتوقعة ومحتملة ودليل ذلك قوله - عز من قائل -: **﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾** وهذا الشرط، يجعل الناس على بصيرة من أمرهم حين يقعون فى طريق الطلاق، فكلما كان الناس بعيدين عن الفحش كانوا أقرب إلى الإسلام، إننا نلاحظ بعض الناس عند الخصام

(1) البقرة: ٢٣١.

(٢) البقرة: ٢٣٣.

يفحشون فحشًا عظيمًا، كمن يقول: «لا أكلم فلانًا الدهر» و«لا أردها إلى عصمتي إلى يوم القيامة»، ومن خصال المنافق أنه إذا خاصم فجر، فالفجور في الخصام آية من آيات النفاق، والمسلم أبعد ما يكون عن النفاق، ماذا على الناس لو كانوا نبلاء في خصامهم كما يكونون نبلاء في ودهم وقربهم، لأنهم يحفظون قول ربنا - تعالى -: ﴿لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾[1]، ومن الحكمة القديمة: «إذا خرجت فاترك الباب مواربًا فقد تعود».

أمَّا الذين يأخذون على أنفسهم العهود والمواثيق بأن القطيعة دائمة، وأن الصلح مستحيل فهم ظالمون لأنفسهم، عون لشياطينهم الذين يذكرونهم بتلك العهود السالفة حتى تأخذهم العزة بالإثم والمعصية، ويحدث التمادي في الخصام.

وعلى المؤمنين والمؤمنات الذين وصفهم ربهم عز وعلا - بقوله - سبحانه -: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[2] أن يكونوا عونًا للزوجين على الإصلاح، فقد قال الله - تبارك اسمه -: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[3] .

وإذا كان الصلح بين الناس عبادة من العبادات المنسية في زماننا فإنه بين الزوجين أولى، لما يترتب عليه من لم شمل الأسرة، والتئام جراحها بالفراق، وما يترتب عليه من آلام، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾[4] .

ومن التواصي بالحق أن يوصي المسلم أخاه المسلم بزوجه وولده خيرًا.

---

(١) الطلاق: ١ . (٢) التوبة: ٧١.

(٣) النساء: ١١٤. (٤) العصر.

حديث القرآن الكريم عن المطلقات

- ٤ -

الحامل والمرضع

قد يقع الطلاق وفى رحم المطلقة ما خلق الله - تعالى -، فتمضى حاملاً تنتظر وضع مخلوق جديد، لا صلة له بما حدث، ولا يعرف ماذا حدث، ولا يدرك حكم شيء، ينمو داخلها، وينتظر أجل الحمل، وهى فى كره قال الله - تعالى -: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[1] فيولد كارهًا للحياة أو محبًا لها والشرع الحنيف فى سورة الطلاق قرآن يتلى، يقول الحق - تعالى -: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[2].

والعلاقة فيما أرى بين كره المولود للحياة أو حبه لها وبين التزام الناس حدود الله - تعالى - فى الزواج والطلاق علاقة قوية جدًا، وقد غاب على كثير من الباحثين فى علم الاجتماع والمتحدثين تبيان ذلك، فإنَّ الناس إذا التزموا شرع الله - تعالى - فكانت حياتهم بالمعروف، وكان طلاقهم بالمعروف أثر ذلك فى حياة الأبناء.

لكنَّ الذين يتحدثون عن الأبناء الذين انحرفوا عن المسار الصحيح فى الحياة حال طلاق والديهم يقولون إنَّ هذا بسبب الطلاق، إلى درجة أن بعضهم يطلق عليهم أبناء الطلاق، والطلاق ليس له أبناء، والطلاق ليس سببًا فى انحراف الأبناء، وإنما السبب هو نسيان الفضيلة بين المطلقين، الحرب التى تنشأ بسببه، المعركة الشرسة التى تكون بين فئتين من الناس، المطلق وأربابه والمطلقة وأحبابها، جبهة تقاتل جبهة، فالأبناء أبناء الحرب الاجتماعية التى هى أعنف من الحرب العالمية الأولى والثانية، وأشد خطرً

(١) الأحقاف: ١٥. (٢) الطلاق: ٦

من حروب الجاهلية، فالأبناء الذين لم يشهدوا الحروب العالمية يطالعون الصحف والكتب، ويعرفون الكثير عنها وهم جالسون تحت التكييف وأمامهم أكواب اللبن والشاى، يمدون أرجلهم ويضحكون ويقولون «يا خبر.. كل هذا حدث» ومثل ذلك يحدث عندما يطالعون فى كتب الأدب ويعرفون أيام العرب، ويتخيلون أناسًا أشعلوا نار الحرب بسبب سباق الخيل، أو بسبب لقمة التهمتها ناقة من كلأ فلان فقتلها، فصرخت صاحبتها واستجارت بمن دخلت فى حمايته فهب وأثبت رجولته بأن قتل الذى قتل ناقتها، وربما قالوا: الحمد لله على نعمة الإسلام، الذى أشرق بنوره على الأرض فملأها خيرًا وسلامًا، ونبذ الحرب، وحث على السلام، ودعا إلى حسن الجوار، وجعل كل الخلق فى حماية رب العالمين، وأنشأ ولاية عامة بين المسلمين فكل مسلم ولى أخيه، وكل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه.

لكن هؤلاء الأبناء الذين يولدون على فراق تنوسيت فيه تعاليم الدين، يشربون لبن الكراهية، ويتجرعون سموم البغضاء، ويجدون أنفسهم لعبة يلعب بها الطرفان المتقاتلان، فالمطلقة تشكو باسمهم، وتطلب باسمهم، وتزوّر باسمهم، وتسيىء إلى سمعة أبيهم باسمهم، وأبوهم يطلبهم عن طريق المحكمة، وإذا زاروه ذم فى أمهم، وصب اللعنات عليها ولا يدرى أنه يصب اللعنات عليهم، ويحرق قلوبهم، ويحطم معنوياتهم، وهم يشهدون حربًا فرضت عليهم، ولا ذنب لهم فيها، اتخذ كل من الأب والأم أبناءه قاعدة عسكرية لجند بغيه وأسلحة دماره، فترى الأبناء يتشردون هروبًا من هذه المأساة، ويفرون إلى مأساة ألعن وأعتى، ومن الأبناء مَنْ يجيد اللعبة، فيوهم كلاً منهما أنه معه، وأنه يحبه أكثر حتى يقبض بسبب ذلك الكثير، وقد أدى ذلك إلى انحراف أكبر، حيث إن ما قبضوه فى المفاسد صرفوه، ونشأت أجيال مبغضة للزواج، عازفة عنه، لأنها ذاقت منه الويل حين رأت نفسها ضحية انفراط عقده، وانتهاء رحلته، فشلوا فى تحصيل العلم النافع، وحفظوا كل مواد قانون الأحوال الشخصية.

فإذا التزم الناس بحدود رب العالمين، ومنها مراعاة المطلقة الحامل من حيث إسكانها من حيث سكن مطلقها، والإنفاق عليها حتى تلد، وإعطائها أجرة الرضاعة، لأنها ترضع ولده، وهو بعضه، وإعطاؤها أجرة حضانته، وإكرامها، فما عسى أن

يكون الأبناء، الذين ولدوا فى بحر الكرم والفضيلة إلاّ أسوياء أنقياء، ما فى صدورهم غل، ولا حقد، ولا سواد، فهم لا ينقصهم شيء، لا يسمعون أذى، ولا يعيشون ضنكًا، ولا يستقبلون محضراً ولا يتسلمون إعلانًا بقضية، ولا يجدون بأسًا، كل ما فقدوه أن يروا أباهم وأمهم فى حجرة واحدة مغلقة، لكنهم يجدون أبًا بارًا رحيمًا، وأمًا راضية مهذبة، ولقمة فى أفواههم وشرابًا، وعافية فى أبدانهم، وصحة فى نفوسهم، فتستقيم حياتهم.

ولو أنَّ باحثًا مدققًا نظر طويلاً فى الأبناء المشردين لوجد نسبة عالية منهم آباؤهم يعيشون مع أمهاتهم فى حجرة واحدة، ولكن البعد الذى بينهم كالبعد بين المشرق والمغرب، اسمهم متزوجون، وحالهم متنافرون متفرقون، فليس الطلاق سببًا فى تشرد الأبناء إلاّ إذا كان المطلقون والمطلقات عابثين بحدود الله - عز وعلا.

وقد يسأل سائل فيقول: كيف يؤتى الرجل مطلقته أجر رضاعتها ولدها، أليس ولدها كما أنه ولده؟ والجواب أن الولد لأبيه، وقد قال الله - تعالى - ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[1] فالمولود له الأب أو ولى المولود إن كان أبوه ميتًا، ولذلك نجد فى كتبنا ومصادرنا فى تراجم النساء «وكانت تزوجت بفلان وولدت له فلانًا وفلانًا وفلانة».

وبعض النساء يركبهن الشيطان فيقلن لأزواجهن: طلقنا وعلينا أن نربى أبناءنا أحسن تربية.

قال الزوج لزوجته: اتقى الله، وعيشى بالمعروف حتى نتمكن من تربية الولد؛ فصرخت فى وجهه قائلة:

- عند أبى سيتربى أحسن وأفضل، لا تحمل همه، يكفيه أنه سيكون بعيداً عنك.

- لن يكون ذلك طبيعيًا، الأصل أن يتربى الولد بيننا، أنا أبوه وأنت أمه

- هذا إذا كان له أب.

(١) البقرة: ٢٣٣.

- وما عسى أن أكون، هل أنا مت؟

- يا ريتك كنت ميت.

- طب روحى وأنت طالق بالتلاتة.

وذهبت إلى بيت أبيها، وأتت كل واحدة من أخواتها لولدها بهدية، كفكفت دموعها، ونظرت إلى صغيرها وقالت:

- شوف خالاتك أحن من أبيك مليون مرة إزاى!

ونضب المعين، وشغلت كل واحدة منهن بحياتها وزوجها وأولادها وندمت حيث رأت الواقع مرًا، والطبيعة التى فرضت نفسها وافقت كلام الذى تمنت موته فطلقها، وحين أرسلت إليه أن تعال، لترى ولدك قال لها: ألم تقولى له إنه قد مات أبوه، إن الموتى لايحضرون لزيارة أحد، وإنما يزورهم الناس، فلم تزره، ولم ترسل إليه ولده، وكان ما كان من مأساة. إن مئات بل عشرات الألوف من النساء يشكون قائلات: لقد تركنى أولادى دون نفقة، ومن أجل ذلك عملت وشقيت، أو من أجل ذلك انحرفت لكى أنفق على الأولاد.

عبادة مهملة، وفى إهمالها ضياع الناس وحقوقهم، وقد تكون التى تشكو تلك الشكوى من اللاتى قلن عند الفراق أو عند الاتفاق: أنا أربيهم أحسن منك، وأعطيهم عينى وقلبى وروحى، غرها حبها، وغرها كبرياؤها، وإحساسها بأنها فى غنى عنه وعن ماله ومن النساء مَنْ ترى عتاب الزوج ذلاً لأنه ينفق عليها، ومن الرجال من يفعل ذلك، ومنهم البرىء الذى لم يقصد مذلة، وإنما يطلب الرحمة به، وتوفير جو هادئ له إثر تعبه ومعاناته؛ لأنه عائد من عمل مضن وتعب شديد، وفى يديه الخير لها ولأولادها، فتصرخ قائلة:

- أتريد إذلالنا؛ لأن المال مالك، لا نريد منك شيئًا.

وما ذلك إلا لجرح فى النفس، وشرخ فى التربية الصحيحة، منذ الصغر، مشكلات معقدة؛ لأنها مركبة من هنا ومن هناك ومن هنالك.

حديث القرآن الكريم عن المطلقات

- ٥ -

المطلقة للمرة الثالثة

أجاز الإسلام لمن طلق زوجته أن يراجعها، وأن يستأنفا حياتهما من جديد مرة ومرتين، وبيَّن ربنا - تعالى - أن الطلاق مرتان فلما أعطى الإسلام هذه الفرصة للزوج الذى يملك الطلاق، بأن جعله يراجعها، مرتين، شدّد عليه فى الثالثة، فقال عز وعلا - **﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾**[1].

أى: إذا طلقها للمرة الثالثة فلا رجعة له، حتى تنكح زوجًا غيره، فإن طلقها غيره هذا أو مات عنها وقضت عدتها جاز للأول أن يتزوجها وتعود إليه كأنها أول مرة يتزوجها فيها، أى أنه إن طلقها كانت الطلقة الأولى، وليست الرابعة، وهذا التشديد هدفه ردع الزوج وتأديبه كما قال العلماء.

وقد شاع بين الناس فى هذه الطلقة الثالثة زواج المحلل، الذى لعنه رسول الله ﷺ ولعن المحلل له الذى يأتى به تيسًا مستعارًا لليلة أو بعض ليلة، يتفقون معه أن يكتب (يعقد) عليها، وأن يطلقها بعد ذلك لكى تصبح حلالاً للأول، ومن الناس مَنْ يفهم هذه الطريقة فهمًا سطحيًا فيرى أن المحلل إذا عقد على المطلقة ثلاثًا وطلقها دون أن يعاشرها صارت حلالاً للأول، وهذا باطل، لأنهم ينظرون إلى أحكام الشرع كما ينظرون إلى القوانين الوضعية، يبحثون فيها عن ثغرة من الثغرات ينفذون منها، ليصححوا مواد القانون بطريقة شكلية، وما هكذا يكون شرع الله - تعالى -.

---

(١) البقرة: ٢٣٠.

وشرح المسألة أنَّ الرجل إذا طلَّق امْرَأَتَهُ للمرة الثالثة فقد بانت منه بينونة كبرى، وأصبحت حرامًا عليه، فإن تزوجها شخص آخر، راغبًا فيها غير ناظر إلى زوجها الأول، يريد استمرار الحياة الزوجية بينهما، فدخل بها، وقضى منها وطرًا، ثم طلقها لأى سبب من الأسباب التى ليس منها أن تعود إلى زوجها الأول، وقضت عدتها من هذا الزوج الثانى جاز للأول أن يراجعها، بشرط أن يتقيا الله فيما بينهما، وألا يتخذا آيات الله هزوًا، كذلك إنْ مات عنها ذلك الثانى، وقضت أربعة أشهر وعشرًا جاز للأول أن يراجعها، ومثال ذلك تزوج خالد بسمية، وحدث أنه طلقها ثلاث مرات، فى مجالس مختلفة، راجعها ثم طلقها ثم راجعها ثم طلقها، فلما قضت عدتها جاء إسماعيل من الخارج وطلب إلى أخته أن تختار معه امرأة صالحة، فقالت أخته إنّ سمية خير مَنْ تصلح لك، فقال على بركة الله، وتزوجها، إسماعيل، وبعد عام من زواجه طلقها، ثم سافر إلى خارج البلاد، فلما قضت عدتها منه أحس خالد أنه فى حاجة إلى العودة إليها، عندئذ تحل له.

وفى زمن غير بعيد جاء الناس بالمحلل على شرطهم وهو أن يطلقها بعد ليلة واحدة، فلمَّا كان أحد أقارب المطلقة فلانًا من علماء الأزهر القدامى، ونصح لها بأنَّ هذا الزواج حرام شرعًا إلاَّ إذا كانت النية استمرار الحياة، وأنه لابد أن يدخل بها دخولاً شرعيًا حقيقيًا غير وهمى، ودخل الزوج الذى ظنوه محللاً بها، فلما أصبحا قالت له: لقد علمت ما قاله الشيخ، ودخلت على شرطه، وهو ديمومة الحياة بيننا فاحذر أن تطلقنى، فإنى بك راضية، وقد كان.

وجاء مَنْ طلقها ثلاثًا وكان من الأعيان الكبار على أمل أن يطلقها له ذلك الرجل البسيط فأبى، وقال له:

- هيًا.

- إلى أين؟

- إلى طلاقها.

- هل شربت الشاى؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنك ضيف ثقيل.

وهم ليضربه لكن الناس تدخلوا، وقالوا: معه حق فالرجل مع امرأته حلاله وأنت أجنبى، فمات فيها. تلكم الأمثلة التى تكشف عن بيان حدود الله تعالى.

ومن الناس مَنْ يرى أنه من الجائز أن ينوى رجل أن يحللها لمن طلقها ثلاثًا دون اتفاق معه، فهدفه عودة الحياة بينهما من أجل الأولاد، فزواجه عند هؤلاء صحيح؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ ولفظ النكاح عام، وحصوله صحيح، وليس فيه شرط من الشروط، وعلى هذا الأساس جوّزوا أخذًا بظاهر النص، وهو قول ربنا -: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾.

غاية ما هنالك أنه لابد أن يحدث هذا الزواج بطريقة عادية طبيعية بلا اتفاق، أو تدليس.

وقد تلاعب الناس فى ذلك تلاعبًا خطيرًا بهذا الاتفاق، وأن مجرد العقد يكفى لتحليل المطلقة ثلاثًا، وهو مما لا يجوز، وبعض النساء اللاتى طلقن ثلاثًا يأبين أن يتزوجن بعد ذلك وهذا من حقهن، لكن بعضهن يأبين الزواج الجديد ويرغبن فى العودة إلى الأول وهو مما لا يصح، وبعضهن يرغبن فى الزواج الجديد من أجل العودة إلى الأول، ويمتنعن من تمكين الجديد منهن، حدث ذلك أيام رسول الله ﷺ؛ حيث طلقت امرأة رفاعة القرظى ثلاثًا، وجاءت إلى رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله، إنّ رفاعة طلقنى، فبتّ طلاقى، وإنى نكحت بعده عبدالرحمن بن الزبير القرظى وإنّ ما معه مثل الهُدْبَة، (أى ضعيف جنسيًا، عضوه مثل هدبة الثوب لا ينتصب) فقال رسول الله ﷺ لعلك تريدين أن ترجعى إلى رفاعة، لا، حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك».

وقد روى البخارى هذا الحديث بتمام له فى موضع آخر، وجاء فيه أن عبدالرحمن بن الزبير القرظى جاء إلى النبى ﷺ ومعه بعض أولاده من غيرها،

وسأله النبي ﷺ قائلاً: أهذا ولدك؟ قال نعم، فقال لها: اتقي الله، فإن ولده يشبهه كما يشبه ولد الغراب الغراب، فقال عبدالرحمن للنبي ﷺ إنه لا عيب فيه، وأنه ليس كما قالت فيه وإنما هي تريد الرجوع إلى رفاعة، فبيّن لها النبي ﷺ حدود الله - تعالى - وبيّن لها شرعه بقوله: «حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك» أي: لابد أن يدخل بك.

ومعنى هذا أنها كانت لا تمكن عبدالرحمن من نفسها، وأنه لم يكن به ضعف جنسي كما ادعت، وأنها كانت راغبة في زوجها الأول.

ومن هذه الرواية التامة نرى أن من حق المرأة علينا أن نبين أنَّ ما ادعاه الناس من أنها صاحبة شهوة ومزاج وأنها لو تزوجت بآخر بعد طلاقها من الأول، وكان الثاني قويًا من الناحية الجنسية رغبت فيه، وتعلقت به، فهذا غير صحيح، لأن عبدالرحمن ابن الزبير القرظي كان كما قال للنبي ﷺ ينفضها نفضًا، لكنها غير راغبة من الناحية الوجدانية والعاطفية.

وكذلك يستفاد من الحديث الشريف أنه مهما بلغ الحب وبلغت الرغبة فلابد من مراعاة حدود الله - تعالى - والالتزام بها، أي لابد من الدخول بها رغبت في ذلك أم لم ترغب، أحبت ذلك أم كرهت. وفي النسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما - قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يطلق امرأته ثلاثًا فيتزوجها الرجل، فيغلق الباب، ويرخي الستر، ثم يطلقها قبل أن يدخل بها؟ قال: لا تحل للأول حتى يجامعها الآخر».

إن وضع هذه النصوص أمام أعين الذين يطلقون أكثر من مرة كفيل بأن يجعلهم يفكرون ألف مرة قبل وقوع الطلقة الثالثة.

حديث القرآن الكريم عن المطلقات

- ٦ -

الخلع

مما يدل على ضعف الثقافة الدينية عندنا أنه حين ظهر قانون الخلع ثار الناس واضطربوا، وظنوا أن ذلك من علامات الساعة، كيف تختلع امرأة نفسها من زوجها، تطلقه؟! لا إله إلا الله!!!

مع أن الخلع في الكتاب والسنة، قال الله - عز وعلا -: **﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**[1] .

وإنِّي كلما نظرت في قول الله - عز وعلا -: **﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾** شعرت بشكل الحياة بين زوجين تريد الزوجة أن تفتدى نفسها بإعطاء زوجها ما أعطاها لكى تصبح حرة، طليقة، وربما تخيل معى كثير من الناس أنّ حياتها منغصة بسبب فساد خلقه، وسوء معاملته، وقسوته، وبخله، فهذا لم يرد على خاطرى؛ لأن الزوج إذا كان كذلك ما خلعت المرأة نفسها منه، وإنما تطلب الطلاق، وتنال منه جميع حقوقها، أين الحكمان من أهله وأهلها اللذان ينظران، إن رأيا أن الحياة ممكنة مع النصح والتهذيب، والحكم بما يرضى الله - عز وعلا - فلهما ذلك، وإن رأيا أن الفراق هو الحل فرقا بينهما، هكذا قال على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - للحكمين: عليكما إن رأيتما أن تفرقا فرقتما، وإن رأيتما أن تجمعا جمعتما.

---

(١) البقرة: ٢٢٩.

وقد بعث عثمان بن عفان عبدالله بن عباس ومعاوية حكمين بين عقيل بن أبى طالب وامرأته فاطمة بنت عتبة بن ربيعة، وقال لهما: إن رأيتما أن تفرقا فرقتما.

إنما يكون الخلع لكره وقع فى نفس الزوجة على الرغم من صلاح زوجها، وسلامة دينه وحسن خلقه، فهى لا تطيق البقاء معه برغم ذلك، ففى صحيح البخارى عن ابن عباس أنّ امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعيب عليه فى خلق ولا دين، ولكنى أكره الكفر فى الإسلام، فقال رسول الله ﷺ «تردين عليه حديقته»؟ قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ «اقبل الحديقة وطلقها تطليقة».

وهذا دليل الخلع من السنة.

وفى سنن الدارقطنى فى هذه القصة، فقال النبى ﷺ أتردين عليه حديقته التى أعطاك؟ قالت: نعم وزيادة؟ فقال النبى ﷺ أمَّا الزيادة فلا، ولكن حديقته، قالت: نعم فأخذ ماله، وخلَّى سبيلها، فلما بلغ ذلك ثابت بن قيس قال: قد قبلت قضاء رسول الله ﷺ .

والعلماء مختلفون فى قبول الزوج الزيادة، فظاهر القرآن الجواز، حيث قال تعالى: ﴿فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ أى بأى شيء، ووردت بعض الآثار الدالة على قبول الزيادة، ومنها أن الرُبيِّع بنت معوذ بن عفراء اختلعت من زوجها بكل شيء، تملكه، فخوصم فى ذلك إلى عثمان بن عفان فأجازه، وأمره أن يأخذ عقاص رأسها فما دونه، ورفعت إلى عمر بن الخطاب امرأة نشزت عن زوجها فقال: اخلعها ولو من قرطها (حلقها)، وأنَّ مولاة كانت لامرأة ابن عمر - اختلعت من كل شيء لها، وكل ثوب لها حتى نقبتها (ما تنتقب به).

والذين قالوا: لا يقبل منها الزيادة استدلوا بقوله ﷺ أما الزيادة فلا، وأنه لو قبل منها الزيادة على ما أعطاه ما كان مسرحًا بإحسان، فالإحسان أن يأخذ ما أعطاها. إن إجازة الإسلام الحنيف لخلع المرأة نفسها من زوجها، يذكرنى كذلك بقولهم قديمًا: «الزواج نوع من الرِّق» وما قال الناس ذلك إلا تمهيداً لعبارة أخرى بعد تلك العبارة

هى: «فلينظر أحدكم عند مَنْ يرق ابنته» أى أنَّ الزوجة تكون عند زوجها كما قال النبى ﷺ: «فإنهن عوان عندكم» أى اتقوا الله فى النساء؛ فإنهن أسيرات عندكم، تلك الأسيرة إن أحبت كان الأسر عندها أفضل من الحرية، وعندها تقول بملء فيها: ما أطيب العبودية! صحيح أن جميع الخلق عباد الله وعبيده، لكنها المرأة المحبة، وكما أن الخلع باب من أبواب اليسر فى الإسلام كذلك كان رد ما دفع الزوج إليه نوعًا من أنواع اليسر؛ لأنه - كما قلت - لا ذنب له، لم يكن سيئ الخلق ، ولم يكن قاسيًا بخيلاً، فمن الترفق بحاله وهو المكروه، المرغوب عنه - أن يرد إليه ماله الذى أنفقه من أجل الزواج، واستمراره، ولما كان قطع هذا الاستمرار لم يحدث منه، وإنما حدث منها حسن أن يأخذ حقه.

وموضوع الخلع موضوع الحديث عن النفس البشرية وأسرارها، فإنَّ الكراهية لشخص دون سبب منه يوجب تلك الكراهية أمرٌ مرده إلى مَنْ بيده أمر القلوب وأمر كل شىء، فكم من خلع حدث، وتزوج من بعدها من أحبته الحب الكبير، الذى يعجز عن تصويره بيان البلغاء، وإبداع الشعراء، وتزوجت هى من بعده مَنْ أحبته حبًا جمًا، أو تفرغت لرعاية مريض أو تربية ولد، إن المتتبع لأحداث الواقع، المتأمل فيها يجد عجبًا شديدًا، ربما يوقفه تأمله على استقراء حكمة الله عز وعلا - وعندئذ لا يملك إلاَّ أن يقول: سبحان الله العلى العظيم، الذى جعل لكل أمر حكمة، فهو ربنا الحكيم، الذى أحكم كل شىء، ومن نظر إلى الأمور نظرة سطحية عاجلة دون تأمل وروية فقد ظلم نفسه، ولن تغير نظرته وما ترتب عليها من أمر الله شيئًا، وكذلك النظر إلى العكس، إلى الحب الذى يكون بلا سبب، وربما نشأ فى قلب تلك التى نراها افتدت نفسها من زوجها، وعندئذ يتعجب الناس كانت فتاة طيبة مثقفة، تخرجت فى الجامعة، وتزوجت شابًا متدينًا عاملاً مجتهدًا، وكان الأهل سعداء لتلك الزيجة، أحبوا هذا الشاب حبًا شديدًا ، وقالوا إنه من فضل الله عليهم، وحسدتها جاراتها، وبعد مدة قصيرة من الزواج علاها الهم، وخرجت منها أنفاس الغم والحزن، وشكت أمها لجميع الناس، وقصدت الدجالين، ومن يفتحون كتاب النصب والاحتيال، فهى لا ترى سببًا موجبًا لكره ابنتها، وفى آخر الأمر طلقت من هذا الشاب، وأصر أهلها

على أن يتركوا كل شيء له، لم يكونوا فى ذلك يريدون وجه الله، وإقامة حدوده، وإنما قصدوا تهديدها، قالوا لها: إنك أنت الكارهة، ولن تأخذى منه شيئًا،

- إلى هذا الحد؟
- نعم.
- لماذا؟
- بلا سبب.
- يا بنتى حرام عليك.
- غصب عنى.
- الرجل لا عيب فيه!
- وهل قلت لكم إنه معيب!
- إذن لماذا تريدين الانفصال.
- ح أموت.

هكذا قالت أمها، وهمست فى أذن خالها قائلة:

- كلها يومين وترجع له.. سوف تصعب عليها حاجتها.

وتم الانفصال، ومر يومان، وشهران، وعامان، ولم ترجع واستأذن الزوج المكروه أهلها فى أن يزوجوه أختها ما داموا يعرفون عنه كل خير، وما دام هو لا يذمهم ولا يكرههم فرفضوا من أجل الحساسية بين الأختين، فتزوج بامرأة أخرى أسعدته وسعدت به، وتزوجت المختلعة من بعده رجلاً وحيدًا صارت كل أهله، وأحبته، ولم يجدوا تعليقًا سوى (حكمتك يا رب).

ولعل قائلاً يقول: لماذا لم يحدث هذا من أول الأمر، أن يتزوج كل إنسان بمن يحب دون غصب وإرهاق ومعاناة؟

والجواب عن ذلك أنَّ هذا يحدث إذا كنا نحن الذين ندبر الأمر وحتمًا سنفشل، لكن إذا كان الأمر بيد الله - تعالى - فهو وحده الفعال لما يشاء وحتمًا فيما يشاء الخير الكثير.

حديث القرآن الكريم عن المطلقات

- ٧ -

المطلقة قبل الدخول بها

لم يعاشرها، لم يبت ليلة معها فى حجرة واحدة، لم تغسل له ثوبًا، ولم تعش معه تجربة، ما سافرت معه من بلد إلى بلد، لم يكن بينهما من بنت ولا ولد، كل ما بينهما عقد، كانت زوجته على ورقة، وكان طلاقها منه على ورقة، أمسكت الورقة الثانية، وقرأت ما فيها إنها شهادة طلاق، تخيلت أنها ستفتح ورقة كتب عليها: يا أعز الناس، يا زوجى وحبيبتى، طال شوقى إليك، وابتسمت قائلة تزوجت ورقة، وطلقتنى ورقة، وراحت تستعيد عبارات الغابرين:

- كل شىء قسمة ونصيب.

عبارة ظلم الناس بها أنفسهم ظلمًا كثيرًا، لجهلهم بالقدر، والمكتوب، شغلوا أنفسهم بالمكتوب، كان الاتفاق على أن يجهز ثلاث غرف، فلم يستطع تجهيز الثالثة، أتى بحجرة نوم، وصالون، وذهب ذات ليلة إلى بيتها، وأخبر أهلها أن اليد قصيرة، والعين بصيرة، ورجاهم أن يقبلوا حجرتين، وبعد البناء (الدخول) يرزق الله بثالثة ورابعة صاحت أمها كأنها لسعتها عقرب:

- وماذا أقول لأختى التى تزوجت ابنتها بسفرة؟

- إن شاء الله كله يجى مع الأيام.

- أبدًا.

- يعنى إيه؟

- كل واحد من سكة وكان الطلاق، ذهب ولم يعد ولم تأتي السفرة.

والعلماء على أنَّ الطلاق قبل الدخول جائز شرعًا، لقول الله تعالى: ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)﴾[1].

ويقول الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾[2].

وفى ذلك أحكام الشرع فى المطلقة قبل الدخول بها أن لها نصف المهر، وأنَّ العفو أفضل عن النصف الآخر، والأمر راجع للتفاهم بينهما، وقول الله - تعالى - ﴿وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ يرجح العفو الكامل، وقوله - تعالى - : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أى مجازيكم خيرًا عن عفوكم، وأنه لا عدة عليها؛ لأنها لم يدخل بها، والغرض الأول من العدة براءة الرحم، وهو برىء، حيث لم يكن دخول، وأنّ لها المتعة على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، وقد وردت روايات بأن النبى ﷺ قال للجونية الحقى بأهلك، وأعطاها ثوبين ولم يكن قد دخل بها، والحق تعالى - يقول: «ومتعوهن» وهذا من باب الإحسان الذى يلازم المسلم فى كل أمور حياته، وهو يظهر لنا ما للنكاح فى الإسلام من حرمة عظيمة، فقد يقول قائل: كيف يعطيها نصف المهر، وكيف يمتعها على قدر طاقته وهو لم يأخذ منها شيئًا؟!

والجواب أنها تعلقت به، ووضعت الآمال، وصارت زوجة له وقد عقد عليها، وتم فسخ العقد، وقد دنا منها، وقد أضحى على بعد، وما كرم المودعين كبخلهم،

---

(١) البقرة: ٢٣٦، ٢٣٧. (٢) الأحزاب: ٤٩.

وليس من شيم النفوس المؤمنة أن تعلق العطاء على الأخذ، صحيح أن الفقهاء قالوا: إنما استحقت المطلقة المدخول بها صداقها بما ناله منها مطلقها الذى دخل بها، وبلغة الفقه: «جزاء البضع» لكن انظر إلى قول الله - عز وعلا -: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾.

والحق أن وقوع الطلاق قبل الدخول أهون بكثير من الطلاق بعده، لأن الجرح يكون أقل، والمطلقة قبل الدخول بها قد تكون أكثر قبولاً لوقوعه منها بعد الدخول، وكثير من الناس لا يسمحون بفترة خطبة، يقولون: حتى تدخل علينا وتخرج: اعقد عليها، ويتم العقد، ويكثر الدخول والخروج، وتتضح الأمور، ويكتشف الزوجان أنهما لا يصلحان لإقامة حياة مشتركة، ورحم الله ابن القيم حيث قال: قد يكون الطلاق نعمة، إذا تخلص الواحد من الزوجين ممن يكرهه، فلم ير للمتحابين إلاّ النكاح ولم ير للمتباغضين إلا الطلاق.

فهو أشبه ما يكون بالاكتشاف المبكر، كاكتشاف الأمراض الخبيثة قبل تفشيها واستفحالها، قبل أن تودى بحياة الإنسان، ولذلك يقول الناس: «مازلنا على البر» ومَنْ كان على البر على خلاف مَنْ نزل البحر، وغاص فيه، ووجد نفسه لا يجيد العوم.

ومثلما يتسرع الشباب فى وقوع الطلاق بعد الدخول يتسرعون فى وقوعه قبله، وإن كان وقوعه قبل الدخول أقل وطأة وأقل خطراً كما ذكرت، والأمران يجب النظر فيهما وإعادة النظر فيهما.

لقد خطب شاب إحدى الفتيات، ومن الزيارة الثانية قالت أمها وكانت أرملة، إن أباها قد مات وتركها لى وأخًا صغيراً، وحتى لا يتكلم الناس فينا عليك أن تحضر أهلك وتعقد عليها

- بدرى كده؟
- هو أنت نيتك مش سليمة؟
- سليمة يا سيدتى والله، ولكن لماذا هذه السرعة؟

- خلاص، حين تصبح جاهزاً على إتمام الزواج أهلاً بك.

- ألا نفكر قليلاً، إننا لا يعرف بعضنا الآخر.

- إحنا عرفناك.

وأقبل الأهل، وتم العقد، وشرب الحضور الشربات، وتجمل الشباب وغنت السيدات والبنات، واكتشف الشاب أنّ عروسه معرضة عنه، غير مقبلة إليه، لا تتحدث معه إلاّ قليلاً، قال لها يومًا:

- هل تعرفين كم مرة زرتكم منذ عقدنا العقد؟

- أنت بتعد زياراتك؟

- لا

- ماذا تعنى؟

- أعنى أنى زرتكم عشرين مرة، لم أجدك فيها فى البيت أنت دائمًا عند الجيران، وفى كل مرة يذهب أخوك ليناديك وتقبلين غير سعيدة.

- وماذا نريد منى أن أفعل؟

- ألسنا زوجين؟

- يدوب مكتوب كتابنا .

- هذا صحيح، ولكن الهدف من هذه الكتابة أن يقترب أحدنا من الآخر.

- أنا لست بعيدة.

- لكنى أراك بعيدة.

- كل واحد حر فى رأيه.

- معاك حق.

- يعنى نطلق.

بهذه الحدة قضت على العلاقة منذ البداية، لأنها كانت راغبة فى غيره، ومضى الشاب وحسبت طلقة فى سجله الذى فتحه عند غيرها فقالوا: ولماذا؟

حديث القرآن الكريم عن المطلقات

- ٨ -

الإيلاء

درس «الإيلاء» من دروس الفقه التى تخفى على كثير من المسلمين، كما خفى درس الخلع، فإذا تنبه أحد المعنيين بأمور المسلمين، وكتب عنه، أو حاول أن يخرج قانونًا بشأنه فلا يستبعد أن يهيج كثير من الناس كما هاجوا عند ظهور قانون الخلع، والإيلاء هو القسم، والحلف، الذى يصدر عن الزوج بألا يقرب امرأته وألا يجامعها، وحد هذا القسم الزمنى المسموح به شرعًا أربعة أشهر، يصح أن يرجع، خلالها، وأن يعيش مع زوجته فى فراش واحد فإن مرت هذه المدة، وهى أربعة أشهر فالفقهاء على خلاف، حيث يرى عبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت: إذا مضت أربعة أشهر ولم يفئ فيها طلقت منه بمضيها، وهو قول جماعة من التابعين، ومذهب أبى حنيفة وأصحابه.

وعند الجمهور أنه لا يطالب بالطلاق إلاّ بعد مضى المدة، إمَّا أن يفئ (يعود) وإمّا أن يطلق، لأنّ الله - تعالى - يقول بعد أن ذكر المدة: **﴿فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)﴾**[1] .

نحن الآن مع حالة من أحوال الرجال الذين يعتريهم الغضب، من ناحية نسائهم، فيقسمون على عدم القرب منهن، وهذه الحالة قديمة، قال الشافعى - رحمه الله - كانت الفرق فى الجاهلية تحلف بثلاثة أشياء: بالطلاق والظهار والإيلاء، فنقل الله - سبحانه وتعالى - الإيلاء والظهار عما كانا عليه فى الجاهلية من إيقاع الفرقة على الزوجة إلى ما استقر عليه حكمهما فى الشرع، وبقى حكم الطلاق على ما كان عليه.

---

(١) البقرة: ٢٢٦ و٢٢٧.

فكأنَّ الإيلاء فى الجاهلية كان حلفًا يفرق به بين الزوجين فاستقر حكمه فى الإسلام على التخيير بين العودة وبين الطلاق. وقد ثبت فى صحيح البخارى عن أنس قال: آلى رسول الله ﷺ من نسائه، فأقام فى مَشْرُبَة له تسعًا وعشرين ليلة، ثم نزل، فقالوا: يا رسول الله، آليت شهرًا، فقال: إنَّ الشهر يكون تسعًا وعشرين.

وهذه المدة مدة يسيرة بالنظر إلى مَنْ يجاوز الشهور الأربعة.

تلك الحالة لا شك أن فيها إضرارًا بالزوجة المهجورة بسبب الإيلاء، وقد يكون الضرر نافعًا إذا نوى الزوج تهذيبها وتأديبها ولم تطل المدة، ولم ينو الإضرار بها إلى الحد الذى يجعلها تقول: «حقّى برقبتى» ومن ثم قال الله عز وعلا: ﴿**وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ .

بعض الرجال ينوى داخله الطلاق فيلجأ إلى الإيلاء ليقول «أنا حالف» ويلجأ إلى غيره من باب (التلكيكة) حتى يلحق الضرر بالضرر، ويتتابع، فيضيق عليها، وهذا حرام شرعًا على من أمره ربه بالمعروف فى المعاشرة، والمعروف فى المفارقة، والتسريح الجميل.

وإذا قلت لأحد الشباب الذين هجروا بيوتهم بالسنة والسنتين، لماذا تفعل ذلك؟ ألا تطلقها إذا كنت لا ترغب فيها! أجابك بقوله:

- وأجيب منين مؤخر صداق ٥٠,٠٠٠ خمسين ألفًا، وقائمة بمثلها!
- لكن الضرر حرام.
- ألم يكن حرامًا أن يكتبوا ذلك كله علىَّ!
- لكنك وافقت.
- ما كنت أعلم أنها لا تطاق، كنت أنوى العيشة.
- المؤمنون عند اتفاقهم.
- أنا وقعت على المؤخر والقائمة لإثبات النية الحسنة، وليس الذنب ذنبى.

- وماذا تريد الآن؟

- تتنازل عن جميع حقوقها حتى أطلقها.

مثل هذه المشكلة لا يكون من الإنصاف والعدل فيها أن نخطئ الزوج، فمن النساء مَنْ تركن إلى هذا المكتوب الكبير من المؤخر وما يسمى قائمة منقولات فتذيق زوجها وبال أمره، وكأنها تحمل بهذا سيفًا على عنقه، ومن الشباب مَنْ يوافق على كل ما يعرض عليه عند الزواج وفى ضميره أن يومًا من العذاب - إذا لزم الأمر - كفيل بأن يجعلها تتنازل عن هذه الحقوق وغيرها، ومازالت تلك المشكلة تدل على تعقيد الأمور المركبة من التربية والظروف الاجتماعية، والتحولات الإنسانية، وغيرها، شبكة معقدة من أسلاك، لا أول لها ولا آخر، ومازال العلاج يتجه نحو المرأة، بشكل أكبر، وخطا أوسع، فإنَّ الكثيرات من البنات يجدن (فن المضايقة) بتقدير «ممتاز» ولا يجدن شيئًا آخر من الأشياء التى تجذب الزوج إلى بيته، وحضن امرأته، واستقرار حياته الزوجية، لقد تزوجها عن رضًا وقبول تامين، وقد نصح له بعض أقاربه بأن مثلها لا يصلح له، فقد نشأت مرفهة ونشأ على الجد والتعب، وأبوها ذو منصب كبير، وأبوه عامل صغير، وأمها سيدة صالون وأمه من عامة الناس مكافحة مجتهدة، وهو أخو ستة رجال وثلاث بنات، وهى وحيدة أبويها، فالفرق شاسع بينهما، فأجاب مَنْ نصحوا له:

- أنا أحبها وهى تحبنى.

- ربما لا تفى بحاجاتها!

- الحب يصنع المعجزات، والمرأة إذا أحبت زوجها رضيت منه بالقليل، وفى الجانب الآخر نصح بعض أقاربها والدها بأن هذا شاب متطلع إلى الحياة، ومستقبله مزهر، واحذر (الشبع من بعد جوعة) فأول من يعض يعض اليد التى تمتد إليه بالمعروف، وابنتك وحيدة، وألوف الشباب من الأثرياء، وأولاد الناس الذين هم علية القوم يتمنونها، فقال أبوها:

- لكنها تحبه.

- لأنه ضحك عليها بكلمتين.

- ابنتى التى يُضْحك عليها، والولد مؤدب.

- خذ حذرك وأمن مستقبل ابنتك، لا أحد يضمن الموت من الحياة.

لعبت الكلمات برأس الوالد، فاستدعى خطيب ابنته، فأتاه يسبق الريح.

- لبيك وسعديك يا باشا.

- شوف، احنا ح نكتب مؤخر ٥٠,٠٠٠ خمسين ألفًا

- أليس كثيراً؟

- ألا تراها تستحق ذلك؟

- تستحق الدنيا بكل ما فيها، لكن المبلغ الذى سيتقاضاه المأذون سيكون كبيراً جدًا.

- لا عليك، لقد فكرت فى هذا، وأجر المأذون هدية منى لها.

- اللى تشوفه يا عمى.

وتم الزواج، ومضت أيام العسل أحلى من العسل، مرت بسرعة كما يمر المنام السعيد فى رأس الحالم الوليد، وبدأت رحلة المضايقة تفتش ملابسه، وتشم وجهه ويديه.

وفرّت جهاز المحمول، رقم مَنْ هذا؟ من تلك التى تتصل بك دائمًا؟

أنا عارفة كل حاجة.

وقس على ذلك ما تتخيله من صور الشك والريب، والاتهام فى الدين والخلق، وجد الشاب نفسه مخنوقًا، كره العودة إلى البيت، فليس فى البيت شىء يسر، كل ما فيه جلسة تحقيقات ممقوتة، ضيقت الخناق عليه، وعظ، وهجر، وضرب وقسا،

وشتم. فتحمل أوزاراً على أوزاره، وصار سوقيا فى نظرها محتقراً، أخذ يصرخ ويقول:

أنقذونى، تدخل الأهل والجيران والأصحاب، وحاولوا الإصلاح، ولا أمل، غضبت وغضب، وعادت إلى تفتيش الملابس وشم الروائح، وتسمع أجراس الهواتف، والاتهام لم يجد فى البيت لقمة، وإنما وجد فيه كل لطمة، لم يجد فى البيت مَنْ تُصَلِّى وإنما وجد من تُصْلِى ناراً وعذابًا، بكى طويلاً وقال لولا المبلغ الكبير ما عشت يومًا فهل هذه حياة.

حديث القرآن الكريم عن المطلقات

- ٩ -

الظهـــار

حديث الظهار فى كتاب الله - عز وعلا - كذلك مختلف عن حديث الفقهاء، فالفقهاء يعرفون الظهار بأنه قول الرجل لامرأته: «أنت علىّ كظهر أمى» وذكروا كفارة الظهار فى ضوء آية المجادلة، ثم اختلفوا هل يباشر المظاهر زوجته قبل التكفير، وإذا كانت كفارته الإطعام فهل له أن يباشرها قبله أم لا؟ والذين جوزوا ذلك فى الإطعام قالوا: إن الله - تعالى - قيّد التكفير بكونه قبل المسيس فى العتق (عتق رقبة) والصيام، وأطلقه فى الإطعام، وهو سبحانه وتعالى - لم يقيد هذا ويطلق هذا عبثًا، بل لفائدة مقصودة، ولا فائدة إلاَّ تقييد ما قيّده، وإطلاق ما أطلقه.

والذين منعوا قالوا إن الله تعالى قال ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ مرتين، ولو كرره ثالثًا لطال الكلام، لكن لابد من التكفير قبل المباشرة، ثم اختلفوا هل تسقط الكفارة بالعجز أو لا تسقط، قولان والمسألة فى ضوء كتب الفقه تحت عنوان «الظهار» ومعناها بأسلوب ميسر أن يقول زوج لزوجته «أنت على مثل ظهر أمى» وقد كان هذا طلاقًا فى الجاهلية، إنْ قاله زوج لزوجته فقد طلقها بهذا القول، ولما جاء الإسلام جعل له كفارة، وهى إمّا عتق رقبة مؤمنة أو غير مؤمنة على خلاف بين الفقهاء، فإن لم يستطع صام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع أطعم ستين مسكينًا، فإن باشرها قبل أن يكفر فعليه أن يكفر ويستغفر وعليه كفارة واحدة عند الأئمة، ورأى بعضهم كما صح

عن ابن عمر وعمرو بن العاص أن عليه كفارتين، الأولى عن الظهار، والثانية عن الجماع المحرم كالجماع فى نهار رمضان.

أمّا حديث القرآن الكريم عن الظهار فقد بدأ بعرض ما يقوله المظاهر، وزجره، وأدبه، ونبهه ووبخه، قبل أن يذكر الكفارة التى بها يباشر أهله، فقال الله- عز وجل -: **﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾**[١] .

والحق أنَّ منهج القرآن الكريم منهج تربية قبل أن يكون مصدراً للتشريع، قبل أن يذكر أحكام الشرع يهذب النفس المقبلة على أخذ هذه الأحكام، ولتقرأ آيات الصيام مثلاً من سورة البقرة، قبل أن يذكر شهر الصيام، ومَنْ يجوز له الإفطار، وماذا يحل ليلة الصيام يقول تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**[٢] فهو يبين الهدف والغرض من الصيام، حتى يحب المسلم تلك الفريضة التى يسمو بها إلى التقوى، فيقبل على الأحكام بطيب نفس وانشراح صدر.

وقبل أن يذكر ربنا - تعالى - فى سورة المائدة ما حرمه علينا من الميتة ولحم الخنزير وغيرها دعانا إلى الوفاء فقال فى أول السورة: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾**[٣] وبدأ بالحلال قبل أن يذكر الحرام، فقال عز من قائل: **﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾**[٤].

وقبل أن يطلب من أهل سبأ الشكر طلب إليهم أنْ يأكلوا، فقال رب العالمين - جلَّ فى علاه: **﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾**[٥] .

وهنا فى سورة المجادلة التى كان سبب نزولها أنْ جاءت خولة بنت مالك بن ثعلبة بعد أن ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت، وقصت له ذلك فقال لها: «ما عندى فى

---

(١) المجادلة ٢. (٢) البقرة: ١٨٣. (٣) المائدة: ١.
(٤) المائدة: ١. (٥) سبأ: ١٥.

أمرك شيء» فقالت: اللهم إني أشكو إليك وروى أنها قالت: إنّ لي صبية صغاراً، إن ضممهم إليه ضاعوا، وإنْ ضممتهم إليَّ جاعوا، فنزل القرآن الكريم، وقالت عائشة: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت خولة بنت ثعلبة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا في كسْر البيت يخفى عليَّ بعض كلامها؛ فأنزل الله - عز وجل -: ﴿قدْ سمعَ اللَّهُ قوْلَ الَّتِي تُجادلُكَ فِي زوْجِهَا وتَشْتكِي إلى اللَّهِ واللَّهُ يسْمعُ تحاوُركُما إنَّ اللَّه سمِيعٌ بصِيرٌ﴾[1] .

فقال النبي ﷺ: «ليُعْتق رقبة» قالت: لا يجد قال: «فيصوم شهرين متتابعين» قالت: يا رسول الله، إنه شيخ كبير ما به من صيام، قال: «فليطعم ستين مسكينًا» قالت: ما عنده من شيء يتصدق به، قال: «فإني سأعينه بعَرْق من تمر» قالت: يا رسول الله، فإني سأعينه بعرق آخر، قال: «أحسنتِ، فأطعمي عنه ستين مسكينًا وارجعي إلى ابن عمك».

بدأ الحق تعالى سورة المجادلة بدرس العقيدة الذي فهمته عائشة ﵂ وهو أنَّ الله - عز وعلا - سميع بصير، لا تختلط عليه الأصوات، ولا تخفى عليه الأشكال، كانت أم المؤمنين في البيت يخفى عليها بعض كلمات خولة بنت مالك، وهي عند الله تعالى بحروفها وهيئتها وشكلها ومعناها، بل إنه تعالى عليم بها قبل أن تنطق بها خولة ﴿يعلمُ خائنةَ الأعْينِ وما تُخفِي الصُّدُورُ﴾[2] .

ثم كان درس التربية قبل بيان الحكم الشرعي، وهذا الدرس هو تأديب الذين يشبهون نساءهم بأمهاتهم، لقد نفى القرآن الكريم ذلك وقال: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ حتى يستحي الذي يقول لامرأته «يا ماما.. ويا أمي» وبيَّن ربنا - تعالى - مَنْ أمهاتنا بقوله - عز من قائل- : ﴿إنْ أُمَّهَاتُهُمْ إلاَّ اللاَّئِي ولَدْنَهُمْ﴾ ثم ذكر بشاعة هذا القول بقوله - تعالى -: ﴿وإنَّهُمْ ليَقُولُونَ مُنكرًا مِّنَ الْقوْلِ وزُوراً﴾.

فيا مَنْ تنادون أزواجكم بأمهاتكم اعلموا أنَّ هذا منكر من القول وزور، والمسلم ينكر ما أنكره الشرع، وأنأى ما يكون عن الزور والإثم والبهتان، إنّ أمك هي التي

(١) المجادلة: ١. (٢) غافر: ١٩.

ولدتك حملتك فى بطنها تسعة أشهر وهنًا على وهن، وولدتك وأرضعتك وإن كنت معبرًا بـ«أمى» مجازًا فإن ذلك يجوز لك عندما تقابل عجوزًا مثل أمك رحمة بها وشفقة عليها، فهى مثل أمك، أو تقول ذلك لامرأة ربتك مع أمك أو بعد موت أمك كما قال النبى ﷺ لأم أيمن: أنت أمىٍ من بعد أمى، والمجاز فى قولك لغير أمك «يا أمى» معناه على التشبيه، ووجه الشبه إنزالك تلك الأجنبية منزلة أمك فى برك وعطفك ورحمتك وهي مثلها فى العمر أو فى الوظيفة، وزوجتك لا تشبه أمك بحال من الأحوال، حتى لو كانت فى مثل عمر أمك، وليس هذا إهدارًا لحق الزوجة، وتأمل كلمة «حق» هنا، ولاحظها فى كل أبواب العلم، تجد للجار حقًّا، وللأبناء حقًّا، وللطريق حقًا، لكنك لا تجد للوالدين حقًّا، وإنما تجد لهما «بر» الوالدين، فهما فوق الحق، إذْ كل من أديت له حقه فقد برئت ذمتك منه أمّا والداك فلن تبرأ ذمتك منهما أبدًا، أحياء وأمواتًا، وهذا لم يلتفت إليه كثير من الناس، فهل تساوى بين من له عليك حق وبين مَنْ له عليك بر؟!

سأل النبىَّ ﷺ رجلٌ فقال يا رسول الله هل علىَّ من بر لوالدى بعد وفاتهما؟ قال نعم: أن تصل ما كان يصلان وأنت ربما انتهت علاقتك بأهل زوجتك بعد موتها، إنك تتزوج بعدها، ومن ثم قالوا: «مَنْ ماتت امرأته جدد فرشه» لكن لا تستطيع أن تتخذ أحدًا أباك بعد موت أبيك، أو أن تتخذ امرأة أمك بعد موت أمك إلاَّ على سبيل المجاز القائم على التشبيه كما بينت، فلكل من الزوجة والأم منزلة عند الرجل، والخلط لا يجوز.

إنّ أمر الكفارة فى الظهار وغيره أمر قائم على التيسير لكن أمر التربية أمر عسير، ومن ثم بدأ القرآن الكريم به، وقد يذكرك ذلك بالحكمة التى تحفظ وهى «الوقاية خير من العلاج» لأنَّ النفس إذا تهذبت وتربت كانت أبعد عن الوقوع فى الضلال، لو فهم المظاهر درس التربية ووعاه ما نطق فمه بجملة الظهار، ومن ثم يكون قد جنّب نفسه الوقوع فى المحظور، ووقى نفسه غضب الله وسخطه، وكما قلت إن منهج القرآن

الكريم منهج تربوى فى المقام الأول، وإذا أراد المجتمع الإسلامى الخير فى الدنيا والآخرة عني بتربية الأجيال قبل تعليمهم، وهذا ما ذكره ربنا - تعالى - حيث قال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1] فقدم «يزكيهم» على «يعلمهم» أى يهذبهم ويربيهم قبل أن يعلمهم، ونحن فى حاجة إلى أن نربى أبناءنا قبل أن نزوجهم، وهل تظن أن مَنْ يتربى على القرآن الكريم ويقف على أصول دينه يقبل على مثل هذا الظهار إلاَّ إذا نسى، وما كان ربك نسيًّا.

---

(١) آل عمران: ١٦٤.

حديث القرآن الكريم عن المطلقات

- ١٠ -

الملاعنة

وقد تحدث القرآن الكريم عن الذين يرمون أزواجهم، ولم يكن لهم شهداء أى لم يأتوا بأربعة شهداء عدول، لكى يثبتوا تلك الجريمة البشعة، التى كان جزاء مَنْ يرمى بها مؤمنة غافلة جلد ثمانين جلدة، أطلق عليها النبى ﷺ «حدًا فى ظهر الرامى» وقد بدأ القرآن الكريم فى هذا الموضوع بدرس التربية، قبل أن يذكر الأحكام فقال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1] .

أى: هذه سورة كريمة من سور الذكر الحكيم أنزلناها شفاء لكم وهدى ورحمة، وفرضناها عليكم أيها المؤمنون بالله واليوم الآخر، وأنزلنا فيها آيات واضحات لعلكم تذكرون، فتنفعكم الذكرى وتنير لكم الطريق، طريق الخير فى الدنيا، الذى تسلكونه إلى رضوان ربكم، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وذكر ربنا بعد هذه الآية حد الزنا، وحد الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٨ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٩﴾[2] .

ومعنى ذلك أنَّ الرجل الذى يرمى زوجته بجريمة الزنا ولم يأت بأربعة شهداء، فليس معه شهداء إلاَّ نفسه، فيتلاعنا فى المسجد، ثم يفرق بينهما، وطريقة الملاعنة أن

---

(١) النور: ١.
(٢) النور ٦ وما بعدها.

يعظ الإمام ذلك الزوج، ويذكره بالله، ويخبره أنَّ عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، ويأتى بالزوجة، ويعظها، ويذكرها بالله، ويخبرها بأنَّ عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فإن أصر كل منهما على موقفه، وهو أن يدعى الزوج صدقه، وأنها قد ارتكبت الفاحشة، وأن تدعى الزوجة كذبه، وأنها لم ترتكب الفاحشة، ويقينًا أحدهما كاذب كما قال النبى ﷺ، عندئذ يشهد الزوج أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، والخامسة أن غضب الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم يثنى بالمرأة، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ثم يفرق بينهما.

وقد ذكر البخارى أنَّ هلال بن أمية قذف امرأته عند رسول الله ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبى ﷺ: البينة أوحد فى ظهرك، فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل رسول الله ﷺ يقول: البينة وإلاّ حد فى ظهرك، فقال: والذى بعثك بالحق إنى لصادق، ولينزلن الله ما يبرئ ظهرى من الحد، فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه: ﴿**والذين يرمون أزواجهم**﴾ الآيات فانصرف النبى ﷺ إليها، فجاء هلال، فشهد والنبى ﷺ يقول: «إنّ الله يعلم أنَّ أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟ فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوها، وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت: لا أفضح قومى سائر اليوم، فمضت، أى لا عنت، وفرّق النبى ﷺ بينهما. والتفريق بين المتلاعنين فسخ للعقد من جهة الإمام أو نائبه، وليس طلاقًا، ويكون التفريق بينهما أبدًا، وتكون الملاعنة كالمطلقة ثلاثًا لا بيت لها ولا نفقة، والتأبيد يكون حكم الفراق بينهما بسبب تلك الملاعنة.

ولو أنَّ زوجًا جاء ليلاعن، فتراجع ولم يقبل اقيم عليه الحد حد القذف، ولو أن امرأةً جاءت لتلاعن وتراجعت فقد وجب الحد عليها ومن ثم كان وعظهما بأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، أى إقامة الحد على الكاذب أولى له وبه، لأن ذلك أهون من عذاب الله فى الدنيا والآخرة.

وانظر إلى هذا اللفظة «الملاعنة» وسبب تسميتها بالملاعنة أنه يقول: لعنة الله علىَّ

إن كنت الكاذبين، وأنها تقول: لعنة الله على إنْ كان من الصادقين، واللعنة معناها الطرد من رحمة الله - عز وجل. فكيف تستقيم حياة بين زوجين يحدث بينهما ذلك، وكيف يكون هناك أمل فى عودة حياة بينهما وأحدهما كاذب، ومن كذب كان مطروداً من رحمة الله الرحيم، إنّ حدود الله عظيمة، ومن عظمها صان نفسه، وحفظ عرضه، وطمع فى رحمة ربه - عز وعلا.

وقد شرع الإسلام الزواج غضًا للبصر وتحصينًا للفرج، وعونًا على طاعة الله عز وعلا - فإذا دخل بينهما الفحش، ولم يكن أحدهما صالحًا للآخر خصوصًا الرجل كانت المرأة مسلمة إذا طلبت الطلاق وسألت الفراق، لكن أن تستتر خلف الزوج، وتفعل الفاحشة، وتنسب إليه ولدًا ليس منه فهذا أمره خطير، وإثمه عظيم، وأثره كبير.

وولد الملاعنة ينسب إلى أمه، ويرثها وترثه، وقد كانت القافة وسيلته ﷺ فى ذلك، حيث جاء ابنها مشبها من اتهمت به.

ومن هذا الذى ثبت فى السنة نعلم أحكام الملاعنة، وبه يرد على مَنْ تقول: وإن وجدت المرأة زوجها مع امرأة أخرى، أليس من حقها أن تنفصل عنه؟ والجواب واضح؛ لأن أحدًا لا يجبر المرأة أن تعيش مع رجل فاسق تكره فسقه وسوء خلقه إنما كانت رؤيته معتبرة وقذفه معتبراً؛ لما يترتب على فسقها وفاحشتها من النسب، وهى إن استطاعت أن تأتى له بأربعة شهداء شهدوا بوقوع هذه الجريمة أقيم عليه الحد، وحد الله قوله - عز وعلا -: ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ هذا رجل يرمى زوجته، وعليه البينة أو الملاعنة أو حد فى ظهره؛ فليس الأمر سهلاً عليه صعبًا عليها، ثم إنها إذا جاءت ولاعنته لم يقم الحد عليها كما ذكرنا، ثم إنه لو جاء معه بثلاثة شهداء وكان هو رابعهم لم يقبل منه ذلك.

ومعروف على مدى تاريخ المسلمين أن جريمة الزنا لم تثبت مرة واحدة بالشهداء، وإنما ثبتت بالإقرار، أى إقرار من ارتكب تلك الجريمة، لأن إثباتها بالشهداء يكاد يكون مستحيلاً، حيث إنه يشترط فى هؤلاء الشهداء فى تلك الجريمة دون غيرها صلاح

الظاهر والباطن، ولو جاء الشهداء، وكانوا صالحين، وثبت عند القاضى صلاح ظاهرهم وباطنهم، وكان المتهم محصنًا (متزوجًا) وجئ ليقام عليه الحد قال الفقهاء: يقدم الشهداء الأربعة ويقال لهم: كونوا أول من يضربه ويرجمه، وعلل الفقهاء ذلك بأنه إذا قيل لهم ذلك فربما تراجعوا؛ وعندئذ تدرأ الحدود بالشبهات، فقد يصحو ضميرهم إنْ كانوا خائنين، لأنهم قاتلوه، كما قال معاوية حين أمر بقتل رجل، لقد قتله مَنْ شهد عليه، فإذا أحس هؤلاء بأنهم قاتلوه ربما رجعوا، فانظر إلى أى مدى نأى الإسلام بالمسلمين عن مثل هذا الوقووع فى تلك الشبهة فضلاً عن نهيه عن القرب منها، حيث قال عز وعلا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[1].

وقد استهان الناس بالكلام فى الأعراض، وصار الاتهام هينًا على اللسان، وهو عند الله عظيم، فليحذر المسلمون آثار ذلك عملاً وقولاً، وليلتمسوا الطهر الذى شرعه الله - عز وعلا - لاستقامة الحياة، واستقرار النفس، وصحة النسب، وفى كتب الفقه عند هذه المسألة كلام نفيس فى البدء بالرجل عند الملاعنة؛ لأنه الذى رمى، ولأنه الأحرص على نظافة عرضه وصونه، فهذا الذى يدعيه يزرى به ويشينه، فلا يقال: إنه لا يهمه كما قال زميل لزميله: إنها ليست أختك وليست أمك، فهى لا تعيبك، وما ذكره أهل العلم هو المقبول فهى سكنه وعرضه والأمينة على نسبه.

(١) الإسراء: ٣٢.

عدة النساء

العدة عدتان: عدة المطلقة وعدة المتوفى عنها زوجها، وتشترك الأولى والثانية فى الحمل متى وضعت فقد استكملت عدتها مطلقة كانت أو متوفى عنها زوجها.

وعدة المطلقة تبدأ بطلاقها وتنتهى عندما تنتهى الأشهر الثلاثة ﴿ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾[1] كما جاء فى سورة البقرة مع اختلاف الفقهاء فى القرء أهو الحيض أم الطهارة.

وعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[2] .

وعدة المطلقة فرصة لأمرين:

الأول: رجوعها إلى مَنْ طلقها إذا كانت الطلقة الأولى أو الثانية، أما إذا طلق بعد ذلك فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجًا غيره.

والثانى: براءة الرحم، من الحمل من الذى طلق، فلا يسقى امرؤ مسلم بمائه زرع غيره - كما قال ﷺ وأما عدة المتوفى عنها زوجها فعبادة يظهر فيها أثر الحزن على الزوج، وإعلان ذلك وتربص شرعه الله عز وجل للميثاق الغليظ الذى كان بين الزوج المتوفى وبين هذه الزوجة دون نظر إلى الحياة كيف كانت بينهما، فليست العدة مدة الأربعة أشهر وعشر على زوج كان طيبًا كريمًا، والذى كان على غير ذلك تعتد امرأته مدة أقل، فهذا شرع الله تعالى الذى يراعى الأصل هنا، والأصل فى الحياة الزوجية أن للزوج مكانًا عند زوجته.

يروى أصحاب السير أن حمنة بنت جحش نعى لها يوم أحد خالها حمزة بن عبدالمطلب سيد الشهداء رضي الله عنه - فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، ونعى لها أخوها

---

(١) البقرة: ٢٢٨. (٢) البقرة: ٢٣٤.

المجدع فى الله عبدالله بن جحش ﷺ فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، فلما نعى لها زوجها مصعب بن عمير ﷺ لم تملك نفسها، وصرخت، فقال النبى ﷺ إن للزوج عند زوجته لمكانا.

وذلك لما رأى ﷺ صنيعها حين نعى لها هؤلاء الأبرار - رضوان الله عليهم، فما كان منها إلا أن احتسبت واسترجعت، مع خالها وأخيها، فلما سمعت نبأ زوجها كان منها الذى كان.

وهذا يؤكد ما ذكرته هنا فى هذا الكتاب من معنى أنَّ الزواج آية من آيات الله - عز وجل -: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1].

إنه آية، حيث نزول الزوج فى قلب زوجته بكلمة الله تعالى وسر هذه العلاقة، فلو كان الأمر مرده إلى العطاء المادى فحمزة ﷺ آية فى العطاء، وقد أسلم يوم أسلم لما رأى من قبح تجاوز أبى جهل وسوء أذاه للنبى ﷺ وهو ابن أخيه، وقال له: كيف تؤذيه وأنا على دينه، ثم دعا الله - عز وجل - أن يثبته على الإسلام فثبته، وعبدالله بن جحش أخوها صحابى جليل ومهاجر عظيم، هاجر الهجرتين وهيهات أن ينسى أخته وقد رق قلبه لدين الله عز وجل وهاجر فى سبيله.

ولو كان الأمر راجعًا إلى العطاء المعنوى فأرحامها أهل هذا العطاء؛ لأن قلوبهم نابضة بذكر الله عز وجل - والله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى.

إنما الأمر مرده إلى هذه المكانة التى للزوج على زوجته وهى من الله آية.

عدة المتوفى عنها زوجها

وقفت أمام الشيخ فى ذهول ودهشة، حين سألته وأجاب، سألته ماذا تفعل بعد وفاة زوجها؟ وأجابها الرجل العالم بأن عليها عدة المتوفى عنها زوجها، وهى أربعة أشهر وعشرًا لا تخرج من بيتها إلا لضرورة ولا تضع زينة، ويبدو عليها ما يبدو على

---

(١) الروم: ٢١.

كل حزين فاقد حبيبه، كادت المرأة تصرخ فى وجه الشيخ، وصاحت: لماذا هذا العذاب؟ أأحبس فى بيتى ولا أخرج للدنيا بعد وفاته؟!

قال: نعم تلك المدة.

قالت: ولماذا؟

قال: حق الزوج الراحل، وإظهار الحزن عليه، ووفاء بحقه، ففى الحديث: لا يحل لمؤمنة أن تحتد على ميت فوق ثلاث إلا على زوجها أربعة أشهر وعشرا، وذكر بما تلاه عليها من قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[1] .

هنالك قالت فى نفسها: أى حق لهذا الذى حمدت الله - تعالى - أن قبض روحه، وأراحنى وأهلى وأولاده منه ومن نكده وتعسفه، وظلمه، هذا إن كان زوجًا (بحق وحقيقى) أمّا هذا فكان زوجًا على الورق، وذلك بعد أن كان زوجًا على الورق والفراش فقط، وقد امتنع عن الفراش منذ عشر سنين كما امتنع عن النفقة والكلمة الطيبة، هجرنى، وهجر أولاده، وقال لهم بصريح العبارة أمكم ليست فقيرة، هى أولى بالإنفاق عليكم، يا سيدى قال الله، قال رسول الرسول، دون فائدة، يهديك، يرضيك، أبدًا، لم يفطر مع أولاده يومًا فى رمضان إلاّ منذ خمسة أعوام قبل وفاته، وأنا التى طلبت من ابنته أن تدعوه إلى طعام الإفطار، أعددت له بيدى ما يشتهيه وجيت على الأولاد وغصبت عليهم يقعدوا معاه، ما كانوش راضيين هو السبب، كرههم فيه بعمايله السودة، مشى وراها، ضحكت عليه، اتجوزها، وهى أكبر منه، وعندها أولاد من راجل غيره، رباهم لها ونسى أولاده ونسينى، حاولت الإصلاح، ذهبت إليه عندها، وقلت نعيش مع بعضنا بالمعروف، ضربنى أمامها وهزأنى وطردنى وقال لى أمام جيرانها: لو كان عندك كرامة ما كنتيش جيت برجليك لحد هنا، أهاننى وأهان أهلى الذين احتضنوه صغيراً، وأعطوه فقيراً، ووضعوه فى أعينهم، وحين مات أبى طمع فى ميراثى، وأراد أن يتدخل فى شئون إخوتى الرجال، وقال لهم: أنا لى

(١) البقرة: ٢٣٤.

مثل الذى لكم من العمارتين والمزرعة والوكالة، والحمد لله رفض إخوتى، وقالوا له: الشرع شرع الله، ونصيب أختنا ملك لها وليس لك، غضب والتوى، وراح يعاقبنى أنا، وأجبرنى أنْ أتصل بأخى بعد منتصف الليل، وأرد له كرامته، وأشتمه، وأقول له إن زوجى أرجل منك ومن أخواتك كلهم، ولما قلت له: هذا لا يصح أمسك بسلك الكهرباء العريان، وكان مخمورًا لا يدرى ، وأجبرنى، كان الكلام يخرج من فمى كما تخرج الروح من صدر الكافرين، وأخى يقول «آلو. . آلو» وهو يصرخ من ورائى وفى يده سلك الكهرباء العريان: قولى له. . قولى له وقلت: وأحس أخى بما أنا فيه، وقال لى: قولى كل اللى هو عايزه، ربنا يريحنا منه، ولولا فهم أخى تلك القصة وتقديره لموقفى ما نطقت بكلمة، أو لفارقت الحياة بعد أول جملة، ثم كانت النتيجة أننى هجرت، وأهملت، وربيت له أولاده، لم يأت فى يوم عيد ويقول لهم «كل سنة وأنتم طيبين» وقد اتصلت به بنفسى ونصحت له، وقلت: سيبك منى أنا، خليك كويس مع أولادك، دول لحمك ودمك وشايلين اسمك قال لى: أنت السبب، أنت اللى زرعت القسوة فيهم علىّ. . ما فيش فايدة، طلبت منه الطلاق رفض وقال لى: بعينك، ح أخليك كده زى البيت الوقف، وجاء القدر، واتصلت زوجته الثانية وقالت لأكبر أولاده «أبوك نام تعبان شوية. . وباصحيه ما بيردش. . مش عارفه ماله. . ح تيجى تشوفه والاّ إيه. . الواد قال لها: أبويه مين أنا أبويه مات من زمان. . خدت السماعة منه، وصرخت دون أن أدرى، وأخذت الأولاد معى، لم يبك واحد منهم عليه دمعة، دفنوه كما يدفن اللقيط الذى وجدوه فى الشارع دون أهل فى مقابر الصدقة، حتى اللقيط ربما وجدنا من يبكى عليه، والحمد لله، كلنا لها فكيف أحزن على هذا الرجل، وكيف أحتد عليه، وأقضى عدة وأنا من سنين فى عدة، أخذت تحدث نفسها بذلك وهى منصرفة تسأل شيخًا آخر، وتحكى له بعض التفاصيل، عساها تجد مَنْ يقول لها: لا عدة عليك، أنت حرة طليقة، تزوجى إن شئت الآن أو لا تتزوجى، ولكن ادخلى واخرجى وأنت بثيابك الملونة وزينتك الخفيفة، فأنت الآن فى يوم عيد لموت هذا الأذى، يا مولانا، إن مثل هذا ليس زوجًا، إنما هو أذى، هل يحزن أحد لموت الأذى وانصرافه عنه، هل يلبس أحد الثوب الأسود لموت عدوه، إنه يحزن لموت حبيبه.

وهذا لم يكن حبيبًا، بل كان عدوًا، لا لم يكن عدوًا، بل كان أعدى الأعداء، فأعدى الأعداء من ضر أبناءه الذين هم قطعة منه، فكيف يكون لهذا من حق علىَّ؟ وكيف أحبس فى بيتى من أجل وفاته تلك المدة الطويلة!

انتهت قصة المرأة وأنا على يقين أنَّ ألوفًا مؤلفة من النساء سوف تسعدهم تلك المقالة، وأنَّ لهذه الزوجة نظائر كثيرة فى المجتمع من اللاتى عانين معاناة غير عادية من زوج لم يتق الله فيها ، ولم يحسن إليها، أساء وأساء وبالغ فى الإساءة حتى إنه لم يترك ذكرى طيبة تدفع بلسان تلك الزوجة كى تقول: «الله يرحمه»، وقد نظرت تلك الزوجة الجريحة إلى المسألة الفقهية بنظرة العين الآدمية التى يقول صاحبها «تراعينى قيراط وأراعيك قيراطين» لكن عليها أن تنظر بعين الإيمان التى يقول صاحبها: «ماذا يريد الله ربى منِّى» لا ينظر إلى العبادة على أنها جزاء وشكر للبشر الذين قدموا لنا معروفًا فى حياتهم، فهذا بعض حقهم بعد وفاتهم إنّ عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا، بنص الكتاب الكريم الذى نزل بالحق، وهو أمر الله وليس من أمر البشر، فالله هو الذى أمر بذلك ورسوله ﷺ الذى قال للمرأة التى جاءت تستأذن لابنتها التى مات عنها زوجها فى شىء مما تفعله غير المعتدة فى حدادها فغضب ﷺ وذكرها بما كان فى الجاهلية من الاحتداد سنة كاملة. وقد قال العلماء إنَّ العدة هذه أمر تعبدى، والعبادات لا مجال فيها للعلة ولا للرأى ولا للتدخل من البشر، بدليل أن المتوفى عنها زوجها إن كانت حاملاً ووضعت حملها بعد وفاة زوجها بيوم واحد فقد انتهت عدتها بوضع الحمل، لقوله تعالى: ﴿**وَأُوْلَاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ**﴾[1] ولما ثبت فى صحيح البخارى عنه ﷺ أنه أجاز لمن مات عنها زوجها ووضعت حملها قبل انقضاء تلك العدة المحددة بأربعة أشهر وعشرًا أن تتزوج، ولا تنتظر مرور تلك المدة، فيجب أن نفرق بين حق الله تعالى وبين النظرة البشرية لمن كان سببًا فى تلك العدة، فقد انتهى الزواج ورحل الزوج، وقضاء العدة أصبح واجبًا شرعيًا على الصغيرة والكبيرة، تعتد الصغيرة لوفاة زوجها الذى لم يدخل بها إن مات عنها وترثه، مع أنه لم يعاشرها معاشرة الأزواج ولم ير منها شيئًا، أيجوز لهذه أن

(١) الطلاق: ٤.

تقول إنه لو طلقنى قبل الدخول بى فماله علىَّ من عدة - وهذا صحيح - فما الفرق؟ لقد انتقل إلى ربه ولم يدخل بى فلماذا أعطل حياتى وأحبس نفسى وأتقيد وأبتعد عن الزينة والكحل وألزم بيتى تلك المدة وما كنت زوجة إلاّ على الورق.

إن العلل لا مجال لها هنا، فالأمور التعبدية توقيفيَّة، عندها نقول: سمعنا وأطعنا، وللزوج حرمة ومكانة، وللزوجة حق طلب التطليق فى حياته متى أصابها الضرر الشديد الذى تستحيل معه العشرة، فإن رضيت وتحملت من أجل أولادها، أو لأى سبب آخر محتسبة ثواب ذلك عند ربها فلها ذلك، فإن مات ورأته كابوسًا قد انزاح فليس قضاء العدة مثل قضاء أجله الذى أراحها من شره وأذاه فهذا حق الله.

الفصل الخامس

حديث القرآن الكريم عن بيعة المؤمنات

المؤمنات يبايعن كالمؤمنين

- ١ -

مثلما بايع الرجال رسول الله ﷺ بايعته النساء، وهنا نجد القرآن الكريم يؤثر التعبير بـ«المؤمنات»، قال الله - عز وعلا - فى سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١) .

إنَّ كل مؤمنة إنما هى امتداد للمؤمنة التى بايعت رسول الله ﷺ وأخذت العهد والميثاق، واستحقت قبوله ﷺ بيعتها، واستحقت أن يستغفر لها الرسول ﷺ ، والله غفور رحيم.

وأول العهـد الإيمـان، سواء أكان ذلك عهـد رجـل أو امرأة، الإيمان بالله وحده لا شريك له، أى سلامة العقيدة فى صدرها، والعقيدة الصحيحة تقتضى الإيمان بالغيب، واليوم الآخر وما فيه من بعث ونشر وحشر وصراط، وجنة ونار، ويقتضى كذلك الإيمان بكمال صفات الله - عز وعلا - من القدرة والعلم والسمع والبصر وغيرها، والإيمان بالرسل جميعًا بأنهم رسل الله الأذكياء المبلغون عن الله رسالاته، الصادقون الأمناء على الوحى كلهم لهم كل كمال بشرى، يليق بهم، وكلهم إخوة لعلاَّت، أبوهم واحد، وأمهاتهم شتى، والمرأة فى زماننا فى أشد الحاجة إلى العلم الدينى، فقد تصل إلى أعلى درجات المناصب، قد تكون رئيسة مصلحة ومديرة مدرسة وعميدة كلية جامعية ووزيرة وسفيرة، وما زال برأسها فكر يقول لها: إن

---

(١) الممتحنة: ١٢ .

وصولك إلى الأعلى والأعلى يتحقق بزيارة ضريح أو فتح كتاب أو قراءة فنجان، أو عَمَل عَمَلٍ عند (الشيخ نملة) والرجال ليسوا أبرياء من ذلك، ففيهم من يؤمن بذلك، وفى الرجال والنساء مَنْ لا يزال يقول: «احنا اصطبحنا بوش مين النهاردة» ومازلنا نرى الخرز الأزرق على صدور النساء وفى أصابعهن ونراه كذلك فى أصابع بعض الرجال وفى صدور المتأنثين منهم ممن يعلق سلسلة حول رقبته، والاعتقاد فى ذلك ضرب من ضروب الجهل الذى يخالطه بعض شرك.

فأول العهد، وأول البيعة، وأول الأعمال: «لا إله إلا الله» والعقيدة من العقد والعقدة والعهد والميثاق، والقوة والرباط، وإنما بدأت كل الأعمال فى الإسلام بدرس العقيدة، وتقوية العقيدة، وذكرها، لأن جرح العقيدة ليس كأى جرح، فإن جرحت العقيدة فقد ذهبت بالكلية، وإذا جرح العمل عولج بالتوبة والاستغفار، إنّ أعمال الكافرين كما صورها القرآن الكريم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف، ومعنى ذلك هو قول الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[1] وما عسى أن تجد من عمل جعله الله - تعالى - هباء منثوراً!

وذلك لفساد عقائدهم، فكل عمل ينبنى على عقيدة فاسدة عمل غير مقبول، كما أن كل عمل ليس على عمل المسلمين فهو رد على صاحبه.

وكثير من الناس لا يذعن للحق فى محاولة علاجه والأخذ بيده، حتى إنّ منهم مَنْ يرفض الذهاب إلى طبيب مع أنه متورم جاحظ العينين منتفخ البطن، مهدود القوى ويؤثر الذهاب إلى الدجال، أو وضع تراب مشى عليه مجذوب مدعيًا أنه طاهر، وأن فى هذا المجذوب سرًا لا يعلمه إلا الله - عز وعلا -.

ومسألة السر هذه مسألة خطيرة، يطيب لنا أن نتحدث فيها فى غضون كلامنا عن العقيدة وما يلتبس على الناس إنّ السر هو ما غاب عنك، فكل أمر لا تعلمه هو بالنسبة إليك من الأسرار، وما منا إلاّ ويغيب عنه أشياء كثيرة، ولا أحد يعلم كل شيء إلاّ الله - عز وعلا. ونحن مأمورون بالبحث عن بعض هذه الأسرار، لقد قصد

(١) الفرقان: ٢٣.

عبدالله بن عمرو بن العاص سعد بن أبى وقاص حين سمع من رسول الله ﷺ ثلاث مرات فى ثلاثة أيام أنه من أهل الجنة، ليقف على سر ذلك، فهو يرى منه ما يرى من نفسه ومن غيره، وما دام النبى ﷺ قد صرَّح بأنه من أهل الجنة ولم يصرح بذلك لأحد غيره إذن فهناك سر، فما الذى يمنع أن يبحث عنه شاب متطلع إلى الجنة شأنه فى ذلك شأن كل مسلم؟ فذهب إليه، وادعى أن بينه وبين أبيه شيئًا، وأنه أقسم ألاَّ يدخل عليه ثلاثة أيام، وطلب إليه أن يؤويه هذه المدة إنْ أراد، فاستجاب سعد بن أبى وقاص، ورحب به، فدخل وهو ينوى مراقبته ليتأسى به، فلما لم يجد منه زائدًا على ما يعملون صارحه بالقصة فقال له: على ما رأيت، ثم ناداه، وقال له: إنما أضع جنبى على فراشى وما فى صدرى شر لمسلم ولا حقد ولا حسد فقد استبان الأمر، وانكشف الغطاء عن السر، الذى نستطيع أن نكتبه فى نقاط جمعناها من سيرته.

- إنه مسلم مجاهد، شهد مع النبى ﷺ المشاهد، وجمع له النبى ﷺ بين أبيه وأمه، فقال له: ارم بأبى أنت وأمى أو فداك أبى وأمى.
- إنه كان يتحرى طيب طعامه وشرابه، لقول رسول الله ﷺ له حين سأله أيدعو الله له حتى يكون مستجاب الدعوة: «أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة».
- إنه كان يسبغ الوضوء إذا توضأ، أى يغسل أعضاءه على أكمل وجه.
- إنه كان إذا تقلب فى نومه ذكر الله وكبرّ.
- إنه كان يذكر - عز وعلا - بعد صلاة الفجر إلى أن يفطر وهذه الثلاثة من قول ابن عمرو عنه حين لازمة الليالى الثلاث.
- إنه كان ينأى بنفسه عن الفتن ومواضعها، ويمتنع عن إيذاء الناس.
- إنه حين مرض تصدق بثلث ماله.
- إنه كان يحب قضاء الله - تعالى - فيه أشد من حبه للدعاء.

فقد عمى بصره آخر أيامه، وكان الناس يأتونه لكى يدعو لهم، فيدعو لهم،

فيستجيب الله - عز وعلا - دعاءه، ويشفى مريضهم، ويفرج الكرب عن مكروبهم، ويقضى حاجة الراغبين منهم، فقال له أحد الشباب المسلم: يا عمى، هلاَّ دعوت الله - تعالى - كى يرد إليك بصرك، فقال له: يا ابن أخى، إنّ حبى لقضاء الله - عز وجل - أشد من حبى لرد بصرى.

وتلك الصفات التى جمعناها عنه ﷺ لم تكن سرًّا إلاّ قبل البحث عنها، ومادمنا قد اطلعنا عليها فلم تعد سرًا والذى بقى علينا هو التأسى بها، وإذا كان المثل الأعلى والمثال الذى يحتذى هو رسول الله ﷺ فهل كانت عبادته سرًّا حتى نولع بالأسرار!

إنه ﷺ مَنْ علَّمَنَا كيف نعبد ربنا، وماذا نقول فى ركوعنا وسجودنا، وهو القائل: «صلوا كما رأيتمونى أصلى» والقائل ﷺ: «خذوا عنى مناسككم» ومعنى ذلك أننا نصلى مثلما كان يصلى فى الأداء وإن لم نصل إلى خشوعه وتقواه، ومعروف ليس سرًا أنَّ رسول الله ﷺ كان جوادًا كريمًا فهل تحلينا بالكرم؟

وليس سرًّا أنه ﷺ كان قرآنا يمشى، فهل مشينا والقرآن الكريم فينا أمرًا بكل معروف ونهيا عن كل منكر؟

وليس سرًا أنه ﷺ كان خير النَّاس لأَهْلِه، فهل نحن فينا الخير لأهلنا؟

أنترك سيرة نبينا ﷺ ونبحث عن أسرار فى البشر؟ من أين جاء هؤلاء بأسرارهم؟

حديث القرآن الكريم عن بيعة المؤمنات

- ٢ -

حول البحث عن أسرار الصالحين

من كلمات أهل التصوف المقبولة، وجملهم المشهورة، التى تمثل الحق، وتأخذ بالعقول السليمة نحو الرشد والهدى: إذا رأيتم الرجل يمشى فوق الماء ولا يعمل بكتاب الله - عز وجل - وسنة رسوله ﷺ فلا تصدقوه، ولا تتبعوه، هذه الجملة منهج العلماء المتصوفين وقد جعلتها مفتاحًا للكلام عن الأسرار التى يكتفى بإطلاقها كثير من الناس. فكتاب الله - عز وعلا - ليس سرًا، وإنما هو بلسان عربى مبين، أمرنا الله - تعالى - باتباعه، والعمل بكل ما فيه، ورزق قارئه أجرًا، وسامعه أجرًا مثله، وجعل تلاوته عباده، وجعل مَنْ يطلبون الهدى فيه مهتدين، والقرآن الكريم هدى للمتقين، لا تفنى عجائبه، ولا يخلق جديده، وهو الكتاب دون سواه، وهو كلام الله، وكل كلام مع تكراره يمله مَنْ يستعيده، والقرآن الكريم لا يمله من يكرر تلاوته، وقد يقول بعضهم: أليس ذلك من أسراره؟! فأجيب: إن العلماء حين يقولون من أسرار القرآن الكريم فمعنى ذلك أنه من عطائه، ومن فيوضاته، ولا يعنون بالأسرار ما خفى؛ فأنت إذا أحسست بارتياح، ولم تشعر بملل وأنت تقرأ السورة من القرآن الكريم، أو الآية من سورة فأى سرٍّ خفى عليك، كان سرًا قبل أن تعلمه، وكان نورًا غبت عنه، فهداك الله - تعالى - إليه من رحمته بك.

إنّ عقبة الأسرار وذروتها وضعها القرآن الكريم فى سورة البلد، حيث قال ربنا - عز وعلا -: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦)﴾[1] .

(١) البلد ١١ وما بعدها.

فمن أراد أن يقتحم العقبة، فليفك رقبة، يحررها من عبوديتها للبشر، ويكون سببًا فى تلك المكرمة، أو يطعم يتيمًا قريبًا له، أو مسكينًا محرومًا فى يوم شديد، وظرف عصيب، جاع فيه اليتيم والمسكين.

وأنت ترى فى السورة الكريمة السؤال والجواب، حيث يقول ربنا - عز وعلا -: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ وهذا السؤال، والجواب قوله - عز من قائل -: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦)﴾.

وفى سورة الأحزاب يقول رب العالمين: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[1] فاى سرٍّ بعد هذا؟ إنَّ مَنْ كان يرجو الله واليوم الآخر تأسى برسول الله ﷺ وكيف يتأسى مَنْ يرجو الله واليوم الآخر بسر؟ لابد أنه يتأسى بما يراه، وما وصل إليه، وكما أشرت كان رسول الله ﷺ أوضح من الشمس فى عباداته ومعاملاته، عرفنا كيف كان يقرأ القرآن الكريم، فقد كانت قراءته مدًّا، يقف عند آخر الآية وكان عليه الصلاة والسلام يحب أن يسمعه من غيره، وقد قيل له أأقرأه عليك وعليك أنزل.

وعرفنا أن رسول الله ﷺ كان يحب المساكين ويزور المريض، ويطعم الفقير، ويسأل عن أصحابه ويزورهم ويزورونه، يحدثهم ويحدثونه، يتخولهم بالموعظة خشية أن يملوا، يحب الرفق فى الأمر كله، ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، رحيم بالأطفال، يداعبهم ويقبلهم، ويعطيهم بواكير الفاكهة، ويلاطفهم، ويختار لهم الأسماء الحسنة ويدعو لهم بالبركة والعلم، وكان خير الناس لأهله كان فى مهنة أهله، أى فى خدمتهم، وكان يأكل ويشرب، ويصلى وينام، ويصوم ويفطر، ويحب اللحم والحلواء، ويجاهد فى سبيل الله، كان أشجع الناس، وأوفى الناس، لا يخشى فى الله لومة لائم، يحب الماء العذب، ويشرب اللبن، ويحب العسل ، ويجد راحته فى الصلاة، وكان أكثر ما يصوم فى شعبان، وقال هذا شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، يصلى العيد فى الخلاء؛ لأن المسجد ما كان يتسع لجموع المصلين كما

---

(١) الأحزاب: ٢١.

قال الإمام الشافعى، ويذهب إلى المصلى من طريق، ويعود من طريق آخر لتحدث البركة، وليشيع البهجة هنا وهناك، وكان يشم طيبه إذا مشى، يبدأ باليمين، ويحبه، ويحب فى الله، ويبغض فى الله، قال فى رجل كره خلقه: بئس أخو العشيرة، فلما لقيه أحسن لقاءه وابتسم فى وجهه فلما سألته أم المؤمنين عائشة عن تفسير ذلك بين لها ولأمته جميعًا أن شرَّ الناس من هجره الناس اتقاء فحشه، وهو ﷺ ليس بفاحش، ولا بذىء، دعا إلى الله - تعالى - بالحكمة والموعظة الحسنة وعفا عمن ظلمه، وكاد تنفطر نفسه وذلك من أجل أن يؤمن الناس جميعًا، إذا سلَّم على أحد لم يكن أول من ينزع يده، بل كان الذى يسلم عليه هو الذى يبدأ بنزع يده، يحب أولاده وأحفاده، ويعدل بين أزواجه ويذكر الفضل لأهله، قال فى أبى بكر: ما أحد أمن علينا بنفسه وماله من أبى بكر، وقال فى عمر: لم أجد عبقريًا يفرى فريه، وقال فى عثمان: ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم حين اشترى بئر رومة ليشرب منه المسلمون، وعرف للناس منازلهم، وقال فى سعد بن معاذ: قوموا لسيدكم، وقال: أنزلوا الناس منازلهم، قال أنس: خدمته عشر سنين، فما قال لى لشىء فعلته: لم فعلته وما قال لى لشىء تركته: لم تركته؟ أوصى أمته بالنساء؛ لأنهن عوان (أسيرات) عند أزواجهن استحلوهن بكلمة الله، وقال: الله الله فى النساء وقال للحادى الذى يغنى للإبل فتسرع: رفقًا بالقوارير حيث كانت النساء فوق الإبل:

أوردها سعد وسعـد مشتمل

ما هكذا تورد يا سعد الإبل

وحرَّم المسلم على المسلم دمه وماله وعرضه، ما نطق بسوء، وما تسبب فى أذى، قال لمن أخرجوه وآذوه: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وما أكثر ما تحفل به الآثار من صفاته ﷺ وأعماله، ومع أنه ﷺ تورمت قدماه من كثرة القيام، ولما سئل أجاب بأنه يحب أن يكون عبدًا شكورًا قال: «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» والسواك مطهرة للفم ومرضاة للرب، ولما خرج فصلى بالناس القيام فى رمضان لم يزد على ليال معدودة، حتى كثر

الناس فى المسجد، وجاءوه لكى يصلى بهم، فقال: خشيت أن تكتب عليكم، أى كفرض عليكم، وقد تحدث عنه القرآن الكريم فقال - عز وعلا -: **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾**[١] .

وفى سورة الحجرات يقول الله - عز وعلا -: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾**[٢] والعنت: التعب والمشقة، وهو ﷺ لا يحب ذلك لأمته، وقد نصح لشباب المسلمين أن يصوموا صيام داود بعد أن قال لهم: صوموا ثلاثة أيام من كل شهر، وكانوا مصرين على صيام الدهر كله، فنصح لهم أن يصوموا يومًا وأنْ يُفْطِرُوا يَوْمًا، فلما بلغوا العمر الذى فيه لا يطيقون هذا الصيام الكثير قالوا: يا ليتنا سمعنا كلام رسول الله ﷺ .

فأى سرٍّ بعد هذا لطالب السر، إنَّ قولك كان لفلان سرّ، كلام صحيح باعتبار أنك لا تعرف شيئًا عن حياته، فإذا بحثت وجدت هذا السر عملاً بكتاب الله وسنة رسوله، فلو وجدت غير ذلك فلا تصدق، كما قال المنصفون، وحيث إن السر قد بان، فلنعمل وعقيدتنا السليمة مستمدة من القرآن.

---

(١) التوبة: ١٢٨ .

(٢) الحجرات: ٧ .

حديث القرآن الكريم عن بيعة المؤمنات

- ٣ -

سرقة النساء... المؤمنات لا يسرقن

وبعد البيعة على التوحيد، وعبادة الله وحده، لا شريك له، وإخلاص العبودية له، تأتى بيعة النساء المؤمنات على ألاَّ يسرقن، وقد تحدث العلماء فى ذلك عند سورة المائدة: **﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**[١] ، وقالوا: قدم السارق هنا على السارقة لأن الغالب فى السرقة للرجال، لأن الرجل هو المنفق المسئول، فهو أقرب إلى الوقوع فيها، بينما قدم ربنا تعالى الزانية على الزانى فى قوله من سورة النور: **﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾**[٢] . لأن المرأة فى الغالب تكون سببًا فى جريمة الزنا بما تفعله من زينة فى نفسها، وخضوع فى قولها، وتمكين المجرم منها، وعلى أية حال فهما شريكان فى المسألتين، تسرق المرأة ويسرق الرجل وتزنى المرأة ويزنى الرجل، ويتوب الله على من يشاء، ويرحم من يشاء بقدرته وعظمته متى أخلص العبد لله النية وحصن نفسه بالدعاء وإخلاص النية، واستعاذ بالله - جل وعلا - من الإثم والفسوق والعصيان، واتبع الوسائل المساعدة على ذلك مما نذكره هنا إن شاء الله - تعالى.

يقول الحق - سبحانه -: **﴿وَلا يَسْرِقْنَ﴾**[٣] أى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئًا ولا يسرقن.. وإذا كان العلماء كما أشرت ذكروا أن تقديم السارق على السارقة فى سورة المائدة لأنَّ الرجل مسئول وهو الذى ينفق، وقد يضطر إلى السرقة بسبب تحمل هذه المسئولية - وليس ذلك عذرًا له - لكنه كما يقول:

---

(١) المائدة: ٣٨. (٢) النور: ٢. (٣) الممتحنة: ١٢.

مظنة، فهذا فيما أرى فى السرقة الخارجية وأعنى بها سرقة الرجل خارج سربه ودربه وحيه، وجيرانه، هو يسعى فى تحصيل رزقه، يخرج إلى العمل، فيسرق فى الطريق، أو يسرق فى عمله، ونحو ذلك.

وهناك من النساء مَنْ تخرج للعمل، وتفعل ذلك مثلما يفعله الرجل، لكن سرقة النساء فى الغالب سرقة داخلية داخل عمارتها وبين جاراتها وصواحبها، وكانت المرأة المخزومية التى حاول أسامة بن زيد أن يشفع لها عند النبى ﷺ حتى لا يقطع يدها فقال له: أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة إنَّ مما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، ولو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها، وفيه دليل على أن فاطمة ؓ سيدة الشرفاء، وجاء التمثيل بها من أجل ذلك، أى لو سرقت ابنة محمد على ما هى عليه من الشرف والمجد لقطع سيد ولد آدم أبوها - عليه الصلاة والسلام - يدها، كانت تلك المرأة المخزومية تستعير من جاراتها الماعون وتنكر أنه عندها، وهذه سرقة تتكرر كثيراً بين النساء، تستعير الواحدة من جارتها بعض الأشياء من أجهزة، وأطباق، وأدوات، ثم لا تردها، فإن طولبت بردها قالت إنها قد سلمتها وهى كاذبة، فهى بذلك سارقة، وقد تستعير من صاحبتها حليًا، ثم تطمع فيه، ولا ترده، وهكذا وقد تعرض صاحبتها عليها ما اشترته من حلى، من باب (الفرجة) وليس معناها السعة، وإنما معناه الاستعراض، والنساء مولعات بهذا الاستعراض أكثر من الرجال، فتنشغل عنها، فتتركها، فتسرق منه شيئًا، أو تعرف موضعه فى البيت وتأتى فى زيارة أخرى، فتسرقه على حين غفلة من صاحبتها ثم تتركها بالقبلات وفى حقيبتها أو فى صدرها ما أخفته من حليها سرقة، فإن اكتشفت ذلك واتصلت بها قالت: قولى حسبى الله ونعم الوكيل، ولكن ألا تعرفين من ارتكب هذه الجريمة، أصلك طيبة، كده أنا أخاف آجى عندك تانى، فترد عليها قائلة:

- حرام عليك، ما أنت صاحبة بيت وصديقة عمرى أنا عارفة هى فلانة مافيش غيرها.

- بلاش تتهميها حرام أحسن تكون بريئة!

وتسرق المرأة سرقة داخلية من بيت زوجها لتساعد أهلها، وقد عدّ ذلك العرب سرقة، فقالوا: وبرها سرقة، وكان ذلك من أسباب كرهها ودفنها على قيد الحياة، وقد قال النبى ﷺ لهند: خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف، أى دون إسراف فى الأخذ من مال زوجها البخيل، مع أنه زوجها، ومع أنها ستأخذ للإنفاق على نفسها وعلى أولاده الذين هم أولادها..

وقد شاع فى هذا الزمان تعليل سرقة النساء بسبب بخل الزوج، تقول الزوجة: إنه ينفق الكثير على أصحابه وأحبابه ونحن بماله أولى، ومنهن من تسمى تلك السرقة إدخاراً، تقول أنا أدخر من ماله دون علمه وأحتفظ به عند الحاجة، ومنهن من تشترى بعشرة وتقول لزوجها اشتريت بعشرين، فيصدقها، وتعلل لنفسها ذلك بأنها قد اجتهدت، وفاصلت البائع فالباقى من حقها، وهذا غير مقبول من الوكيل الذى تعطيه عشرة ليشترى بها شيئًا معينًا، فإذا به يجتهد ويشترى ذلك المعين بنصف الثمن ونحو ذلك فالواجب عليه أن يرد الباقى، فإن سمحت نفسك له بأن تترك له الباقى كان حلالاً له؛ لأنه بطيب نفس منك.

والسرقة من الرجال والنساء جريمة، وقد نهى الإسلام عنها، وحرمها، وعالجها، وتلك حضارة الإسلام، وهو فى علاجها على نظام المعادلات، حيث إنه أوجب على الأغنياء الزكاة والصدقات لسد حاجة الفقراء والمساكين والمحتاجين، وأوجب النفقة على ولى الأمر، فلا يسرق ولد، ولا بنت، ولا زوجة، يقول للقادر ادفع، تصدق، أنفق، أحسن، تطوع، زدْ، وخير الصدقة ما أغنى، ويقول للفقير: لا تسرق، يقول للزوج: وسّع على أهلك قدر طاقتك ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[1] ويقول للزوجة والأولاد: اتقوا الله وخذوا بالمعروف، تلك المعادلة التى ليس فيها ظلم لأحد، فالغنى يدفع من ماله جزءًا معلومًا لا يضره، والفقير والمحتاج يأخذان ويقنعان، حتى يبارك الله - تعالى - فى القليل، وقد نصح النبى ﷺ لأمته أنَّ مَنْ أخذ المال بسخاوة نفس بورك له فيه، ومَنْ أخذه بإشراف نفس وطمع لم يبارك له فيه

(١) الطلاق: ٧.

حتى امتنع بعض الصحابة عن السؤال نهائيًا حين سمع ذلك، وخاف عدم البركة، وشرع عقوبة السارق والسارقة قطع اليد، لأنه رمز للأخذ، والغالب فيها أنها تمتد للسرقة، وفى ذلك زجر وتأديب لمن تطلع إلى ما عند غيره.

ولَمَّا قال أعداء الإسلام والذين لم يفهموا نصوصه، ولم يقفوا على حقيقة أمرها والغرض منها، والنتائج المترتبة على الجريمة قالوا إن قطع اليد عمل وحشى، وليس حضارة، ولو نظروا إلى ما يترتب على ذلك من إصلاح المجتمع كله لقالوا لقد كان الإسلام فى منتهى الرحمة، فإن مَنْ قطعت يده يتأدب ويكون عبرة بين الناس، فمن طوعت له نفسه أن يسرق نظر إلى مقطوع اليد فاعتبر، ومن العوامل المساعدة على عدم الوقوع فى السرقة ذكر عقاب الله، والعمل من أجل التكسب، والمحافظة على الصلاة فى أوقاتها، وعدم صحبة رفاق السوء الذين يجرون أصحابهم إلى الهاوية شيئًا فشيئًا، وعدم التطلع إلى ما عند الناس، والزهد فيه، وكثرة النظر إلى ما عند المرء من نعم، فإن أحدًا لا يخلو منها، وإعادة النظر فى رزق الله - تعالى - حيث إننا مازلنا ننظر إلى أن نعم الله - تعالى - مالٌ فقط، ونسينا الصحة والعافية ونور البصر والبصيرة، والتوفيق فى الحصول على زوجة صالحة، ورزق الولد الطيب، والجار الطيب وغير ذلك.

حديث القرآن الكريم عن بيعة المؤمنات

- ٤ -

ولا يزنين

ونصت آية البيعة، بيعة المؤمنات على ألاّ يزنين، أى يبتعدن عن الزنا، ولا يقعن فيه.

والزنا من الكبائر، وتعفه الحرة لدناءة من تقع فيه ولذلك وجدنا هند عند هذه المسألة تتعجب، وتقول: «أو تزنى الحرة يا رسول الله»، أى إنّ الحرة بطبعها لا تزنى فكيف تكون بيعة على عدم الزنا والحرة لا تزنى أصلاً بدين وبغير دين.

وإذا كانت هذه الكلمة دليلاً على أنّ الحرة فى منأى عن تلك الفاحشة، فإنها دليل كذلك على أن الإسلام لم يحرم شيئًا تشتاق إليه الطباع السليمة، وتحبه النفوس السوية، وإنما حرم شيئًا تعافه الحرائر، وقد حارب الإسلام جريمة الزنا التى تنتهك فيها الأعراض، وتختلط بسببها الأنساب، وتورث أصحابها الندم الطويل، وهى لحظات شهوة تمر سريعًا - بعدة وسائل، **أولها**: الدعوة إلى الزواج المشروع: لما كانت حاجة الذكر إلى الأنثى، وحاجة الأنثى إلى الذكر غريزة فى بنى البشر، شرع الله - عز وعلا - الزواج وطنًا للقاء، وأرضًا للمباشرة، وسكينة للنفس، وغضًا للبصر، وتحصينًا للفرج، وانطلاقًا إلى حفظ النوع وإنجاب الولد، ودعا إلى تلك الشريعة المسلمين والمسلمات، خصوصًا الشباب؛ لأن الحاجة عندهم أشد، والغريزة فيهم أقوى، والرغبة لديهم جامحة بشرط أن يكونوا قادرين على تكاليفه، وفى الوقت نفسه أمر أولى الأمر أن يساعدوهم، وأن ييسروا أمر الزواج عليهم: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ

والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم﴾[1].

والثاني: أنه دعا إلى المحافظة على تلك الحياة الزوجية، وجعل من الزواج عبادة، للزوج ثوابه وأجره على ما ينفق «حتى اللقمة تضعها فى فم زوجتك صدقة» حديث البخارى، وللزوجة ثوابها وأجرها بما أحسنت وأطاعت، «أيما امرأة باتت وزوجها عليها غاضب باتت تلعنها الملائكة حتى تصبح»، وجعل للخلافات الزوجية حلولاً، ودعا إلى تدخل العقلاء الأمناء من أهله وأهلها ﴿إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما﴾[2] إذا خيف حدوث شقاق بينهما؛ فهما على الجدار الواحد الذى يجب أن ننظر إليه فإن وجدناه متماسكًا سليمًا حمدنا الله، وإن أبصرنا مقدمات للتشقق والتصدع بادرنا إلى الإصلاح والترميم إنْ كان يصلح، وإن وجدنا الأمر على خلاف ذلك فرقنا كل طوبة عن أختها برفق قبل أن ينهال الجدار وينقض، ويسوء الأمر وتكثر الآثام. ويستفحل الخصام.

ومما حافظ به الإسلام على الحياة الزوجية أنه صانها بالعفة، ودعا إلى إقامة حدود الله فيها، فلا ينظر جار إلى زوجة جاره، ولا تنظر جارة إلى زوج جارتها وغير ذلك: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾[3] وفى الآية بعدها من سورة النور كذلك: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾[4].

وثالثها: أنه أباح للزوج أن يتزوج بأكثر من واحدة: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في

---

(١) النور ٣٢. (٢) النساء: ٣٥.
(٣) النور ٣٠. (٤) النور: ٣١.

الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾[(١)] وبعض الرجال يزعم أن الجمع بين امرأتين أو ثلاث أو أربع حق للزوج، وليس كذلك، فهناك فرق بين الحق والمباح، فالحق لابد منه، والمباح ليس واجبًا، الحق واجب، والمباح اتساع لمن كان فى حاجة إليه كمرض الزوجة، أو حاجتها إليه، أو عدم قدرتها على القيام بحقوقه، ونحو ذلك، وكما أباح للأزواج من الرجال أن يجمعوا بين امرأتين أو ثلاث أو أربع، أباح للمرأة أن تفارق مَنْ تكره، لتتزوج غيره أو تحيا بلا زواج إنْ كانت غير راغبة فيه، وإنما لم يبح لها ما أباح للرجل من الجمع بين الأزواج؛ لأنها إناء، حتى لا تختلط الأنساب، وقد أثبت الطب الحديث أنّ جمع الرجل بين النساء لا يتسبب عنه ضرر على العكس من جمع المرأة بين أكثر من رجل، وعلى أية حال لا ضرر على واحد من الزوجين إذا استحالت الحياة بينهما.

ورابعها: نهى الإسلام عن المشى فى الطريق الذى يؤدى إلى الوقوع فى تلك الجريمة النكراء، فقال الله - عز وعلا-: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾[(٢)] ولا شك أن النهى عن قرب الزنا نفهم منه أن النهى عن الزنا أشد، وفيه من العناية بالوقاية ما فيه، ومعنى الآية من سورة الإسراء: لا تتساهلوا فى المعاملات والعلاقات قائلين إننا نثق فى أنفسنا، ونثق فى أخلاق بناتنا وأزواجنا فلا ينبغى أن نتجرأ على أحكام ربنا - عز وعلا - وأن نترفع عنها، وأن نظن فى أنفسنا أننا أعلى من النهى الإلهى، وأن ذلك للضعيف المهزوز، والمريض الفاسد، فالنهى عام، يشمل المسلمين والمسلمات، العلماء والجهال، الأقوياء وغير الأقوياء، فكل باب يأتى منه الريح لا تضمن أذاه، وعلى المسلم أن يصون فرجه ويحفظ نفسه، ويقيها نار جهنم وساءت مصيراً بالبعد عن كل ما يقربه من تلك الجريمة، والذين يفهمون معنى الآية الكريمة فهمًا صحيحًا يأخذون بالوسائل المساعدة التى تعينهم على ذلك فمن ذهب إلى زيارة صاحبه ولم يجده ولم يجد محرمًا مع زوجته فليمتنع من الدخول والتفرد بها، ولا يركبه الغرور قائلاً:

---

(١) النساء: ٣.   (٢) الإسراء: ٣٢.

بالثقة، وأنه مثل أخيها، (متربيين سوا)، فبئست التربية إنْ كانت هناك تربية تدعو إلى ارتكاب ما حرم الله، وكل موضع فى السنة والآثار أدى إلى اختلاط الرجال بالنساء تقرأ فيه: وهذا يجوز إن أمنت الفتنة أو عند أمن الفتنة، بأن تكون كبيرة مسنة، أو أن يكون معه غيره، وفى الجامعات لا يضر أن يكون الطلاب والطالبات فى قاعة واحدة إذا جلس البنين إلى جوار البنين والبنات إلى جانب البنات مع التربية والتنبيه والتحذير من التسامح فى الدعابات والنكات وسوء العلاقات خارج القاعات، فإن الضرورة التى أدت إلى وجودهم فى قاعة واحدة لا تمتد إلى خارجها إلاّ بالتى هى أحسن، وفى البيت حذر النبى ﷺ من الحمو، وقال: الحمو الموت، وهم الأقارب لأنهم يدخلون البيوت والناس لا ينكرون ذلك، ولا يعيبونه، فهم لا يدفعونهم، والله - تعالى - يقول: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾[1] .

وخامسها: أنه شرع حد الزنا، ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2] وهذا بالنسبة إليهما إن لم يكونا محصنين أو كان أحدهما غير محصن، أى غير متزوج، أما الرجم فعقوبة الزانى المتزوج الذى انصرف عن الحلال إلى الحرام، ومن تلك العقوبة يرتدع من يتجرأ على هتك العرض، ويمشى فسادًا فى الأرض وما من شك فى أن توقيع العقوبة على المذنب جزاءً وفاقًا، وردعًا لغيره وتخويفًا له، ومن ثم قال ربنا - تعالى - : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حتى يروا ويرووا، يروا بأعينهم إقامة الحد، ويرووا لمن لم يشهد عذابهما ما حدث، فيشيع فى الناس ما كان من ذل وهوان، فلا يقترب منهم شيطان ليوقعهم فى هذا الإثم والعدوان.

---

(١) البقرة: ٢٥١. (٢) النور: ٢.

حديث القرآن الكريم عن بيعة المؤمنات

- ٥ -

ولا يقتلن أولادهن

لم تعترض هند على قتل المرأة أولادها كما اعترضت من باب التعجب على أن الحرة من الجائز أن تزنى، وكأنها ترى أن زنا الحرة ليس فى حاجة إلى بيعة لاجتنابه، فهى تجتنب تلك الفاحشة بطبعها، وترى كذلك أنّ الحرة من الجائز أن تقتل ولدها، فهى تبايع رسول الله ﷺ على ألاّ تقتل ولدها.

على ألا تقتل ولدها بمشاركة الرجل الراغب فى ذلك فقد كان زوجها - وذلك من طرق الوأد - يأمر زوجته أن تعد ابنتها وهى فى العاشرة من عمرها، وتجعلها تلبس أجمل ما عندها، لكى تصحبه فى زيارة أهلها، وهى تعلم أنها ستصحبه إلى الموت، وأنها سوف تخرج ولن تعود أبدًا، وكان ذلك الأب القاسى يصحب ابنته وفى الطريق يأتى عند بئر، ويأمرها أن تنظر فيه لكى تصلح شكلها وهيئتها إذا نظرت فى الماء وشاهدت وجهها، كأنها تنظر فى المرآة، فإذا فعلت دفعها إلى البئر فأغرقها، وتخلص منها.

على ألا تقتل ولدها خشية الفقر، فإن الخطاب فى قول الله - جل وعلا -: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾[1] خطاب للرجال والنساء على سواء.

على ألا تقتل ولدها خشية أن يصيبه مكروه، وذلك إن طلقت من زوجها، وكانت فقيرة، تقول: الموت له راحة، وهذا يتبع قتله خشية الفقر.

على ألا تقتل ولدها لأن الطب الحديث قد أخبرها بأنه سيولد معوقًا، وعندئذ

(١) الأنعام: ١٥١

تبادر إلى قتله فى رحمها، بما يسمى الإجهاض، وقد شاع ذلك فى زماننا، ومَنْ تسأل لتعرف حكم الشرع فى ذلك إنما هى ثابتة عن غيرها، وشاهدة عللى حدوث ذلك ممن لم تسأل، وهو مما لا يجوز شرعًا، وليس معنى التقدم العلمى أن ننزلق إلى ما حرم ربنا، وأن نقتل أولادنا بأيدينا.

القتل بكل صورة حرام حرام حرام، قال الله - تعالى -: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)﴾[1] والقتل المعروف جنائيًا وهو التخلص والتصفية الجسدية - ذلك المصطلح الشائع الذى يسلكه العدوان والبغى فى كل مكان، ذلك القتل حرام، ويبقى القتل المعنوى، وهو إهمال الولد، وعدم العناية به، وعدم تربيته تربية إسلامية صحيحة، بحيث ينشأ مقتولاً وإن كان يمشى على قدم، ضائعًا وإن كان ينام على سرير، جائع وإنْ كان يرتع فى المطابخ، ويأكل كل فاكهة حلوة، ويشرب كل شراب طيب لذيذ، مسافر وإن أقام مرهق وإنْ نام، هذا القتل تجنى الأم ثماره الخبيثة قبل غيرها، وترمى به إلى المجتمع عضواً فاسدًا فاشلاً، إنّ الأم التى ترضع ولدها لبنها ليعيش يجب عليها أن تعرف دورها فى تربيته، وتنشئته، فإن اللبن الذى يحافظ على حياته لا يكفى لاستقامة حياته وسلامة عقله وفكره، وصحة عقيدته ودينه، ومن ثم قال النبى ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» ولم يقل «يسلمانه» لأنه جاء مسلمًا على الفطرة والفطرة الإسلام، ولابد له من معين، وأهم وسائل العون التربية والتعليم، وإذا كان النبى ﷺ قال: «فأبواه» فإن دور الأم أخطر، وأثرها أشد، ذلك أن الطفل يصحب أمه فى صغره أكثر مما يصحب أباه، إنها تعلمه النطق، وتزرع فيه العادات، وكيفما تضع له العلامات يتبع، ويسير، ولذلك قال أبو الأسود الدؤلى لأولاده: وأحسنت إليكم قبل أن تولدوا، فلما قالوا له: كيف؟ قال اخترت لكم أمكم.

والحق أنَّ عبارة قالتها امرأة مازالت فى معناها تعطى إشارات خطيرة، حيث قالت: «والله (هكذا بالقسم) نحن نجتهد فى إضاعة أولادنا» هذه المثقفة الواعية التى ساقت عبارتها مؤكدة بالقسم والتى قالت فيها «نجتهد» أى نحن لا نضيع أولادنا رغمًا

---

(١) التكوير ٨ و ٩.

عنا، ولا نضيعهم ضياعًا عاديًا، وإنما نجتهد في إبادتهم، ومسح هويتهم، وتشويه أفكارهم، والقضاء على فطرتهم، وغرس المفاسد فيهم، وذلك بانصرافنا عنهم، وانشغالنا عن تربيتهم، إنَّ بيوتًا كثيرة من بيوت المسلمين أصبحت تعانى الجفاء والفراغ وفقدان الصلة والاتصال بين الأولاد وبين آبائهم وأمهاتهم، أصبح جميع الناس يعرفون ذلك ولا ينكرونه، ومن عجب أنك تسمع الناس يقولون: «ضغوط الحياة هى السبب» أى أن الوالد يعمل والوالدة تعمل، ومتطلبات الحياة كثيرة، والأسعار غالية، والبيوت خواء والأولاد على شفا حفرة من النار، من بيوت المسلمين بيت يترك الأولاد لشغالة أجنبية، وبيت يترك الأولاد لحضانة مَنْ تعمل فيها هى فى حاجة إلى من يحتضنها ويربيها، وبيت يترك الأولاد للجيران، وبيت يترك الأولاد عند جدة كبيرة، أو امرأة أجنبية كبر أبناؤها، وتحتاج إلى مَنْ يسليها ويرد عليها النفس، ومن البيوت مَنْ لم يجلس فيه أب إلى جوار ولده لكى يشرح له مسألة فى العلم وهو من أهل العلم، ولم تجلس فيه أم إلى جوار ولدها لكى تعلمه درسًا فى الحساب وهى مدرسة الرياضيات، ويكتفون بالدروس الخصوصية، ويقولون: نحن ننجح فى تعليم الطلاب ونساعدهم على التفوق، لكننا لا نستطيع أن نعلم أبناءنا، فإن قيل لهم: ولماذا؟ ردوا قائلين: لأن الوالد لا يصبر على ولده، هو يريده من أول مرة يفهم، لكنه يصبر على غيره؛ لأنه يعلمه في مقابل مادى، وهذا عكس ما قاله الله – عز وعلا –: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1] .

إن لم يكن من الوالدين صبر على أبنائهما فلن يكون منهما صبر على غيرهما، ثم إننا لم نتفق بعد على مسألة تفرغ المرأة لتربية الأبناء مع إيماننا وتسليمنا بأن تلك هى وظيفتها الأولى، ويبدو أنّ شرخًا أصاب هذه القاعدة التى نحفظها كالشرخ العام الذى أصاب حياتنا كلها، حيث إنَّ آفة الآفات التى تصيب مجتمعنا الإسلامى هى المفارقة بين العلم والعمل، فنحن متعلمون على البنك معلومات فى خزائن ذاكرتنا، نضغط على زرها عند الحاجة فتتخرج طازجة، تصلح الدنيا كلها إذا نُفذت ووجدت مجالاً

(١) طه: ١٣٢ .

للتطبيق، كالذى يشرح لك عند قطعة من الأرض خربة بناء بيت فوقها، الباب هنا، وخلف الباب طرقة، بل بل طرقتين، ومن الداخل بهو كبير واسع، وباب صغير فى نهاية هذا البهو، تدخل منه على حديقة كبيرة خلف المنزل من الناحية البحرية، حتى يدخل الهواء النقى إلى حجرات النوم بالطابق الثانى، ويظل يصف لك ويصف، وأنت تفتح فاك قائلاً: «الله . . . الله» كلما وصف لك شيئًا قلت «الله» لكنك تكتشف فى نهاية الأمر أنه بيت فى الخيال، وأن غرفة واحدة فى الناحية القبلية لا نافذة فيها، ولا حديقة أمامها أو خلفها أنفع لك من هذا الخيال المرصوص، والوهم المصفوف، والفراغ الموصوف، والفرق بيننا وبين الصحابة أن أحدهم كان يأخذ الآية والآيتين ويعمل بمقتضى ما أخذ، ونحن نقرأ القرآن كله ونحفظه كله، ونسمع الشرائط التى سجل عليها القرآن كله ولا نعمل بشىء إلاَّ الذى وفقه الله - تعالى - ورحمه فأعانه على العمل بما حفظ. إننا نكثر من استعمال كلمة «يجب» و«ينبغى» و«لابد» و«ضرورى» و«وواجب» و«لازم» و«أساسى» و«طبعًا»، وتنكر ذلك كله أعمالنا، تلك آفتنا، الأم تقول: أنا زوجة ومربية أجيال وهى قاتلة هذا المعنى بانصرافها عنه بالكلية، هى خميس وجمعة هكذا قدر طاقتها، وبقية العمر لا الأسبوع فى تبديد طاقتها خارج المنزل، وفى البعد عن أولادها.

حديث القرآن الكريم عن بيعة المؤمنات

- ٦ -

ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن

وتتصل البيعة حتى تصل إلى قول الله - تعالى: ﴿**وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ**﴾[1] والبهتان كل إفك وضلال وظلم، سبحانك ينزه المسلم ربه ثم يقول «هذا بهتان عظيم» إذا سمع شائعة كاذبة لا تدعم بأربعة شهداء، ترى مَنْ ذا الذى يأتى بالبهتان، وما الدافع إلى أن يأتى به، أى شهوة سكنت رأسه، وعمرت قلبه، وتسلطت على لسانه فساق ما ساق من الأكاذيب، ولفق الروايات والحكايات ومن قبل أن يولد البهتان على اللسان فى أى مكان كان؟ لقد كان فى القلب، حيث قال القائل:

إنَّ الكلام لفى الفؤاد وإنما   جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وكيف سعت الأرجل إلى مواضع الرذيلة، تمشى بالفساد، وتتحرك بالشر، وتنطلق إلى مهاوى الغضب، أية طاقة أمدت تلك الأرجل بالحركة حتى تمشى لتنشر الفساد، أو لتشترك فى مؤامرة.

لقد أرسلت امرأة العزيز إلى النسوة فأتين، لم يكن قادمات لدرس علم، ولا لصلح بين الناس، وإنما حضرن لكى يرينها فى ضلال مبين، حيث راودت فتاها عن نفسه قد شغفها حبًا، إن نسوة تتجمع فى بيت واحدة منهن على غير هدى ولا مشاركة فى خير، ولا لكفالة يتيم، ولا لتزويج أيّم، ولا مساعدة فقيرة، وزف عروس، وصنع طعام لآل ميت نسوة يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن إنّ البيعة فى هذا الجزء من الآية بيعة على صلاح الأيدى والأرجل، الأيدى التى تمتد بالعطاء إن كانت

(١) الممتحنة: ١٢.

أيدى مؤمنة، رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا، لا الأيدى التى تمتد إلى أيدى الرجال لتصافح مصافحة سوء، تضغط على يد الرجل توقظ فيه الرغبة إلى الفاحشة، وتصرفه عن حلاله وزوجه وأهله وأم أولاده، تمتد ووراءها الحلى من الذهب ليبث رنينها فى قلبه موسيقى الهوى، وأرجل تحمل صاحبتها إلى كل سوء وفاحشة، إنّ امرأة ذهبت إلى صاحبتها بحجة أنّ الكلام لا ينفع فى التليفون، سعت إليها لكى ترى بعينى رأسها شكلها، وتتفقد مواطن الضعف فيها، وتضع أناملها على جبينها قائلة:

- امسحى عرقك ودمعك، فإنه لا يستحق دمعة، وهى تعلم فى قرار نفسها أنه هدية الله إليها، وأنه خير الرجال، وتظل تردد على مسامعها عبارات التشجيع على الغضب والفراق، وهى تعلم أن كلمة حق وردت فى آية ﴿والصلح خير﴾ كفيلة بأن تكون سببًا فى وصل ما انقطع وإصلاح ما فسد، لكن شيطانها مازال واعظًا، وخراب صدرها من الإيمان والخوف من الديان يتسع يومًا بعد يوم حتى إنها تريد أن ترى كل النساء مطلقات كما طلقت هى من زوجها، تقول لها:

- ألم أقل لك إنه جنس متوحش لا يستحق الخير كلهم كذلك يا أختى!

إنَّ الربط بين البهتان والافتراء ليس من قبيل الصدفة، وإنما هو الحق المبين، فالبهتان لابد أن يكون افتراء أى كذبًا مؤلفًا، وهو يمتد من العمل الحسى إلى العمل المعنوى، انظر إلى قوله - تعالى - من سورة يونس: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾[1] .

أى أن الكفار طلبوا منه ﷺ أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن، فأمر ربنا - عز وجل - رسوله أن يقول لهم: ما يكون لى أن أفعل ذلك، لأنه هو الذى أوحى إليه ولبيان أن التبديل افتراء قال الحق - تعالى -: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾[2] .

(١) يونس: ١٥ و ١٦. (٢) يونس: ١٧.

أى أنه لا أحد أظلم من الكاذب، فالكذب افتراء، والكذب جريمة، والكذاب مجرم، بنص الكتاب الكريم، ومن النساء مَنْ هى مولعة بتأليف الأخبار، وإجادة فن الإيقاع بين الناس، ورمى المحصنات الغافلات ببهتان وقد ذمَّ القرآن الكريم مَنْ رموا مريم - عليها السلام - بجريمة الزنا، وهم اليهود، قال الله - تعالى - فى سورة النساء: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾[1] .

وما من شك فى أن الجريمة نفسها بهتان لما فيها من ظلم وفساد، وتهاون وتساهل فيما عظمه الحق - تعالى - وقد مدح الله - عز وعلا - المؤمنين، ووصفهم بأنهم لفروجهم حافظون إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، والكلام عن المؤمنين يشمل الكلام عن المؤمنات، بطريقة التغليب، تغليب الذكور على الإناث فى الخطاب، وعليها غالب أساليب الذكر الحكيم.

فالبهتان يشمل الزنا كذلك، وكأنه أكد البعد عنه بعد قوله - تعالى -: ﴿وَلا يَزْنِينَ﴾ وعلى ذلك يكون قول ربنا - عز وعلا - ﴿وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ عامًّا شاملاً البعد عن كل بهتان بالقول باللسان، والفعل بالأيدى والأرجل، وتكون الآية دعوة إلى طهارة ما يتأتى بالأيدى، وما يتأتى بالأرجل، وما من شك فى أن الأيدى والأرجل والجوارح شاهدة على المرء يوم القيامة ذكرًا كان أو أنثى، قال الله - عز وعلا - فى سورة فصلت: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾[2] .

فلما رأى أصحاب النار أنّ السمع والأبصار والجلود تشهد يوم الدين عليهم حدث بينهم وبين أعضائهم هذا الحوار الذى سجلته السورة بعد ذلك، حيث قال عز وعلا: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3] ثم تستطرد الجوارح قائلة: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا

(١) النساء: ١٥٦. (٢) فصلت ١٩ و ٢٠. (٣) فصلت: ٢١.

تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)﴾[1].

وإذا كنا مأمورين بتدبر آيات القرآن الكريم وحاولنا أن نتدبر هذه الآيات من سورة فصلت تجاوزنا هذه الآيات المعطيات الظاهرة الواضحة التى تقول إنّ الجوارح شاهدة على أصحاب النار بما كانوا يعملون، إلى حقائق، منها أنَّ هذه الجوارح مسخرة، وأنَّ الله عز وعلا - قد مكن الإنسان من استعمالها، فهى تطيعه وإن كانت غير راضية عما يعمل، بدليل أنها قالت: أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون. ومنها أنَّ من يفعل المنكر قائلاً حين يسمعه: نمتع آذاننا واهم، وأن مَنْ ينظر إلى العورات قائلاً: نمتع أبصارنا: واهم، كذلك فإن نفسه الأمارة بالسوء هى التى ترغب فى هذه المتعة الحرام، ويوم القيامة ستشهد بلا شك عليه بما عمل. فليرحم المسلم نفسه وأعضاءه، والمؤمنة التى تجدد العهد وتمضى على الطريق التى سماها القرآن الصراط المستقيم لا تأتى ببهتان، تفتريه بين يديها وأرجلها، ولتطهر جوارحها، ولتستعملها فيما يرضى الله - وتصل بها إلى رحمته ورضوانه.

---

(١) فصلت ٢٢ و٢٣.

حديث القرآن الكريم عن بيعة المؤمنات

-٧-

ولا يعصينك في معروف

أمرنا الله - عز وعلا - باتباع رسوله ﷺ وجعل هذا الاتباع دليل إثبات منّا على حبنا لله خالقنا ورازقنا، حيث إننا نقول: إننا نحب الله، فأرشدنا الله إلى طريق الإثبات، وطريق التحقيق، فقال عز وعلا: **﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**[1] ، أي يا عباد الله، إن كنتم تحبون الله فاتبعوني، لأن رسول الله ﷺ الوسيلة والواسطة بين الحق - تعالى - وبين عباده، يبلغ عن الله وحيه، ويشرح لهم مجمله، ويبين لهم مراده، وهو قرآن يمشي على الأرض، وقد أمرنا ربنا - عز وعلا - بقوله: **﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾**[2] فاتباع رسول الله ﷺ مما علم من الدين بالضرورة، وهو واجب، على كل مسلم ومسلمة، والمؤمنات بايعن رسول الله ﷺ على طاعته في كل معروف؛ لأنه ﷺ لا يأمر إلاّ بمعروف، ولا ينهى إلاّ عن منكر، ومن ثم قال ربنا - جل وعلا -: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾**[3] فمن أطاع رسول الله ﷺ فقد أطاع الله، كما قال الله - تعالى -: **﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾**[4] ، وقد رأينا مَنْ يعلن حبه لله وحبه لرسول الله وهو بعيد كل البعد عن منهج الله، وسنة رسوله.

إنَّ خلافًا يمكن أن يصل حد العراك والخصام في مسألة من المسائل التي لا يترتب عليها شيء، وهي مسألة «اللهم صلّ على محمد» أو «اللهم صَلِّ على سيدنا محمد»

(١) آل عمران: ٣١. (٢) الحشر: ٧.
(٣) الأنفال: ٢٤. (٤) النساء: ٨٠.

حيث تجد جماعة تتمسك بالنص، وأخرى تتمسك بالأدب، والنص فى الصحيح حين سئل النبى ﷺ: كيف نصلى عليك؟ فقال: «قولوا: اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم».

والذين يقولون: «اللهم صل على سيدنا محمد» يقولون: لقد ثبت فى الصحيح قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم» فهو سيدنا بلا شك، ولو أننا اتفقنا على أنَّ كلتا العبارتين صحيحة وأنّ هذا جائز، وهذا جائز، ثم بحثنا عن الأمور التى تثبت والدلائل التى ترشد وتبين حبنا الحقيقى لسيدنا رسول الله ﷺ لكان ذلك أولى وأجدى وأنفع، فالذين يحبون النبى ﷺ ويعسرون ما يسره، ويخالفون عن أمره حذرهم الله - تعالى - من ذلك فى آخر سورة النور، حيث قال الله - تبارك اسمه - : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)﴾[١] .

والمؤمنة فى طاعتها رسول الله ﷺ تتمسك بهديه فى الفقه المنوط بها، وقد نهى رسول الله ﷺ أن تحتد امرأة على ميت فوق ثلاثة إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً.

فما بالنا بالمرأة التى تحتد مجاملة لصاحبتها التى مات أبوها، أو زوجها فلا تتنازل عن ذلك حتى تخلع صاحبتها السواد، والسواد ليس علامة حزن، ولا دليل حداد، وقد أمر النبى ﷺ المرأة أن تتصدق، ومر عليهن فى العيد، وأمرهن بالصدقة، فكن يخلعن حليهن، ويتصدقن بها، حتى لا تقول مسلمة إنه ﷺ قال: على كل مسلم صدقة ولم يقل: على كل مسلمة.

وأكثر ما وصى رسول الله ﷺ النساء بالزوج، وطاعته متى كان ذلك فى طاعة الله - عز وعلا - حيث لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، وهو القائل: اطلعت

(١) النور: ٦٣ و ٦٤.

على أهل النار فوجدت أكثر أهلها النساء فلما قلن: ولم يا رسول الله قال: لأنكن تكفرن العشير وتكثرن الشكاية، فمن أرادت أنْ تطيع رسول الله ﷺ فعليها أنْ تعترف بحسن زوجها، وذكر حسناته إذا غضبت؛ لأن معنى كفران العشير أى الزوج أنها إذا أحسن إليها زوجها الدهر، وأساء ذات مرة قالت: والله ما رأيت منك خيراً قط. وكثرة الشكاية صفة مذمومة فى حق المرأة والرجل على السواء، قال يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[1]، ومعنى ذلك أن الذم فى كثرة الشكوى، وقد اشتكت المرأة إلى الله فأنزل فيها قرآنا: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾[2] وأما ما نشاهده من كثرة الشكوى مما يدل على أن الشاكى لا يعترف بأنّ الله - جلت قدرته لم ينعم عليه يومًا بنعمة، فهو كلما خرج من ضائقة دخل فى ضائقة جديدة، وكلما قربت من الفرج ضاقت من جديد، وهكذا، وأن امرأته مريضة، وابنته مطلقة، وولده فاشل عاطل، وأنّ الوارد لا يكفى الصادر، وهكذا، وكأنه يشكو ربه، ويسيء أدبه: ولم ينظر فى خير عنده، وعنده من الخير والنعم ما لا يحصى، وقد قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[3] وقال عز وعلا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[4] .

ووصى النبى ﷺ المرأة ألا تصف جارتها (أو زميلتها) لزوجها كأنه يراها، تكون قد اطلعت عليها فى بعض حالاتها، فتصف ذلك لزوجها بالتفصيل، كأنه يراها، ووصى النبى ﷺ المرأة بالعفة، وألا تستفرغ صحفة أختها المسلمة، أى: لا تسعى فى طلاق أختها المسلمة حتى تتزوج هى زوجها من بعدها، ووصاها بما وصاها الله تعالى - ألا تسخر من غيرها، كما قال تعالى - فى سورة الحجرات: ﴿وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾[5] .

ووصاها النبى ﷺ بالرحمة حين قال: «ودخلت امرأة النار فى هرة حبستها»، حيث لم تطعمها، ولم تتركها تأكل من رزق ربها فى الأرض، وقد وجدنا فى زماننا نساءً تدمع أعينهن على كلب وقطة وتقول: «مسكينة يا حرام» وتعطف عليها،

---

(١) يوسف: ٨٦. (٢) المجادلة: ١ (٣) الضحى: ١١.
(٤) غافر: ٦٠. (٥) الحجرات: ١١.

وتطعمها، وتراقبها، وتعرف أحوالها، وتتفقدها، وتصحبها إذا مرضت إلى الطبيب البيطرى ليوقع الكشف عليها، ويكتب لها الدواء، وتحفظ عنه المرض وسببه، وطرق علاجه، فى الوقت الذى لا تسأل فيه عن زوجها مريض السكر والكبد والضغط، ومن عجب أنك تسمع منها قولها: «إنها خير منه وأفضل»، وهذا من اعوجاج الفكر والوجدان، وقلب الآيات، كما يقولون.

وما من شك فى أن الرحمة بالحيوان من الإيمان، لكن إذا لم يكن هناك إنسان يستحق الرعاية والحنان، أو اتسعت الطاقة للإنسان والحيوان معًا، وقد خلق الله الحيوان وجعله مهيئًا للمعيشة خارج الجدران، أما الإنسان فإنه خارج الجدران فى طريقه إلى الضياع.

الفصل السادس

حديث القرآن الكريم عن نساء النبى ﷺ

جاء حديث القرآن الكريم عن نساء النبى ﷺ فى عدة مواضع مرتبطًا ببعض القضايا الدينية، ففى سورة الأحزاب جاء حديث القرآن عنهن مرتبطًا بالتخيير بين زينة الحياة الدنيا والرغبة فيما عند الله - تعالى - يقول ربنا: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾**[1] .

قال العلماء إنهن أردن حياة مرفهة، وأن نساء الملوك يعشن فى القصور، ويلبسن الحرير، والحلى، وأن نساء النبى ﷺ لسن أقل منهن، فنزلت الآيات، وكان التخيير، وبدأ النبى ﷺ بعائشة، وطلب إليها أن تستشير أبويها لصغر سنها، فقالت: أفيك أستشير أبوى يا رسول الله، بل أخترت الله ورسوله، وخيرهن النبى ﷺ واحدة واحدة، فاخترن الله ورسوله. فكن أمهات المؤمنين.

والحق أنَّ قضية تخيير نساء النبى ﷺ من القضايا التى تحتاج إلى بيان وتوضيح، حيث إنَّ كثيرًا من الناس يظن أنَّ الدنيا والآخرة نقيضان، وأن الذين يختارون الدنيا لا حظ لهم فى الآخرة، والذين يريدون الآخرة لاحظ لهم فى الدنيا، وأنَّ هذا معنى قول الله - تعالى: **﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾** [2] أفلا نقرأ الآية بعدها، وهى قول الله - عز وعلا-: **﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)﴾**[3] .

وتدخل قضية الزهد فى رحاب آيات التخيير من سورة الأحزاب، ويرى بعض

---

(١) الأحزاب: ٢٨ و ٢٩. (٢) البقرة: ٢٠٠. (٣) البقرة: ٢٠١ و ٢٠٢.

الناس أنَّ هذه الآيات دليل الزهد فى الدنيا، وما من شك فى أنَّ الزهد فى الدنيا معناه على غير الشائع فى عقول كثير من الناس، فالزهد فى الدنيا لا يعنى الإعراض عنها، ولا إهمال قضاياها، ولا الحرمان من طيباتها، فالله عز وعلا يقول: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾[1] ويقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[2] ، وفى الصحيح: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» ويدعو الإسلام إلى إعداد القوة لمواجهة الأعداء، والزود عن العقيدة والأوطان: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[3] .

وقد كان النبى ﷺ يحب اللحم والحلواء، ويشرب العسل واللبن، ويرتدى جميل الثياب والبردة، ويضع الطيب ويحبه، ويكره أن تظهر منه رائحة غير طيبة ويدعو بالبركة لأصحابه، والبركة الزيادة فى القليل الموجود، وكان - عليه الصلاة والسلام - يدخر قوت سنة كاملة لأهله، وقال - عليه الصلاة والسلام -: «إنَّ النفس إذا كان معها قوتها اطمأنت»، وهو الداعى إلى العمل والكسب الحلال فمن خرج يبحث عن عمل ورزق يعف نفسه وينفق على أهله فهو فى سبيل الله، ولأن يأكل أحدكم من حطب يجمعه على ظهره ويربطه بحبل خير من أن يسأل الناس، والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير.

إن المسألة فى الحقيقة مسألة الترفيه والترف والتطلع إلى المزيد من وسائل الترف، والشغل به والانشغال به عن العمل والإنفاق، والنظر فى الآخرة وما ساقه المسلم إليها من زاد ينفعه هو الكلام.

ذلك لأنَّ التمادى فى الترفيه ووسائله والانشغال به خطر كبير يهدد الحياة بكاملها ويقضى على فضائلها، وأقل نظرة فى ذلك تكفى دليلاً عليه، فلو أنّ إنسانًا قصد

---

(١) الأعراف: ٣١. (٢) الأعراف: ٣٢. (٣) الأنفال: ٦٠.

السوق ليشترى شيئًا وسأل: هل هذا أحدث شيء، لغشه من قال له: نعم، لأن هذا أمر لا ينتهى، ولو أن إنسانًا أكل صنفًا من الطعام وقال: أليست هذه أحدث طريقة فى إعداده، لكان كذلك مغشوشًا إذا قيل له نعم، ولو أن إنسانًا أراد أن يجمع كل الصنوف من الطعام على مائدته بشتى طرق إعدادها ما وسعها بيته، ولن يجد مكانًا ترص فيه الأوانى، فأكلة واحدة تجد الناس قد تفننوا فيها وأضافوا إليها، ومن شغل نفسه بذلك كله لم يجد وقتًا لشيء، ومن أراد أن يجمع بين هذه الصنوف جميعها كان مسرفًا، وأعياه ذلك وأتعبه، لكن الاكتفاء بنوع يقيم صلب المسلم كى يعمل ويصلى هو المطلوب. إنَّ دواليب المرفهين تئن بحمل ملابسهم التى لا يستطيعون ارتداءها فى وقت واحد، والمولعون بالترفيه لا يشبعون، كالمولعين بجمع المال لا يشبعون منه أبدًا، فلو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لتمنى ثانيًا، ولو كان له واديان لتمنى ثالثًا، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب، وهذا هدى النبى ﷺ وهو الذى لا ينطق عن الهوى. إنّ بعض الناس يتسلمون شققًا تملكوها من شركة بناء وتعمير، أو بنك تعمير وإسكان، لا ينقصها شيء، وتراهم يقضون زمنًا غير قليل فى تكسيرها، وتغييرها، وتعديلها، وغير ذلك مما نجده عند الذين لا نصفهم ولا يصفون أنفسهم بالترفيه فما بالنا بالمرفهين الذين ربما غيروا الأوانى فى كل وجبة، وأكلوا الوجبة على مراحل، مرحلة المقبلات ومرحلة المنتهمات، ثم مرحلة المتممات، ثم مرحلة الحلويات إلى آخر ذلك الأمر الذى يجعلك تعيد النظر فى تاريخ سلفنا الصالح الذين أكلوا ثمرات، وصلوا الركعات، وجاهدوا فى سبيل رب الأرض والسماوات، وغزوا الفلاوات، وغرسوا الجنات ورفعوا الرايات، مع أنهم أكلوا مع ذلك طيب اللحم، وشربوا لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين.

ليس معنى أن التى اختارت الله ورسوله أنها اختارت الفقر، فهذا معنى ناقص بغيض. فإن الدنيا ليست فى كفة تقابلها كفة الله ورسوله، فالله - عز وعلا - هو الذى خلق الدنيا بما فيها، ورزق جميع من فيها، لكن معناه أنها اختارت نهج الله ورسوله فيها، وهو العمل على تعميرها، وإعلاء كلمة الله فيها، والزود عن ديار

الذين آمنوا وعملوا الصالحات، تكون اللقمة فى الفم لا فى القلب، وتكون الدنيا فى اليد لا فى الشريان، ويكون الحب الأكبر والتطلع الأعظم إلى ما عند الله ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[١] أن يؤثر ما عند الله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾[٢]، ومن ثم وجدنا الألوف فى يد أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها توزعها على الفقراء، وتنسى أن تدخر لها درهمًا تشترى به تمرًا تفطر عليه، حيث كانت صائمة.

(١) النحل: ٩٦.

(٢) الأعلى: ١٦ و ١٧.

حديث القرآن الكريم عن نساء النبى ﷺ

٢

الثواب والعقاب على قدر المنزلة

إنَّ كثرة النظر فى القرآن الكريم ومحاولة تدبر معانيه تكسب المسلم يقينًا على يقين، وتزيده إيمانًا على إيمان، وتجعله عند كثير من الآيات يقف متأملاً مدركًا خطورة البتر والاقتضاب، والاكتفاء باللمعة والبريق، وعظمته الأسماء إنك تجد وأنت تقرأ القرآن أنّ الحق - تعالى - يذكر مثلاً فى سورة الأنعام عددًا من الأنبياء والمرسلين نُظم فيهم شعر، وذلك لمعرفة عدد الأنبياء والمرسلين فى القرآن الكريم حتى وصلوا إلى خمسة وعشرين نبيًا ورسولاً بالمختار ﷺ قد ختموا، وأول النظم «فى تلك حجتنا» أى من أول قول الله - تعالى - فى سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾[1] والأنبياء والمرسلون المذكورون فى هذه الآيات هم إبراهيم، وإسحق، ويعقوب ونوح، وداود وسليمان وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس، وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا ثمانية عشر من الذين اصطفاهم الله، لعلك تقف عند هذه الأسماء العظيمة التى حملت رسالة الله إلى عباد الله، وبلغت عن الله، وأوذيت فى سبيله، وتحملت ما لا يتحمله إنسان، وعذبوا، وعبدوا وشكروا، لكنك تقرأ الآية رقم (٨٨) من سورة الأنعام فتقف عند معنى خطير، حيث إن هؤلاء لو أشركوا بالله لحبط عنهم ما كانوا يعملون، يقول الله - عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2] فتقول: سبحان الله كيف يمكن أن يشرك النبيون بربهم، ثم تقرأ قول الله - تعالى فى سورة الزمر مخاطبا نبيه ورسوله محمدًا ﷺ ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى

(١) الأنعام: ٨٣.

(٢) الأنعام: ٨٨.

﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١) ثم تأتى الآية بعدها أمرًا له أن يعبد الله وحده لا شريك له: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾(٢) إنّ هذا الذى سماه العلماء الفرض المحال، محال لأن الله - عز وعلا - اصطفاهم وطهرهم وعصمهم، لكن الفرض المحال بلغة العلماء فرض جائز فى غير الأنبياء، أن الشرك بالله لا ينفع معه عمل، ولا تقبل معه عبادة، ولا ينجو المشرك من العذاب حتى ولو كان نبيًا رسولاً، ويسميه بعض العلماء التهديد، وهو إن كان للأنبياء فكيف يكون لغيرهم.

وفى حديث القرآن الكريم عن نساء النبى نرى أنّ الثواب والعقاب على قدر المكانة والمنزلة، فقد اختارت أمهات المؤمنين الله ورسوله، وأقرت كل واحدة منهن بأنها فى حزب الله ورسوله، وأنها تؤثر الآخرة على الدنيا، وأنها خلعت ونزعت من قلبها حب الدنيا وزينتها، تأخذ من عرضها زادًا تتقوى به على العبادة والعمل، وتلك منزلة عظيمة، ومكانة عليا، فيخاطبهن الله عز وعلا - قائلاً لهن: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾(٣).
وبدأ بذكر العذاب، لأنه قبل ذكر إعداد الأجر العظيم على تحقق إرادتهن بأنهن اخترن الله ورسوله، وتأمل قول الله - تعالى -: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أى أن يضاعف لهن العذاب ضعفين لأن أحدًا يمكنه أن يقول: العذاب هو العذاب، فكيف يكون مضاعفًا هل بعد الشواء فى النار عذاب؟ يقول الله - عز وعلا -: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أى الذى يتخيله الناس محالاً هو عند الله وعلى الله يسير، وهذا يعطى معنى جديدًا وبعدًا جديدًا تقشعر عنده القلوب، وتختلع عنده الضلوع، فالعذاب الأليم يمكن أن يكون عذابين أليمين - ربنا اصرف عنا عذاب جهنم - لقد اعتاد القراء فى المناسبات خصوصًا فيما يتصل بسيرة النبى ﷺ من مولده إلى هجرته إلى إسرائه ومعراجه أن يتلوا هذه الآية ويقفوا بصناعتهم الموسيقية عند النبى، أى يقولون: «يا نساء النبى» يمدون الألف من «نساء» مدًا عظيمًا حتى يكون الوقف على

(١) الزمر: ٦٥. (٢) الزمر: ٦٦. (٣) الأحزاب: ٣٠.

كلمة «النبي» كالنازل من علو شديد إلى واحة خضراء، وعندئذ يصرخ العامة ويقولون: «الله» ولا أحد يتدبر التلاوة إلاّ مَنْ رحمه الله، لم يفهموا، لم ينتظروا، وقفوا عند الموسيقى التى عزفها القارئ عند النداء فقط، ولم يتأملوا ما بعد النداء، لم يتدبروا قوله تعالى: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ ثم يقول الحق - تعالى -: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾[1].

انظر إلى عدل المولى - تعالى - لقد أعد العذاب ضعفين وأعد الأجر ضعفين، فكأنّ الثواب والعقاب على قدر المنزلة والمكانة، إنّ خطأ العالم ليس كخطأ الجاهل، وليس معنى ذلك أن خطأ الجاهل مغتفر، أو أنه قليل الأثر، أو أنه لا يعاقب عليه، وإنما معناه ضياع الأمل، وفقد الثقة.

وسرقة الحارس ليست كسرقة اللص، وليس معنى ذلك أن سرقة اللص عمل جميل، وإنما معناه (مَنْ يحرس إذا كان حاميها حراميها)، وكذلك تتعدد الأمثلة والنماذج التى تصل بنا إلى أن مكانة الأمة الإسلامية برمتها مكانة عالية؛ لقول الله - عز وعلا -: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2] فخطأ الأمة برمتها فى تخلفها وتأخرها، وفقرها خطر عظيم، وذنب كبير، فهذه الأمة أمة الكتاب: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)﴾[3] . الكتاب الذى وضعناه له موسمًا لختمه ه شهر رمضان، وعرفناه مصحفًا مزركشًا مطبوعًا على ورق جميل، . يوضع فى علب قطيفة، وتقبله النساء، ويهدى فى المناسبات ليركن على رف، ويعلوه التراب.

إن كتاب الله - كما قال العلماء - فى صدور المسلمين وليس على الأرفف، يعملون به، لا يعطلونه، يهتدون بنوره لا يبحثون عن الهدى فى غيره، فمن طلب الهدى فيه اهتدى، ومن طلب الهدى فى غيره فقد غوى. أمة تاريخها يعود بها إلى مَنْ أرسله الله - رحمة للعالمين - حيث قال «مَنْ يزرع زرعًا أو يغرس غرسًا فيأكل منه

---

(١) الأحزاب: ٣١. (٢) آل عمران: ١١٠.
(٣) البقرة: ١، ٢.

إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له به صدقة»، وتركت أراضيها الصحراوية فارغة. واقتلعت الزرع وزرعت الأسمنت، وأحالت الأرض الولود إلى أرض عقيم، لا تنبت شيئًا، أمة أهملت القراءة والمعرفة وجلست أمام الشاشات تتفرج على تقدم غيرها، وتقول: «يا أولاد الإيه يا عفاريت.. أيوه يا عم.. مش احنا».

مش احنا ليه؟ وما سبب ذلك، إن المصير صعب والثواب والعقاب على قدر المنزلة والمكانة، إن إهانة ابنك لا تتساوى وإهانة غيره، قد يهينك غيره، ويرحل عنك فتنسى، أما ولدك إن أهانك فقد قضى عليك وإن كنت مازالت تحرك رجليك.

الفصل السابع

حديث القرآن الكريم عن عقل المرأة

العقل أشرف ما أوتى الإنسان من نعم؛ إذ إنه مناط التكليف، فمن كان بلا عقل كالمجنون فلا تكليف عليه، والتكليف شرف للمكلف والمرأة مكلفة كالرجل، فهى مثله ذات عقل اعتد به الشرع فخاطبها بما خاطب به الرجل، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾[1] وقال عز وجل: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[2] .

١- المرأة العاقلة

حديث القرآن الكريم عن ملكة سبأ بدأ بحديث عن ملك - سليمان عليه السلام ، وأنا أرى أن من حكمة ذلك تقديم ملك الإيمان على ملك الكفر، وتقديم المؤمنين على الكافرين، فقد قال الله عز وجل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾[3] وقال فى ملكة سبأ: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾[4] .

وقد عرض الله - عز وجل - ملك سليمان وما أتاه الله - تعالى - من فضله قبل أن يعرض ملك بلقيس: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[5] ويوزعون أى يجمعون ويساقون.

وتفقد سليمان الطير، فلما لم يجد الهدهد سأل عنه، وتوعده إلاّ أن يأتيه ببرهان بين ظاهر على عذره.

وجاء الهدهد بعد قليل ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[6] وأظهر برهان عذره، وقص علينا

(١) النور: ٣٠ . (٢) النور: ٣١ . (٣) النمل: ١٦ .
(٤) النمل: ٤٣ . (٥) النمل: ١٧ . (٦) النمل: ٢٢ .

القرآن الكريم من خلال قصة تلك الملكة فبين أنها ملكة سبأ، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[١] .

وبلقيس بكسر الباء اسمها، وكما قال المؤرخون: كانت ابنة شراحيل من نسل يعرب بن قحطان، وكان أبوها هذا ملكا عظيم الشأن، وقيل: ولد له أربعون ولداً، كانوا جميعًا ملوكًا، وكانت بلقيس آخرهم.

وتسللت الخرافة داخل قصته، فقيل بأنه عزف عن مصاهرة الملوك المجاورين له، حيث رأى أنه أعلى منهم وأشرف، وأنه تزوج من الجن، ومسألة الزواج من الجن التى شاع الحديث عنها فى زماننا من الخرافة ولا أصل لها، لصريح القرآن الكريم، حيث قال الله - عز وجل -: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾[٢] وأول سورة النساء قول الله - عز وجل -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[٣] .

فالزوجة من نفس الزوج، أما الجن فخلق آخر، وقد قال عز وجل: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾[٤] فالجن والإنس ثقلان، هذا من واد، وذاك من واد آخر، وقد خلق الله - عز وجل - الجن والإنس لعبادته، قال تعالى فى خواتيم الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٥] ، وما يملك الشيطان ولا أحد من أعوانه وذريته إلا الوسوسة، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥﴾[٦].

وقد قال الشافعى - رحمه الله - إن شهادة من يدعى أنه يرى الجن مردودة

(١) النمل: ٢٢. (٢) الروم: ٢١. (٣) النساء: ١.
(٤) الرحمن: ٣١. (٥) الذاريات: ٥٦. (٦) سورة الناس.

لفسقه، لأن الله - عز وجل - يقول فـي سورة الأعراف: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾(١).

وإذا كانت الرؤية ممنوعة فكيف يتم الزواج أصلاً!

فإن ادعى إنسان ذلك فهو يتحدث عن أوهام، ويجب أن يبحث لنفسه عن علاج لدى أطباء النفس وعلماء الدين، الذين يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر، وينصحون له بتقوى الله عز وجل، ومراجعة أصول دينه، وواقع حياته.

وقال لنا النظم الجليل: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

وقوله - تعالى -: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى من كل شيء يكون عند الملوك، مما يحتاجون إليه، قال العلامة سليمان بن عمر العجيلى الجمل فى حاشيته ٣/ ٣٠٥ «عام أريد به خاص» وفى هذا درس عظيم، يتعلمه الناس خصوصًا الذين يزعمون أن هناك كثيراً من النقص عندهم، فهم يقولون: ليس عندنا طيارة خاصة، وهم ليسوا فى حاجة إلى طيارة خاصة، وكذلك يقولون: ليس عندنا كذا وكذا مما هو ليس ضروريا فى حياتهم.

انظر مثلاً إلى فلاح عنده دار، وزوجة مطيعة مجتهدة فى خدمته وإصلاح معاشه، وأبناء بررة، ودار واسعة، وبقرة، وحمار، وقطعة أرض يزرعها وأدوات يحتاج إليها فى عمله فما الذى ينقصه؟

ماذا يفعل إذن بحاسب آلى؟ وما حاجته إلى سيارة ملاكى وشقة على النيل، وبيت بإحدى المدن الساحلية إن ذلك الرجل يقال فيه: «أوتى من كل شيء» أى أوتى من كل شيء يحتاج إليه مثله، وهذا لا يمنع التطلع إلى مزيد من فضل الله - عز وجل - يجب أن يشيع هذا المعنى، وأن يعرف الناس أسرار التراكيب القرآنية التى تدل على المعانى التى إن غابت عنهم أو غاب عنهم فهمها وإدراكها جلبوا لأنفسهم الشقاوة حيث تتوفر لهم أسباب السعادة.

---

(١) الأعراف: ٢٧.

(٢) النمل: ٢٣.

إن الذى يجد ما يحتاج إليه يصح أن يقول: «عندى كل شىء» هذا مدلول قوله تعالى: ﴿وأُوتِيتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى من كل شىء يحتاج إليه الملوك، وكذلك العاقلة من النساء تنظر فى بيتها وحالها وحياتها، فإن وجدت نفسها فى عيش مستقيم، وحياة طيبة قالت كما قال الله - عز وجل - «عندى كل شىء».

ولا يعترض عليها معترض من ذاتها، أو من خارجها قائلاً:

- وهل عندك كذا أو كذا مما هو معدوم، غير موجود عندها؟ فلو وفقت إلى الرد الكافى والجواب الشافى لقالت:

- وما حاجتى إلى ذلك؟

إن الحاجات لا تنتهى أبداً، كما قال الشاعر:

نـروح ونغـدو لحـاجـاتنا وحاجات مَنْ عاش لا تنقضى

وهى لا تنقضى لأن النفس لا تشبع، وقد استعاذ النبى ﷺ من هذا النهم الذى يشغل المرء عن المعالى، ويصرفه عن سمو المعانى، وشكر الله عز وجل على ما أنعم به من نعم موجودة، وخيرات كثيرة، يكون شكره الله - عز وجل - عليها سببًا من أسباب زيادتها قال الله - تعالى - فى سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[1] .

هب أن زوجة تسكن فى بيت لم تدخله الكهرباء وهى سعيدة بسكناه، وقد منحها الله عز وجل صحة وعافية، ونعمًا كثيرة، وخيرات وفيرة، وزوجًا طيبًا، ورزقًا واسعًا، وبنات يساعدنها، وبنين تقر بهم عينها، فما حاجتها إلى خلاط، وتلفاز، وأدوات كهربائية ما دامت الحياة تسير!

إنّ سلوكًا كان من خلقه ﷺ يسمو بالخلق، ويهدينا جميعًا إلى المثل العليا، فقد كان ﷺ ينوى الصيام ويتمه إذا سأل عن فطور فى الصباح فلم يجد.

وليس هذا عن ضيق بيت وفقر؛ فمعاذ الله أن نقول فيه ﷺ إنه فقير، وقد

(١) إبراهيم: ٧.

استعاذ بالله - عز وجل - من الفقر وهو أول من يجيب الله - تعالى - دعاءه، ويجيره، وينصره ولا يخزيه، لكنه بيت النبوة الذى هو بيت الأمة بحق، مصدر الخير وإشعاع النور، والنبى ﷺ ما قال لسائل سأله: لا.

وقد يصحو من النوم صاحب المليارات ويسأل عن فطور فلا يجد لتوه ولحظته، ولم يصفه أحد بالفقر والحاجة، ولو انتظر بعض الوقت لأتاه أطيب فطور، لكن النبى ﷺ حسم القضية، وآثر القرب من الله تعالى، إنه الآن ليس فى حاجة إلى طعام ولا إلى شراب.

ومن البدهى أنه عندما تغرب الشمس يجد الماء والتمر وطيب الطعام، وقلما تجد فقيراً فى الصباح غنيًا فى غروب شمسه.

لا وقت عند رسول الله ﷺ لمناقشة أمر الفطور، واعتبار ذلك مشكلة، كما هو حال كثير من الناس، الذين يقومون من نومهم للبحث عن مشكلة لأدنى ملابسة ينفعلون ويغضبون ويثورون وقد يطلقون.

هذه من الحكمة، وفى سورة البقرة يقول الله ربنا - عز وجل: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾[1].

وقد تجلت الحكمة فى ملكة سبأ حين كانت صريحة مع أعيانها ووزرائها فما أخفت عنهم كتاب سليمان، وما وصفته ببذاءة لسان، إن رسول الله سليمان عليه السلام قال: ﴿**إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)**﴾[2].

رسالة موجزة، ولكن فى معانيها الحياة، فالدعوة فيها إلى رحمة الله - عز وجل - والدعوة فيها إلى الإسلام بمعناه العام الذى لا يختلف حوله اثنان من الناس ممن يعول على فكرهم، إنه السلام مع النفس والناس، والسلام مع الله عز وجل إذ لا افتراء عليه ولا ادعاء، ولا مبادرة إلى تحريم ما أحل، ولا حل ما حرَّم.

---

(١) البقرة: ٢٦٩. (٢) النمل: ٣٠، ٣١.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)﴾[١].

والملأ: الأشراف، قال العلماء سموا بذلك لأنهم يملؤون العين.

وقولها ﴿أُلْقِيَ إِلَيَّ﴾ بصيغة المبنى للمجهول لجهلها بمن ألقاه، فلم يأت إليها بشر، سفير يدخل بطريقة معروفة، هذا إن لم تكن رأته، فإذا كانت شاهدت الهدهد وهو يلقى إليها رسالة سليمان ﷺ فيكون الفاعل قد حذف لاحتقاره عندها.

ومع ذلك سواء أكانت قد رأته أم لم تكن رأته فقد درست الرسالة، وقرأت ما فيها، ودعت الملأ إليها وأخبرتهم بمضمون الرسالة ونصها.

ثم ذكرت علة ذلك الخطاب بقولها ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾[٢] إنها إذن قادرة على اتخاذ القرار، وحسم المسائل، ليست عاجزة ولا قليلة الحيلة، وإنما تلك سياستها التى سبقت بها عشاق ما يسمى الديموقراطية.

وقد اختار الملأ من قومها الحرب على سليمان، حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[٣] أى نحن جاهزون للقتال، مستعدون، بالعدد والعدة، فماذا كان منها؟!

لم تقل: وهذا أملى ورجائى، هيا ننسف من بعث إلينا ينهانا عن التعالى ونحن أهله، ويأمرنا بأن نأتى إليه، إن خطراً يتهددنا الآن يا معشر الرجال، ونحن لدينا كل شيء وأنتم مستعدون لخوض المعارك، فهيا بنا إلى ساعة من النهار نقضى بها على هؤلاء الأشرار، ونشرب نخب النصر ونرفع راياتنا، ونعود إلى بلادنا، وقد ضممنا ملك الشام إلى ملك اليمن، هيا لنكون الدولة العظمى، هيا إلى توسيع الملك وإنشاء الامبراطورية البلقيسية السبئية.

إنها الملكة العاقلة، قالت: أختبره بأن أرسل إليه هدية، فإن كان ملكًا قبلها، وعندئذ نحاربه لأن الملوك الظالمين إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة.

---

(١) النمل: ٣٠ و ٣١. (٢) النمل: ٣٢. (٣) النمل: ٣٣.

وأما إذا لم يقبلها فهو نبى، وعندئذ نتبعه. قال الجمل فى حاشيته ٣/ ٣١٢: «وذلك لأنها كانت لبيبة عاقلة متقنة للأمور، وكانت تعرف أن النبى لا يقبل الهدية ولعل هذا كان فى حق غير نبينا، أما هو فكان يقبل الهدية ويرد الصدقة».

وفى تفسير الخازن: وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة عاقلة قد ساست الأمور وجربتها.

إنها التى لم تجد فى اتباع النبى غضاضة، ولا نقيصة تغض من قيمتها أو تقلل من قدرها، أو تدنى من منزلتها، أو تسقط من هيبتها وهذا هو العقل الذى تحدث عنه أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة يوم قتل أبوه عتبة فى بدر كافراً، وأثر ذلك فيه فسأله عنه النبى ﷺ فقال ﷺ:

كان أبى صاحب عقل كنت أود أن يهديه إلى الإسلام وكذلك هنا، أهدى عقل المرأة إلى خير حين أعملته، وأهدى عتبة بن ربيعة وأمثاله إلى أسوأ عاقبة وأقبح مصير، وصدق الله العظيم إذْ يقول فى سورة النساء: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً﴾[1].

وجاءت الهدية إلى سليمان فاستنكرها وردها وأعلم رسلها أن ما آتاه الله عز وجل من هدى ونور وملك خير مما آتاهم، واستدعى عرشها قبل أن تأتى إليه فجاء بقدرة الله عز وجل، وشكر سليمان عليه السلام النعمة.

وجاءت الملكة واستقبلها نبى الله سليمان وقد أمر بأن ينكر لها عرشها، وسألها: أهكذا عرشك فقالت: كأنه هو.

واستفاد علماء البلاغة من ذلك أن «كأن» أبلغ فى التشبيه من الكاف، لأن العرش كان عرشها، إلاّ أن ما وضع من قوارير جعلها تتوهم أنه غيره، لكن لم يخف عليها أنه يشبهه، فقالت: كأنه هو، ولما دنت منه حسبته لجة ماء فكشفت عن ساقيها،

---

(١) النساء: ٣٩.

مما يدل على أنها حرة مستورة، لا سوقية مكشوفة، والحرة تألف الستر ويألفها، والتى لا دم للحرية فى عروقها تنادى من يزيدنى سفوراً، وتعرية.

أسلمت مع سليمان بلقيس لله رب العالمين، وصدها عن الإسلام فى ديارها ما كانت تعبد من دون الله، إنها كانت من قوم راسخين من الكفر، فلما جاءت أسلمت وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] .

وقد جاء فى تفسير الكرمانى وغيره أنها غلبت فأسلمت، ومعنى «غلبت» أنها رأت ملك سليمان عليه السلام أعظم من ملكها، فإن ضممنا ذلك إلى ما وضعت هى من شرط، وما قامت هى به من اختبار، حين رأت أن ترسل إليه هديتها وما يسيل بسببه لعاب كل ذى دنيا، وقد أرسلت إليه ما ذكره العلماء من المال والمجوهرات وغيرها، فرد ذلك كله نبى الله. سليمان عليه السلام فدل على أنه رسول من عند الله - تعالى - وليس ملكًا.

والأمران يجب أن يتوفرا عند أصحاب العقيدة السليمة صحة الاعتقاد وحسن الحال.

فإنه لا خصومة بين رسالة السماء والحق والعدل وبين الدنيا، وأوضح دليل على ذلك نبى الله سليمان عليه السلام الذى جمع بين الملك والنبوة، وقد قال العلماء الذين كتبوا فى قصص الأنبياء: إنه لا تعارض بين النبوة والملك، بدليل قصة سليمان عليه السلام.

وبناء عليه فإن على الأمة الإسلامية أن تسعى إلى المجد وأن تبنى صروح العز، وأن تتقدم لتغلب غيرها صونًا لرسالتها وإعلاء لرايتها، فقد جاء فى سورة الكهف ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾[2] .

---

(١) النمل: ٤٤.   (٢) الكهف: ٢٠.

٢- المرأة الحمقاء

عجيب أمر هذه المرأة «ريطة» التى سكنت مكة، وكانت من قريش، وكان عندها جوارٍ، تبدأ معهن من أول النهار عملاً شاقًا جادًا من الغزل، توفرت لها أدواته، والأيدى العاملة اللازمة له، فكان ثم إنتاج، فإذا جاء المساء بدأت تنقض غزلها، وأمرت جواريها بنقض غزلهن.

هكذا قال العلماء، وصفوها بأنها امرأة حمقاء، وذلك السلوك سبب وصفها بهذا الوصف، وقد نهانا الله عز وجل عن التشبه بها فى نقض الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾[1] .

وكما ذكر القرآن الكريم عبقرية العاقلة الملكة ذكر حمق الغبية، وما تستوى هذه وتلك مثلما لا يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور.

التباين فى كل شىء، والاختلاف فى كل شىء وإذا كان الله عز وجل - قد نهانا عن التشبه بها حيث نقضت غزلها من بعد قوة، فإنه عز وجل قد نهانا عن نقض الإيمان والعهود، والمشبه به المنهى عنه حسى، والمشبه معنوى لكن النقض نقض، والإفساد إفساد، ومن بلاغة التشبيه وأهدافه وثمرة الإتيان به وارتكابه بيان المشبه وتوضيحه.

فالذى يحلف بالله عز وجل - مؤكدًا وعازمًا، ثم ينقض يمينه كالمرأة الحمقاء التى تغزل غزلاً عظيمًا منذ الصباح الباكر حتى إذا المساء حلّ بدأ الحل، فى الوقت الذى تطلعت إليه العيون، واشرأبت فيه الأعناق إلى ثمرة الجهد ونهاية المطاف، فى هذا الوقت الذى هو وقت الحصاد ضيعت المرأة الأمل بالخبل وسوء التصرف.

وتأمل قول الله - عز وجل - ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ حيث نسب الغزل إليها، ليدل بذلك على منتهى الحمق، فلو أنها نقضت غزل جارتها لظن أنها تنتقم، أو تغيظها، أو تعتدى عليها فى ساعة غضب، ولكنها نقضت غزلها.

والتى نقضت غزلها من بعد قوة كالتى قتلت طفلها بعدما أرضعته وغذته وقوته،

---

(١) النحل: ٩٢.

والتى ذبحت زوجها، والتى خربت بيتها بيدها، كما قال الله - عز وجل - فى اليهود: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾(١).

فقال عز وجل: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾.

منتهى الحمق أن يخرب الإنسان بيته بيده التى هى رمز للقوة يبنى بها لنفسه بيتًا، لا أن يهدم البيت الذى بناه بها، أى بتلك اليد التى هى رمز القوة، وآلة التعبير عنها.

أحمق ذلك الرجل الذى يهدم بيته بيده، ويخربه بها إنها إذا جاءت عن طريق زلزال، أو عدوان خارجى لقلنا إنا لله وإنا إليه راجعون، أما أن تأتى من الداخل فذلك فساد مبين. حمقاء تلك التى سحبت صاحبتها بيدها وأودعتها عند زوجها وتركت لهما البيت والفراغ، وفجأة قالت: أخذت منى زوجى وأمرته أن يطلقنى قبل أن تتزوج به.

● حمقاء من خالفت هدى محمد ﷺ ووصفت صديقتها له من الداخل حتى كأنه يراها.

● حمقاء من تركت بيتها وهرعت إلى بيت أبيها وتركت زوجها لأى نداء، من شياطين الجن والإنس.

● حمقاء مَنْ خربت بيتها بيدها، وكان بوسعها أن تصونه وأن تحميه من غائلة الناس ورفاق السوء.

● وأحمق ذلك الذى صحب زوجته بيده وسلمها أولياء الشيطان، وعودها على الآثام والفواحش ظانًا بأنها رحلة ونزهة، فإذا بها تنخرط وتندمج وتصبح بين يديه شيطانة وهى التى أخذها يوم أخذها كما يقولون «هرة مغمضة عينيها».

---

(١) الحشر: ٢.

فتح بيده عينيها وأطلعها على السوء والفحش، حتى صارت أسدًا جسورًا ووحشًا مفترسًا.

لقد تعود رجل أن يشرب الخمر، ولما تزوج دعا زوجته إلى مشاركته، فكرهت ذلك وعافته، فاستدرجها ورجاها، وأوهم امرأته أن مشاركة المرأة زوجها فى الشرب سبيل عظيم إلى حبها وأن ذلك يزيده رغبة فيها، ويقويه جنسيًّا، وحلف عليها بالطلاق فشربت على كره، ثم استحال الكره طواعية، وصارت مدمنة.

وجاء يوم تاب فيه الزوج، وأدرك أن الخمر حرام، وأن شربها كبيرة، وأن شاربها ملعون وحاملها إليه ملعون، فقوى على تركها، وتجنبها، وأبت زوجته أن تمتنع، وذكرته بالذى كان منها حين كانت واعظة له وهو يأبى، وصرخ فى وجهها:

- لكننى تبت.

فصرخت فى وجهه قائلة:

- بعد كم سنة، انتظرنى حتى أشربها مدة شربك إياها، وعندئذ أتوب، فلا شك أن هذه المدة كافية لرى العظام منها بدليل أنك قدرت على تركها وهجرها بعد هذه المدة، ضربها، ولطمها مع أن تجنب الوجه عند الضرب واجب دون فائدة، رآها وهى تترنح أمام عينيه فرأى صورته القديمة البشعة يوم كان مدمنًا، فقال فى نفسه: أهكذا كنت لعن الله الخمر ورائحتها وبائعها ومن اشتراها فشربها أو أهداها. أخذ يقول: ألا من سبيل إلى علاج تلك المرأة المدمنة! إنها فاسدة الخلق والدين.

ثم وقف على الحقيقة قائلاً: إنه ذنبى، أنا الذى أفسدتها، ما كان لها فى هذا الحرام، ودائمًا من أقر بذنبه ووقف على حقيقة أمره يفتح الله - عز وجل - له وعليه، هداها الله تعالى كما هداه، وطويت صفحة المعاناة وكانت ثقيلة السطور ومفصلة الألفاظ والتراكيب، وبدأت صفحة جديدة فى نور التوبة والاستغفار.

وما كل أحد يحدث له ذلك، فإن من الناس من يخرب بيته بيده ثم يندم ولات

ساعة مندم ، يندم بعد فوات الأوان. ولا يجد أحداً يقيم معه الأركان بعد أن هدمها بمعوله، وقوضها بيده.

وفى سورة الإسراء يقول الله - عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[1] .

إنها اليد التى تخرب العمران وتفسد الحياة من جهتين:

الأولى: البخل.

والثانية: الإسراف.

فالبخل شدة الحرص، وقد أوضح الحق - تعالى - ذلك المعنى باليد كما وضح المعنى الثانى باليد كذلك، فاليد المغلولة إلى العنق كناية عن البخل، واليد المبسوطة كل البسط كناية عن الإسراف، والبخل يخرب البيوت وإن ظن البخيل أنه يعمرها، فإن أحدًا لا يحب البخيل، ولا العيش معه، ثم إنه يقضى على نفسه ببخله، وقد يموت جوعًا ناظرًا إلى ماله الذى جمعه فلم يأكل منه لقمة، ولم يلبس منه ثوبًا، ولم يتفيأ به ظلال حياة.

والإسراف يخرب البيوت وإن ظن المسرف أنه سعة، لأنه ينعم بإسرافه وقتًا ثم ينتهى ماله، فإذا به يقعد تقتله الحسرات ولوم اللائمين، وأول مَنْ يلومه أقرب الناس إليه، هم الذين يقولون له:

- لم يضربك أحد على يدك، أنت الذى بذرت وأسرفت وضيعت هنا وضيعت هناك، ما كنا نريد منك شيئًا وما كنا نرجو منك عطاء.

كنا نود أن نظل فى بيتنا وأنت الذى أصررت على قضاء الإجازة فى أوروبا.. مالها مصر! أى عيب فيها؟ وكنا نود أن نأكل المعتاد من الطعام يأكله الناس وأنت من أصر على طلب الطعام من فاخر المطاعم، إن البطن لا تشكر ما فيها، سيان عندها أن تعبأ بأقل الطعام سعرًا، وأن تحشى بالغالى منه والنادر.

---

(١) الإسراء: ٢٩.

تخرج الحكمة عندئذ من الأفواه التى ما نطقت يوم الإسراف إلا بمعسول الكلام والابتسام، وكثرت السكاكين كما يقولون لما وقعت البقرة.

ومن ثم حذر الإسلام من هذا المصير السيئ الذى يؤول إليه من بخل ومَنَ أسرف، فلا عبرة بقول القائل: أنفق ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب، فإن الله تعالى قد حدثنا عن هذا الغيب قبل مجيئه، فالمؤمن يراه وكأنه حدث لا يشك فيه؛ لأنه تقدير العزيز العليم.

امرأة العزيز

هكذا جاء اسمها فلا يضييرك أن تجهل أنها «زليخا» قال الله - عز وجل: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾[١] .

أى وصل حبه إلى شغاف قلبها، ومن ثم دعته إلى نفسها، وهذا يدلنا على أن طلب المرأة الرجل لا يتأتى لمجرد الإعجاب ولا غيره ولكن فى هذه الحالة التى عبر القرآن عنها.

إنها صاحبة بيت، وامرأة عزيز مصر، وصاها زوجها حين جاء به إلى بيته بعد أن اشتراه ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[٢] .

وبقوله قالت امرأة فرعون: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[٣] .

وإنما ذكرت القولين معًا لأبين أن هناك غاية لإحياء النفس وإكرام الحى وهو النفع.

قال الله عز وجل فى سورة النساء: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾[٤] .

---

(١) يوسف: ٣٠. (٢) يوسف: ٢١. (٣) القصص: ٩.
(٤) النساء: ١١.

لابد أن ينفعك أبوك، ولابد أن ينفعك أخوك الذى من والديك، ولابد أن ينفعك ولدك، ولابد أن ينفعك أخوك المسلم، وخير الناس أنفعهم للناس.

إن درس النفع من دروس هذا الدين، ومن مبادئه، قال النبى ﷺ فى الصديق: «**أبو بكر كالغيث أينما حلّ نفع**».

وحين نهى النبى ﷺ عن تلقى الركبان قال دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض.

أى لا يخرج إنسان خارج السوق لكى يتلقى القادمين إليها وهم جاهلون بأسعار السوق، فيظلمهم، وتنفض بذلك السوق، وبعض الناس يقول لك «أنا أحبك لله» ثم يعقب قائلاً: «دون سعى إلى منفعة منك».

بل إن بعض النساء يصرخن فى أزواجهن قائلات:

أنت لا تريد طلاقى، لا لأنك تحبنى، ولكن لمنفعتك ومصلحتك، من أجل أن أكون خادمة لك ولولدك أنا خادمة لولدك دون أجر.

كيف تضع امرأة مسلمة - هى أم - نفسها موضع خادمة، والخادمة لم تحمل الولد ولم تلده ولم ترضعه! أى شىء فى هذا؟

فى البخارى باب طالما ذكرته - عنوان «باب زواج الرجل لمصلحته».

إن الحياة قائمة على المنفعة.

فى حديث إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمل الدنيا إلا من ثلاث، عمله الذى عمله فى تلك الدنيا، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له.

كل ذلك منافع

ولقد ذكر الله - عز وجل - أن فى الحج منافع، فقال: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ**

يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق (٢٧) ليشهدوا منافع لهم ﴾[1] .

وفى مجادلة الكافرين بالحجة لدحض سوء اعتقادهم جاء قول الله عز وجل: ﴿**قال هل يسمعونكم إذ تدعون (٧٢) أو ينفعونكم أو يضرون (٧٣)**﴾[2] فبنفى النفع تنتفى العبادة.

والنفع من آيات الله - عز وجل - ومن سابغ نعمه وفضله، قال تعالى فى سورة الروم: ﴿**ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**﴾[3] .

وقد مرَّ النبى ﷺ بشاة ميتة رماها أصحابها، فقال: هلا انتفعوا بإهابها (بجلدها) فلما قيل له ﷺ إنها ميتة، قال إنما حرم أكلها، أى كان عليهم أن ينتفعوا بجلدها بعد أن يطهروه بدبغه. فلماذا يتهم الناس فى علاقاتهم، كأن المنفعة سبة وكأنها عيب، أو قدح فى حسن العلاقة بين الناس.

وقد يقول قائل لأحد الناس:

لولا منفعتك منى ما عرفتنى، يرد عليه فى بعض المواقف التى يظهر فيها حبه له، وماذا فى ذلك أيضًا!

إن الله عز وجل يقول فى سورة الأعراف: ﴿**هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها**﴾[4] . أليست هذه منفعة: ﴿**ليسكن إليها**﴾!

فأى غضاضة فى الوصول إلى المنفعة عن طريق الحلال، فالنفع من البيع حلال مشروع، والنفع من الربا حرام قبيح، وهكذا. وكذا سائر أوجه النفع فى كل منحًى من مناحيه وضرب من ضروبه.

---

(١) الحج ٢٧ و٢٨.

(٢) الشعراء: ٧٢ و ٧٣.

(٣) الروم: ٤٦.

(٤) الأعراف: ١٨٩.

٢- بلوغ الأشد

قد يفهم بعض الناس أن بلوغ الأشد يقتضى الزواج أو ممارسة الشهوة، والعدوان والطغيان، وهذا الدين كتبه وحيه الشباب ومنهم زيد بن ثابت ومعاوية، وحمل رايته الشباب ومنهم عليّ كرم الله وجهه، وقاد جيشه الشباب ومنهم أسامة بن زيد، وفقه أحكامه حلاله وحرامه الشباب ومنهم معاذ بن جبل.

وقد ذكر ربنا تعالى أن يوسف عليه السلام لما بلغ أشده آتاه الله الحكم والعلم **﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾**(١) .

إنها تهيئة النفس لفهم ما سوف يأتى من مواقف وأخطرها موقف المواجهة بين صاحبة بيت ومكانة تهيأت واستعدت وغلقت الأبواب، وراودت، ولكن راودت من؟ أو مَنْ راودت؟ إنها راودت من آتاه الله - عز وجل - حكمًا وعلمًا، فالقارئ للقرآن يستشعر ما سوف يكون؛ لأنه عرف سلاح المراود عن نفسه، إنه ليس حديثًا عن الشاب الفحل الذى يضرب فى الأرض على عمى، وإنما هو حديث عمن آتاه الله - تعالى - حكمًا وعلمًا، ولذا كان أول ما نطق به **﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾**(٢) .

فلما استبقا الباب وقد قدت قميصه من دبر ألفيا سيدها لدى الباب، فما كان منها إلا أن ادعت غير الحقيقة عند مواجهة الأذى، واقترحت العقاب الذى يجب أن يكون جزاءً وردعًا **﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**(٣) .

دفع اللوم:

يقولون: ليس مَنْ رأى كمن سمع، ويقولون: مَنْ كانت يده فى النار غير مَنْ كانت يده فى الماء، من أجل ذلك أرادت امرأة العزيز أن ترى النسوة اللاتى قلن فيها: **﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾**(٤)، وكما سمعت النسوة بما كان من امرأة العزيز سمعت هى أيضًا بمكرهن فأرسلت إليهن،

---

(١) يوسف: ٢٢.

(٢) يوسف: ٢٣.

(٣) يوسف: ٢٥.

(٤) يوسف: ٣٠.

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[١].

قطعن أيديهن لما رأين مَنْ أوتى شطر الحسن ﷺ وقلن حاشا لله، ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم.

عند ذلك قالت لهن: فذلكن الذى لمتنى فيه أى أننى ذات عذر، فمن التى تقاوم هذا الجمال، ومن التى تصبر عليه دون أن تنال منه حظها، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ثم قالت: إننى مازلتُ على رغبتى، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنَنَّ وليكونن من الصاغرين.

ولعلنا نقف عند قولها: «ما آمره» لنرى أن أولى السلطان يرون الأمر فى كل شىء، حتى فى الرغبة الذاتية، والشهوة الموضعية التى لا تتحقق بالأمر، وإنما تتحقق بالرجاء والطمع والملاينة والمداهنة والملاعبة وهكذا، لكنه لسان مَنْ تعود الأمر أو تلقاه.

وللبيئة - بلا شك أثرها فى اللغة والأساليب، ومَنْ لم يفهم ذلك توهم أن مخاطبه يعامله مثلما يعامل جنده وخدمه.

انظر إلى رجل فى الجيش أو الشرطة حين يستمع إليك وأنت تخاطبه فى أى موضوع تجده يقول لك «تمام». «تمام»، «تمام»، كلمة يرددها فى حياته اليومية عشرات المرات، فهو يستعملها لأنها غالبة عليه، ملازمة لبيانه وإفادته من يسأله من رؤسائه.

● لم تدرك إحدى الفتيات هذا السر، فغضبت وأوشكت أن تفارق زوجها ضابط الشرطة، لأنها رأت أنه فى بيته كأنه فى قسم الشرطة، يستعمل الألفاظ نفسها التى يستعملها فى مكتبه فقالت له: إننى لست جنديًا عندك، أنا زوجتك... أنا هانم وعليك أن تغير لغة خطابك.

وعلى مثل هذه أن تفهم أنه لا يسيىء إليها، ولا يهين كرامتها، ولا يعاملها كأنها جندى عنده، ولكنه أثر العمل فى حياته.

(١) يوسف: ٣١.

● إن أحد قراء القرآن الكريم كان لا يلقانا بقوله «أهلاً وسهلاً» بإدغام بغنة، لأنه مدمن للتلاوة بأحكام، وأهلاً آخرها تنوين، وبعده واو، والواو من حروف (ينمو) والحكم إدغام بغنة.

● وعرفت رجلاً كان له محل (حانوتى) وهو محل معروف فكان كلما قام من نومه قال: (وحدوه) كما يقول فى الجنائز، وكانت امرأته تقول: أعوذ بالله، مع أنه كان واجبًا عليها أن تقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وقد ذكرت امرأة العزيز «السجن» لأنها تملك أن تسجنه، وقد كان.

الآن حصحص الحق

وبعد صبر النبى على الأذى، حيث دخل السجن وهو برىء من أية تهمة تستدعى هذا الحبس؛ ليعلم الناس أن أشد الناس ألمًا، وابتلاءهم الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام، وقد دعا يوسف - إلى الله عز وجل - فى السجن دون انتظار للخروج، وفى ذلك درس عظيم للمرأة والرجل ما كانت الحياة؛ فإن بعض الناس يؤجل حتى التوبة إلى حين يفرغ من أشياء، وقد يفرغ منها أو لا يفرغ، فيموت على معصية وتقصير.

ورأى الملك رؤياه، وعجز الناس عن تفسيرها وتذكر مَنْ كان صاحب يوسف عليه السلام فى السجن أن لديهم خبيراً بالرؤى من المحسنين، فقال «أرسلونى» وفسرَّ يوسف ما رأى الملك، فطلب إحضاره، فلما جاءه الرسول طلب سؤال النسوة اللائى راودنه عن نفسه ولم يخرج إلا مرفوع الرأس مبرءًا، قالت النسوة: حاشالله ما علمنا عليه من سوء.

وقالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق أى ظهر وصار واضحًا مثل الصبح: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)﴾[1].

(١) يوسف: ٥١.

إن النسوة اللائى قلن : حاشا لله ما علمنا عليه من سوء هن اللائى قلن حاشا لله ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم والتى قالت : «أنا راودته عن نفسه» هى التى قالت : «ما جزاء مَنْ أراد بأهلك السوء إلا أن يسجن أو عذاب أليم» فما أعظم أن يرجع الناس إلى الحق.

علاقة الخيال بالمرأة

عرفنا الشعر الجاهلى، وما تلاه يبدأ فيه الشاعر بالحديث عن المرأة أو ما يعرف بالمقدمة الطللية، قال زهير :

أمــن أم أوفــى دمــنةٌ لــم تَكَلَّــم بحــومانة الــدراج فالمتثلــــم

وقال امرؤ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وفى الإسلام قال كعب :

بانـت سـعاد فقلبى اليـوم متـبول متيـمٌ إثرهـا لـم يغـد مكبـول

وقال الحسن بن هانئ :

أجـــارة بيتينا أبـــوك غيـــور وميسور ما يُرْجى لديـــك عسير

وبدأ البوصيرى بردته بقوله :

أمن تذكـر جـيران بـذى سلـم مزجت دمعًا جرى من مقلـة بدم

وحاكاه شوقى فى العصر الحديث فقال :

ريمٌ علـى القـاع بين البان والعلـم أحلّ سفك دمى فى الأشهر الحـرم

وقال رائد الإحياء والبعث محمود سامى البارودى.

لبيك يا داعى الأشواق من داعـى أسمعت قلبى وإن أخطأت أسماعى

كما قال:

لكل دمع جرى من مقلة سبب وكيف يملك دمع العين مكتئب

وهكذا تجد هذا الاستهلال الذى قال فيه النقاد: إن الشاعر بدأ بذلك ليجذب انتباه السامعين إليه، فالسامعون يميلون إلى سماع الحديث عن المرأة والعشق الحب والغزل، والشكوى والجوى، ويودون معرفة أخبار الهوى كما قال الشبراوى:

فتطويل أخبار الهوى لذة أخرى

ثم يذكر الشاعر بعد ذلك ما شاء أن يذكره من أغراض الشعر، التى من أجلها نظم، وفيها أنشد، تعددت الأغراض فى قصيدة واحدة على النهج القديم أم كانت القصيدة غرضًا واحدًا على النهج الحديث المتطور.

وكنت قد قلت ذات مرة: إن هذه المقدمة الطللية بمثابة التمهيد والتوطئة للغرض الأصلى، فإن حديث زهير عن دمنة أم أوفى تمهيد لذم الحروب التى تدع الديار بلاقع، فلا أرض ولا عمران، ولا حياة ولا لقاء، والحرب تأكل الأخضر واليابس، ألا ترى قوله:

وما الحرب إلاَّ ما علمتم وذقتمو وما هو عنها بالحديث المرجم

ولما أهدر النبى ﷺ دم كعب لما كان منه من سوء كان ذلك سببًا لفراقه زوجته سعاد، ألا ترى قوله:

وقال كل خليل كنت آمله لا ألهينك إنى عنك مشغول

فقلت خلوا سبيلى لا أبالكمو فكل ما قدر الرحمن مفعول

فهو رجل يهيم على وجهه، ويضرب فى شعاب الأرض لا بيت يلجأ إليه، ولا زوج يحنو عليه، وما عاد له من أمل سوى أن يمثل بين يدى رسول الله ﷺ يرجو عفوه عنه، ورحمته به، فلما قال:

إن الرسول لنورٌ يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

خلع عليه ﷺ بردته، فكان فعله ﷺ أبلغ فى العفو والسماحة، وهكذا، وحين قال البارودى:

لبيك يا داعى الأشواق من داعى   أسمعت قلبى وإن أخطأت أسماعى

كان ينبه إلى حالته فى غربته، وبعده عن أحبته، حيث كان فى منفاه، ومن ثم فهو لا يسمع بأذنيه لبعد المكان وإنما يسمع بقلبه لقرب الوجدان.

وإنما ذكرت ما ذكرت لأبين السر فيما ذكره السابقون من زواج سليمان عليه السلام ببلقيس، فقد ذكر الطبرى والزمخشرى والكرمانى وغيرهم أن سليمان تزوج بلقيس، وأقرها على ملكها، وكان يسافر إليها كل شهر، ويمكث عندها ثلاثة أيام وهؤلاء ذكروا أنه زوجها لملك من الملوك.

وهذا الذى ذكروه أشبه ما يكون بخاتمة الأفلام العربية ونهايتها حيث تكتب كلمة «النهاية» على مشهد الزفاف، والله عز وجل قد ذكر قصتها دون أدنى إشارة إلى هذا الزواج المزعوم وهو عندى من قبيل الخيال، ولا أود ذكر ما جاء من تفصيل ينال من عصمة النبوة وكرامة الأنبياء؛ إذ لا يستقيم فى فكر المؤمن أن يكون عليه السلام قال لجنوده نكروا لها عرشها، من أجل أن يوهمها بأنها لجة حتى تكشف عن ساقيها ليراهما، وأنه عليه السلام قد قيل له إن ساقيها تشبهان ساقى حمار (انظر الطبرى ١٩/ ١٦٨).

كيف يقبل هذا؟ وكيف يستساغ؟

وخلاصة الأمر أن أى موضوع فيه امرأة تنسج فيه القصص، وتحاك فيه الأقوال، وهذا هو الدرس الذى يستفاد فى حياة الناس ومن أجل حياتهم، هذا هوالدرس الذى تجسد فى سيرة النبى محمد ﷺ حين رآه الصحابة واقفًا مع زوجته «صفية» أم المؤمنين رضي الله عنها ولم يكونوا يعرفون أنها صفية، فقال لهم ﷺ إنها صفية أى إنها زوجتى، فلما قالوا معاذ الله أن يكون عندنا شك فى خلق رسولنا، قال لهم ﷺ : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق، وهذا التعبير من قبيل

الكناية لا الحقيقة، أى هو كناية عن ملازمة الشيطان لابن آدم بوسوسته، وإلقاء الخيال فى روعه.

كان رجل من زينة القوم خلقًا وعلمًا، وأثنى عليه الناس، وقالوا فيه خيرًا، إلاّ أنهم قالوا: «لولا».

فلما سأل سائل وقال: ماذا تعنون بلولا؟

أجابوا: لولا هذا الآنسة التى تأتيه بين الحين والحين.

قال بعضهم: لعلها طالبة حاجة، والرجل كريم.

وقال آخرون: لا، فمنظرها وهيئتها لا تدلان على فقرها.

وقال آخرون: لعلها زوجته فى السر، والرجل يخشى أن يعلن ذلك لأنها صغيرة.

وقال آخرون: لعلها قريبته، من يدرى؟

فقال الذى يدرى: أقسم بالله أنها ابنته، يا ناس، حرام عليكم، ويا ليتهم قالوا: قطعت جهيزةُ قول كل خطيبة وانتهوا، ولكنهم ظلوا ينسجون قصص الخيال حتى رأوها فى ذراعه يوم زفافها الذى دعوا إليه يسلمها هدية طيبة إلى زوجها.

وقد شاع بين الناس أن الجرائم كل الجرائم إنما تقع بسبب المرأة، فقالوا: إذا أردت أن تعرف سبب الجريمة ففتش عن المرأة.

ورحم الله الشهاب الخفاجى حيث ذكر فى حاشيته ٣/ ٢٣٣ أن قابيل قتل أخاه هابيل بسبب الحسد على تقبل الله - تعالى - قربانه دونه، لا بسبب زواجه من توأمه قال الله تعالى: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[1] .

(١) المائدة: ٢٧.

وشاع عند كثير من الناس أنَّ حواء كانت السبب وراء أكل آدم من الشجرة، ومن ثم كانت سببًا فى خروجه من الجنة.

وحديث القرآن الكريم ليس فيه شىء من ذلك، فالله عز وجل يقول: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلا مِنْهَا﴾(١).

الله عز وجل يقول إن الشيطان قال «يا آدم» ولم يقل «يا حواء» فلماذا هذا الظلم منا لأول أمٍّ لنا دون بينة ودليل!

إن سبب هذا الظلم موقف الناس من المرأة أنها سبب الغواية والضلال، وأنها دائمًا وراء المفاسد، وسبب الفتنة، وكل ذلك غير صحيح.

فليست المرأة سببًا لذلك، وإنما هى شماعة يعلق عليها الناس الفشل والتخلف، لقد أشارت أم سلمة رضي الله عنها على رسول الله ﷺ أن يحلق رأسه ويذبح هديه يوم الحديبية فإذا رآه الناس يفعل ذلك فعلوا مثله دون خلاف وقد كان، ورحم الله تعالى برأيها الأمة من هلاك محقق.

وفكرة المنبر جاءت من امرأة أنصارية، كان لها غلام نجار، فأشارت على النبى ﷺ أن تصنع له منبرًا وكان يخطب إلى جذع نخلة، وقد كان حيث قبل ﷺ فكرتها، واعتلى منبره الشريف الذى كان مبدأ كل منبر.

وقد كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها سببًا فى كل خير كما قال الصحابة، فحين انفرط عقدها وكان الناس بلا ماء نزلت آية التيمم.

وحديث الإفك كذلك إنما قال الله فيه: ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾(٢).

وهو أيضًا من نسج الخيال، فقد رأى المنافقون رجلاً وامرأة فى مؤخرة القوم، فذهبت أنفسهم إلى ادعاء ما لم يكن ونسج ما لا يقبل، والله عز وجل - يقول:

---

(١) طه ١٢٠ و١٢١.

(١) النور: ١١.

﴿وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾(١) .

وقبل ذلك يقول: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾(٢) .

وفى هذا نهى عن سوء الظن بالمؤمنين والمؤمنات، وهو فى ظلال أحكام الشريعة لا يعد حكمًا، ولا يترتب عليه حد إنما تثبت هذه الجريمة بالإقرار أو بشهادة أربعة من الرجال العدول.

فما لم يكن فيه إقرار، ولا شهادة فلا يثبت به شيء، بل على هذا الذى يرمى بالجريمة دون بينة حد فى ظهره، وتلك حدود الله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ④ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑤﴾(٣) .

فإذا أضفت إلى ذلك قوله ﷺ للناس: إنها صفية وجدت معنى المعادلة فى الإسلام على أسمى نظام وأعلاه وأرقاه، فعليك أن تظن خيرًا بالمؤمنين، وعلى المؤمنين كذلك أن يزيلوا من رأسك هذا الخيال، وفى ذلك تعاون على البر والتقوى. حيث تسكن ثائرة النفوس، وتتجه إلى اليقين، لا إلى الشك والريب، وتبطل الأساطير، وتقف الحكايات موءودة قبل أن تتحرك من شرارة فتحرق الدنيا جميعًا.

يمر بك إنسان وأنت تحدث زوجتك، فيسلم عليك فترد ﷺ، وتقول له: هذه زوجتى أم فلان إن كان جاهلاً بها، حتى يمضى فى صحبة اليقين، فيفكر فى مصلحته، ويبصر طريقه ويهتدى إلى غايته، بدل أن ينسى فى أوهام الشك مقصده الأصلى، وما خرج من أجله، معادلة لا تجدها إلاّ فى دين الله الإسلام.

ومن ثم ننصح للفتاة المسلمة أن تنأى بنفسها وعرضها عن الشبهات، وأن تعلم أن مخالطتها الرجال دون ضرورة، ودون التزام بما تقتضيه الحاجة سوف يجعل الناس ينسجون حولها القصص والروايات وسوف يقولونها ما لم تقل، وينطقونها ما لم

---

(١) النور: ١٦. (٢) النور: ١٢. (١) النور: ٤ ، ٥.

تنطق، ويؤولون رمزها قصائد غزل، ونظرتها العادية نظرات عشق، وتسوء بذلك سمعتها، ويلوث بذلك تاريخها، وهذا طبع قديم فى الناس، وهى لن تقول للناس: لقد أمركم الله - تعالى - بحسن الظن بى، فإن الله - عز وجل - قال لها: **﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾**(١) ونهاها الله - عز وجل - عن التبرج وهو المبالغة فى الزينة، فذلك من سلوك الجاهلية الأولى وقد محا الله بالإسلام جهلها، وأعلى بالمكارم من الأخلاق قدرها، وبين لها السبيل، ونأى بها عن سوء الظن والريبة فطرفها فى المعادلة طرف الآخذة بأسباب العفة والبعد عن الشبهات، وطرف الناس فى المعادلة نفسها البعد عن سوء الظن وعدم الاتهام دون بينة، وما دام الله عز وجل هو الذى أمر الطرفين فليلتزم كل طرف بما أمره الله تعالى به **﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ⑲ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ⑳﴾**(٢).

وما ذكر فى قصة زواج سليمان عليه السلام ذكر كذلك فى زواج يوسف عليه السلام من امرأة العزيز، فبعد أن قالت الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين وانتهى هذا الفصل الكريم من قصة يوسف عليه السلام، ليبدأ فصل آخر مع الملك الذى استخلصه لنفسه، وولاه وزارته لما رأى منه من علم وأمانة، كان على القصاص عزيزاً أن يتركوا الماء الفرات يجرى فى جداوله، وأن ينتقلوا فى ضوء القرآن الكريم من مرحلة الصبر والعفة إلى مرحلة التكريم والمثوبة فنسجوا فى ذلك قصة زواج، وأن عزيز مصر مات فى ذات الليلة التى لقى فيها يوسف عليه السلام ملك مصر، وأن الملك زوجه منها دون عدة، حيث كان ذلك جائزاً فى شريعتهم.

وأن يوسف عليه السلام وجدها عذراء، وقد انقسموا فى ذلك قسمين:

الأول: يقول إنها كانت عذراء من البداية؛ لأن عزيز مصر كان رجلاً عنينًا، لم يستطع الوصول إليها وكانت ذات جمال فتان، ومن ثم كان يصانعها ويلاطفها.

والثانى: يقول إن الله عز وجل - قد أعادها من أجل يوسف عذراء شابة إكرامًا له.

---

(١) النور: ٣٠.

(٢) الرحمن ١٩ و ٢٠.

ولا شيء من ذلك يقبل، حيث لم يشر القرآن الكريم إليه، ولم يأت فيه حديث صحيح فى مبلغ علمى، ورحم الله الشهاب الخفاجى حيث قال فى حاشيته ٥/ ١٨٧: «ومن العجب ما رواه القصاص أنها كانت عذراء، وكذا وجدها يوسف عليه الصلاة والسلام».

وقول الشهاب الخفاجى «ما رواه القصاص» يدل على ما ذكرته من أن الأمر مرده إلى القصص والحكايات ونسج الخيال، ونحن إذا نظرنا إلى حكايات القصاص وإلى ما ذكره الحق - تعالى - فى مطلع سورة يوسف، حيث قال عز من قائل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[1] نجد أن الالتزام بأحسن القصص هو الواجب، ولو كان ما ذكره القصاص من أحسن القصص لما سكت عنه القرآن الكريم، والقرآن الكريم ليس فيه زواج يوسف بها، ولا من غيرها، وإنما فيه إبراز لحكمته وعفته وعلمه الذى علمه الله عز وجل إياه، وقد تجسد ذلك تطبيقًا عمليا فى سلوكه، فلم يهم بها، وإنما هم بصون فرجه وصرف الله تعالى - عنه السوء والفحشاء، ودخل السجن ليخرج منه بريئًا وزيرًا، لا حاملاً شهادة أرباب السوابق، ونفع الله - تعالى - به مصر وأهلها، وآوى إليه أبويه بعد أن عفا عن إخوته، وسأل الله تعالى - أن يتوفاه مسلمًا، متوسلاً إليه عز وجل - بسابق فضله عليه ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[2].

كما توسل زكريا - إلى الله - عز وجل - بذلك ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾[3].

وفى خاتمة قصة يوسف عليه السلام يقول الحق - تعالى -: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾[4] والعبرة فيما ذكر لا فيما لم يذكر، وقصة الزواج السعيد مما لم

(١) يوسف: ٣.
(٢) يوسف: ١٠١.
(٣) مريم: ٤.
(٤) يوسف: ١١١.

يذكر، لكن كيف ينصرف عنه الهوى وفى القصة امرأة؟ لما لم يجد القصاص فى النيل منها عن طريق حرام أصروا على النيل منها عن طريق الحلال، وكأنهم حلفوا بوكيد الأيمان على النيل منها بأى طريق، فكيف تطوى القصة على مباعدة!

هذا ما أرى، والله - عز وجل - أعلى وأعلم.

وما أردت أن أقوله أن المرأة سبب الخيال، هذا الخيال الذى يتولد منه الإثم عن طريق الجرأة على المعصومين، فقد ذهب النبى ﷺ إلى بيت زيد بن حارثة فلما لم يجده انصرف، وهكذا فعل ﷺ حين ذهب إلى عثمان بن مظعون لما بلغه عنه أنه أراد أن يعتزل امرأته، وأن يحرم على نفسه أكل اللحم، وأن يصوم الدهر أبدًا، لكن الخيال سرح فى قصة زيد التى قال الله عز وجل - فيها: **﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾**[1] سرح الخيال بأن جعل الجاهلون قصة حب موضوعة، وآية هوى مصنوعة، فقالوا: لما ذهب إلى زيد بن حارثة ولم يجده رأى زينب، وكانت جميلة، فقال وقد وقع حبها فى قلبه: سبحان مقلب القلوب، وسمعته زينب يقول ذلك فقصت على زوجها ما سمعته حين عاد، فعرف زيد أنه ﷺ قد أحبها، وذكر له ذلك، فطلقها وتزوجها النبى ﷺ . وكل ذلك باطل وكذب.

تحول زواج النبى ﷺ بهدف التشريع إلى زواجه بهدف العشق والغرام، وذكر هذا الضلال فى أمهات الكتب، وتناوله بعض المعاصرين مستساغًا قائلين بأنه ﷺ كان بشرًا، وليس من عجب أن يحب، وهذا خيال يؤدى بصاحبه إلى خطر عظيم.

---

(١) الأحزاب: ٣٧.

الفصل الثامن

من أعلام النساء فى القرآن

امرأة نوح وامرأة لوط

كما أن للمؤمنين مثلاً للكافرين كذلك مثل، والمثل من جنس واحد، جنس المرأة، فامرأة فرعون التى قالت رب ابن لى عندك بيتًا فى الجنة ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها مثل للمؤمنين.

وأما مثل الذين كفروا فامرأة نوح وامرأة لوط، قال الله عز وجل فى سورة التحريم: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾[١] .

وإجماع علماء الأمة على أن الخيانة المذكورة فى هذه الآية من سورة التحريم إنما هى خيانة فى العقيدة لا خيانة فى العرض والشرف، فما خانت امرأة نبى قط فى شرفها وعرضها، وهذه وقفة مهمة ربما مر عليها كثير من الناس دون وقوف.

لقد ثبت أن الله عز وجل يغفر من فضله ورحمته كل ذنب إلا الشرك، قال عز من قائل فى سورة النساء: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا**﴾[٢] .

وفى سورة النساء أيضًا يقول عز وجل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا**﴾[٣] .

وفى سورة البقرة يقول الله عز وجل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٢)**﴾[٤] .

---

(١) التحريم: ١٠ . (٢): النساء: ٤٨ . (٣): النساء: ١١٦ .
(٤): البقرة: ١٦١، ١٦٢ .

وغير ذلك من الآيات البينات التى تدل على أن الكفر رأس الكبائر، ومنتهى الضلال، ومعنى ذلك أن شيئًا ما لن يصل إلى حد الكفر أبدًا.

والكفر أول منفى عن عباد الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ يلى ذلك ﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ يلى ذلك ﴿وَلا يَزْنُونَ﴾[1].

وفى الحديث الصحيح أن أكبر الذنب الشرك بالله، فلما سأل السائل: ثم أى؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك فلما قال: ثم أى؟ قال: أن تزنى بحليلة جارك.

وفى حديث السبع الموبقات نجد أن أولها الشرك بالله والسؤال هنا: كيف عصم الله - عز وجل نساء الأنبياء من جريمة الزنا، وهى دون الشرك بالله؟

والجواب: أن فى بعض الصغائر والزنا من الكبائر قبحًا وشناعة؛ تشمئز منه النفس، وتنفر منه الطباع السليمة أنفته المرأة الحرة، التى جاءت إلى النبى ﷺ مسلمة تبايعه، فلما نهى عن الزنا قالت: أوتزنى الحرة يا رسول الله!

إنها حرة كافرة كانت أو مسلمة، ودماء الحرة تأبى الزنا ولا تفهمه، ترفض أن تكون رخيصة ذات هوى بغيض، يفترشها رجل يعرف أن للوصول إليها سبيلاً صحيحًا هو الزواج.

الزواج الذى عرفته الفطرة، يأتى الرجل خاطبًا متوددًا راغبًا، ويعرض نفسه، اسمه ولقبه، خلقه ومنزلته فى قومه، وثروته وما عنده، وإن شاءت قبلته وإن شاءت اعتذرت، فإن قبلت ساق إليها صداقها من الإبل فتهادت النوق، ومضى الحادى ينشد آيات السعادة فى زفاف الخير، وسوقه إليها، وتدخل بيته بصحبة وليها ونسائها

وقد جليت من أجله وتجملت، وهيئت واستعدت، فاستمتع بها واستمتعت به، وولدت له أحرارًا رجالاً ونساء يرثون الغر والشرف والمجد ومكارم العادات «ومن

---

(١) الفرقان: ٦٨.

يشابه أباه فما ظلم» تلك هى الحياة التى لا دعاوى فيها للنسب، ولا إرهاق فيها لإثبات ولد، إنها حياة الأحرار.

وهيهات أن تتساوى تلك الحياة ولحظات يعيشها الآثمون فى جنح الظلام أو فى غيبة الرقيب، تنتهك فيها الأعراض، وينهش فيها اللحم والذى غلا مقداره عند الحرة ورخص عند الدنيئة، كرمه الله تعالى فأهانته صاحبته، ونصبت من أجله أسواق العزة والكرامة، فباعته صاحبته خارج تلك الأسواق الشريفة فى الحارات الضيقة وعلى فراش القذارة والنجاسة.

ولم تزل برغم التطور الذى هو فى الحقيقة تدهور لا تطور لم تزل تعترف بأنها غلطة، وخطيئة، برغم هذا التدهور الذى أطلق عليه لفظ «حب» وما هو بحب، فإن الحب يسمو بالنفوس لا يتهاوى بها بين الرذائل وألوان القبح.

وفى سورة لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾[1] نهاه عن الشرك، وفى سورة الإسراء: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[2] .

فنهى عن الشرك مباشرة، ولكنه نهى عن قرب الزنا وقد قال العلما: إن النهى عن قربه أبلغ من النهى عنه، لأن النهى عن قربه أوكد، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

لقد بالغ أحد الناس فى تصوير كرهه لرجل، فقال بعد أن كان يصله ويزوره، ويأكل معه ويشرب، وينام فى بيته ويصحو ويبادله حبًا بحب، وعطفًا بعطف، فلما كرهه قال:

(إننى لا أمشى فى الشارع الذى يسكن فيه)

وهذا يدل على منتهى بغضه له باعتبار الفرق الذى ذكرناه بين الكره والبغض، وهذا يوضح لنا معنى الالتزام بالنهى فى قوله تعالى «ولا تقربوا الزنا».

معناه ألا يمشى فى سبيله، وألا يميل إلى خلوة ولا ينشئ علاقة، ولا يتجاوز

(١) لقمان: ١٣.
(٢) الإسراء: ٣٢.

الحديث المعتاد مع امرأة أجنبية إلى حديث غزل ووصف ومدح وغيره مما تستمال به القلوب، وتهفو إلى سماعه الآذان، وتدنو إليه النفوس، وتتطلع، وقد نهى الله - عز وجل - عن خضوع المرأة بالقول فإن ذلك يُطمع فيها مريض القلب، فيسعى إلى تلك الفاحشة معتقداً أن لها فيه رغبة، وهو جاهز؛ لأن فى قلبه مرضًا.

وحين جاء الروح «جبريل» إلى مريم وهى وحدها متمثلاً بشراً سويًا كان أول ما قالت ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[1] استعاذت بالله من شر بشر اقتحم عليها خلوتها، فما عسى أن يقول لها؟ وما الذى يرجوه منها؟ فكرت أول ما فكرت فى شرفها، لم تقل له: كيف وصلت إلى؟ ولا كيف دخلت علىّ؟ ولا ما هذا؟ ولا مالك؟ ولا نحو ذلك من العبارات، فإن ذلك ليس من البلاغة.

والبلاغة بلاغتان، بلاغة اللسان وبلاغة الدين، وبلاغة اللسان يعرفها من تعلم ضروب الكلام، فأعد المقال المناسب للمقام الذى هو فيه، وقد تخونه العبارة ويسبق لسانه بما لا يعنيه قلبه، قد يغيب عنه الشاهد الذى يريد أنْ يتمثل به، وقد يكون فى وقت أبلغ منه فى وقت، ومن ثم يقول العلماء إذا ما هدوا إلى القول البليغ، واستحضروا ما أودعه الله - عز وجل - فيهم هذا فتح من الله عز وجل. أى نعمة كبرى مع أنهم لم ينزل عليهم وحى، وإنما كانوا موفقين، فإن حدث العكس ووجد العالم العلامة نفسه عاجزاً عن إدراك ذلك قيل فيه (غلق عليه).

أما بلاغة الدين فما أيسرها وما أشد انتظامها ولزومها إنها ليست بلاغة ألفاظ، وإنما هى بلاغة قلب يحب النظافة ويكره النجاسة، قلب يحب الجمال - وما فى الزنا من جمال - ويكره القبح، صعب عليه، فهو لا يقدم عليه طواعية أبدًا إنه يبغضه، وتشمئز نفسه منه، وهى بلاغة كلماتها محصورة فى «نعم» للحلال، و«لا» للحرام، انظر إلى قوله تعالى من سورة فصلت: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2].

ومن ثم قالت مريم: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ﴾ كأنها قالت يا رحمن ارحمنى

---

(١) مريم: ١٨.
(١) فصلت: ٣٦.

من هذا الطغيان والعدوان، ومن ذكر الرحمن فقد استذكر ما يترتب على الإثم من عقاب، وقد استحضر الأهوال الناشئة عن القاذورات والتى لا ينجيها منها إلا الرحمن الرحيم - عز وجل.

فلما بشرها بغلام طاهر هو آية قالت ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[1]، عرضت وهى فى مكان البشارة صحيفة أحوالها، فهى الطاهرة التى ما مسها بشر، وما كانت بغيًا أى زانية.

وقد تحفظ الجاهليون الذين عبدوا الأصنام، وافتخروا بها على المسلمين فقالوا: لنا العزى ولا عزى لكم، فأمر النبى ﷺ الصحابة - رضوان الله عليهم - أن يردوا عليهم فقالوا: بم نرد يا رسول الله؟ قال: قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم».

هؤلاء تحفظوا حين بنوا الكعبة على أن يدخلوا فى بنائها مهر البغى، أى أجرة الزانية، استقبحوا ذلك المال الحرام وآثروا أن يكملوا بناء الكعبة على قواعدها الأولى، قواعد إبراهيم عليه السلام بهذا المال البغيض مال الماء المراق على فراش المهانة، ولم يضموا حجر إسماعيل، وظل ذلك شاهدًا إلى الأبد على أن الطيب قائم، والخبيث مردود.

ومن أجل ذلك حفظ الله - عز وجل - عرض نساء الأنبياء، كفرت امرأة نوح، وكفرت امرأة لوط وأصابها ما أصاب المجرمين، وكانت من الغابرين، عجوزاً غضب الله عليها وعذبها وأهلكها مع الذين كانوا يفعلون الخبائث.

قال الله - عز وجل - فى سورة الحجر: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾[2] وذلك بعد قوله تعالى: ﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ۝٦٠﴾[3].

كفرت امرأة نوح وما زنت، وكفرت امرأة لوط وما زنت، فهلا قالت المرأة المسلمة: اللهم إنى أعوذ بك من الشرك والزنا جميعًا!

---

(١) مريم: ٢٠. (٢) الحجر: ٦٥. (٣) الحجر: ٥٩ و٦٠.

ابنتا شعيب

وفى سورة القصص جاء حديث القرآن الكريم عن بنتى شعيب، قال الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾[1] .

امرأتان، أختان، أبوهما شيخ كبير، احتاجت حركة الحياة إلى خطواتهما فانطلقتا لأداء عمل لابد من أدائه، فالراعى شيخ كبير لا يقوى على ذلك، لكنهما لا يزاحمان الرجال، بل ينتظران حتى يفرغ المكان، لابد أن تتحلى المرأة المسلمة بهذا السلوك.

ولابد لأولى الأمر المسلمين من مراعاة ذلك إنْ أرادا إصلاحًا.

إن المرأة التى تعجن وسط الرجال فى وسائل المواصلات مشهدها لا يرضى الله ورسوله، وهذا من ثمرات الفقر، والمرأة التى تجلس فى قاعة العلم بين الشباب مشهدها لا يرضى الله تعالى، ورسوله ﷺ.

لقد كان الرجال فى حضرة رسول الله ﷺ فى المقدمة، وكانت النساء وراءهن، لا انتقاص فى ذلك ولا غصة فى حلق أحد، إنما هو النظام والكرامة، لا بأس أن

(١) القصص ٢٣ وما بعدها.

يحضر الشباب والفتيات فى قاعة العلم الواحدة بشرط أن يكون جانب للرجال وجانب للنساء، أما أن يحتك رجل بامرأة وأن يكون فخذه إلى فخذها، وذراعه ملتصقًا بذراعها فلا يجيز ذلك عالم يتقى الله عز وجل، ولا ذو مروءة وفضيلة بمنتهى الإيجاز والدقة.

والفقر بلا شك من أهم أسباب هذا التداخل والتلاطم واتزاحم والمعجنة.

ومن عجب أننا نجد ما يسمى بقاعات الفرح الإسلامية، وكل ما فيها من إسلام أن يجلس الرجال فى قاعة وأن تجلس النساء فى قاعة أخرى، وكل سنة وأنت طيب، من الرجال؟ ومن النساء؟ إن بعضهم أزواج بعض، وأعمام بعض وأخوال بعض، وقد جاءوا فى سيارة واحدة فلماذا فرقناهم فى ساعة تسمى الفرح.

خطاب جامع مانع:

وفى قول إحدى ابنتى شعيب ردٌّ على سؤال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ما خطبكما؟ وهو «لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير» نجد ما يسمى الجامع المانع، كان للحوار صور مختلفة يعرفها الناس، من التعارف، والتآلف ورد عن السؤال بسؤال، كأن تقولا له: وأنت ما خطبك؟ لقد عرفت حالنا فما حالك؟ وما اسمك؟ ومن أى بلد أنت؟ ولا نحن ما رأيناك قط هنا؟ أأنت من حى قريب؟ ألديك غنم مثلنا؟ وغير ذلك مما يجرى اليوم وكل يوم ومع التطور المزعوم تتبادل أرقام الهواتف، وتتم الصحبة وما بعدها معروف من سوء وفحش.

ولكن هذا حالنا: نسقى، ولكن بعد أن يهدأ المكان فإننا لا نزاحم الرجال، ولكيلا تسألنا عن رجالنا فإنا نقول لك إن لنا أبًا ولكنه شيخ كبير، ويقتضى قولهما «وأبونا شيخ كبير» أنه لا يقوى على أداء هذا العمل الذى نؤديه نيابة عنه، قول مفيد مختصر جامع مانع، يسد الطريق أمام سؤال جديد.

وفى حديث البخارى وغيره - وهو معروف - الذى ورد فيه أن امرأة جاءت بعض أصحاب رسول الله ﷺ وقالت لهم: هل فيكم من راق؟ وقام معها أبو سعيد

الخدرى ورقاه بفاتحة الكتاب فشفى، هناك عبارة لا يذكرها كثير من الناس، وهى قولها لهم «إن رجالنا غيب» أى غائبون، كما قال تعالى فى خواتيم سورة الفتح ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾[1] أى راكعين ساجدين.

وكأنها تقول لهم: إنما جئت إليكم لأن الرجال غائبون فلو كان الرجال موجودين لجاءكم رجل، دائمًا نجد من المرأة حرصًا على سلامة قصدها وحركتها، وقدومها على الرجال، إنها غير ذات جرأة وإقدام على الأجانب الذى تسامح فيه الناس اليوم.

قالت فتاة: سكن إلى جارنا شاب جاء إلى القاهرة من أجل التعليم فى الجامعة، وكان أبى يستدعيه ليتناول معنا الطعام رحمة به وبرًا، فكان أبى يقول:

مَنْ يناديه؟

فكنت أرفع يدى وأقول: أنا.

وكنت أجرى إليه، وأدعوه إلى طعامنا.

ومع الأيام حملت منه، وكان أبى السبب، ما قال لى والدى.. لا، لا يصح أن تذهبى وحدك إلى شاب يسكن وحده، إنما يذهب إليه أخ من إخوتك الثلاثة وكلهم فى سنه ويعتبرون زملاء له.

قالت لها إحدى الصحفيات: أهذه نتيجة الثقة، لقد وثق فيك أبوك، فضيعته.

وهذا كلام فارغ، ما للثقة من شأن فى هذا العبث، فالنفس البشرية ضعيفة، والشيطان ينزغ بين الناس، وكما يقول العوام من الناس: لا نضع النار جنب البنزين ونناديه ألا يشتعل، والأخذ بأسباب الصون والعفة لا يتنافى مع الثقة.

وامرأة أخرى تقول: لا شىء يمنع المرأة إن أرادت أن تفعل شيئًا فعلته رغم المنع والقيود.

صحيح يا خالة، ولكن هل يعنى ذلك أن يترك لها الحبل على الغارب؟

---

(١) الفتح: ٢٩.

هل يعنى ذلك أن نقول لها: ما دمت قادرة على فعل الفاحشة وأنت من وراء جدران السجن الذى هو البيت، وأن لديك من الحيلة والمكر والقدرة على أن يقتحم عليك شيطان بإرادتك هذا البيت المصون، بأن يرتدى زى مصلحى الهواتف، أو يرتدى زى محصلى فواتير الكهرباء، لتخرجى لسانك لمن منعك الخروج وتقولى له: ها أنا ذا قد انتصرت عليك، لا، لا تفعلى ذلك وها هو ذا بابك مفتوح، وطريقك مفضوح، وناصحك من مثل هذه المرأة منصوح، فانزلى تحت السلم أو ارتقى فوق السطوح، على راحتك فالأمر موكول إليك!

هذا ليس منطق عاقل، ولا هدى دين، إنه مسوغ للفحش، وفتح باب للقبح، فقد قال الله عز وجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(١) .

وسقى موسى عليه السلام لهما

وسقى موسى عليه السلام لهما - قال الله - تعالى -: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾(٢).

موقف نبيل من رجل نبيل صنعه الله - عز وجل - على عينه، وبعض الناس يحقد على المرأة كما يحقد على الرجل، يقول لها: أنا وأنت مثلان، راتبك أعظم وأكبر من راتبى، وقد خرجت للعمل فتحملى.

كان الناس منذ ثلاثين سنة فقط إذا وجدوا امرأة عجوزاً أو فتاة قاموا من أجل أن يجلسوها مكانهم فى وسائل المواصلات، واليوم نراهم قد افتقدوا هذا الخلق.

بل إن رجلاً دعته امرأة إلى عدم مضايقتها، وقالت:

- عيب عليك، فقال لها:

- تحملى أو اقعدى فى البيت.

---

(١) التوبة: ٧١. (٢) القصص: ٢٤.

خيار غبى من ذى صدر لا يحمل فيه رحمة ولا يطوى داخله من بر، خيار بين الإهانة وتحملها وبين القعود فى البيت.

قد تكون أرملة تسعى على أيتام، ولا عائل لها، وقد تكون ابنة شيخ كبير، اعتل فمرض ولزم البيت وقد هجره أبناؤه الرجال، ولا عائل له سواها، صاحبة عذر يا هذا لو قعدت لماتت جوعًا خصوصًا فى زمان مثلك فيه، ومثلك لن يطعمها ولن يقضى لها حاجة.

لو أن كل إنسان نظر إلى ما عند غيره على أنه أكثر مما عنده فلم يقدم له خدمة، ولم يصنع له معروفًا لما خدم أحدٌ أحدًا.

إن بعض النبلاء - وهم بلا شك موجودون يقدمون جهدهم خدمة لغيرهم، فإذا ما أراد هؤلاء أن يقدموا إليهم مكافأة لهم شيئًا من المال امتنعوا وأبوا، مع شدة حاجتهم إلى مثل هذه المكافأة.

والمسلم مأمور بأن ينفع أخاه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأخته أولى إن احتاجت.

لقد هاجرت أم سلمة ﵂ وحدها فرآها رجل، هو عثمان بن طلحة - وكان على دين قومه يومئذ فقال لها: إلى أين؟

قالت: إلى المدينة أود اللحاق بزوجى.

فقال: والله مالك من مترك، يعنى كرامتى لا تسمح لى بأن أتركك هكذا ترتحلين وحدك، والطريق طويل والخطر أقرب من الأمن، والهلاك محتمل دون النجاة، وصحبها ومدحت خلقه واستقامته، فما حاورها وما ضايقها وما غازلها وما اعتدى عليها، كلمات يسيرة كان ينطلق بها لسانه عند المكث للراحة، وعند الاستعداد لاستكمال المسير فلما وصل إلى قباء، قال لها: زوجك فى هذه القرية فادخليها بأمان الله، ثم عاد أدراجه إلى مكة.

تلك أخلاق الرجال، وقد كانوا على دين الشرك، إن مثل عثمان بن طلحة لو قتلها لما طالبه أحدٌ بدية، ولو اعتدى عليها لما قام فى وجهه قانون ولا نظام، والأمة

الحاكمة فيها أبو جهل، وهم يبغضون كل من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله فلن يثأر لها أحد، وأهلها كارهون خروجها، وما رق لها إلا ابن عم لها نصح لهم أن يتركوها لتلحق بزوجها أبى سلمة، ويتخلصوا من بكائها، وكلهم يدرك أن الخطر محدق بها، فما عسى أن يقول واحد منهم لمثل عثمان بن طلحة كلمة سوء، لكنه قدر الله اللطيف بعباده وخلق الرجال.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يحلب لجيران له وهو مَنْ هو، فلما ولى الخلافة بعد انتقال رسول الله ﷺ قالت النسوة: لن يحلب لنا، فقال: لا، سوف أحلب وأرجو الله تعالى ألا يغيرنى ما وليته عن شىء كنت أفعله. وكان يقول لغلام له: اسألهن، إن كن يردن اللبن برغوتة أم بدون رغوة.

هذا معنى نفع الناس بعضهم بعضًا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً حتى لو كانوا على ذروة الأمر، ووراءهم من الأمور ما وراءهم مِنْ القضايا التى تتعلق بها مصلحة أمة، ونشر دعوة وتبليغ كتاب عزيز وسنة غالية؛ يحفظان على الناس حياتهم ودماءهم وأموالهم وأعراضهم.

وجاءته إحداهما

وما كان لإحداهما أن تأتى إلا بعد أن قصتا على أبيهما ما كان منه وما كان منهما، وهذه اللغة لابد منها، فبعض الناس لا يعرف ماذا جرى لبناته فى وقت طويل، كن فيه خارج المنزل، فى جامعة أو معهد أو عمل، تدخل البنت مكتفية بالسلام إن سلمت، ثم تأوى إلى حجرتها على صمت لا تحكى مع أحد، ولا يسألها أحد: أين كنت؟ وماذا جرى؟

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾[1].

والحياء من الدين، مر النبى ﷺ برجل يعظ أخاه فى الحياء، فقال له: دعه، إنما الحياء من الإيمان.

---

(١) القصص: ٢٥.

حاملة رسالة أبيها

والتى جاءت على استحياء نقلت إلى موسى رسالة أبيها وافية دون نقصان ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[1] بلاغة متناهية ورسالة جامعة مانعة، نسبت القول إلى صاحبه، دون تدخل منها بزيادة أو تحريف.

شهادة حق ونصح

والمرأة التى عرفها الناس مصدر فتنة، وحديث شهوة عرفها القرآن الكريم عقلاً ونصحًا وشهادة حق ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[2] ولم يقل لها أبوها: اسكتى، ولم يقل لها: كيف عرفت ذلك؟ لقد قالت فسمع واستجاب، وكان الخير له ولها ولأختها ولموسى عليه السلام، وذلك درس من دروس حديث القرآن الكريم عن المرأة.

المرأة أهل الرجل

ودون اهتمام من النظم الجليل بمن تزوجها موسى، هل تزوج بالتى جاءته أو الأخرى، المهم أنه تزوج إحداهما، وقضى الأجل، ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾[3] صارت المرأة أهلاً للرجل بالزواج دون سواه، فليس هناك علاقة تربط بين الرجل والمرأة غير الزواج فى المعاشرة والحقوق المعروفة، وهناك علاقات أخرى معتبرة كالزمالة فى العمل والصحبة فى الطريق والجوار وغيرها، ولكن لكل علاقة ضوابطها وكرامتها، فإذا صارت المرأة أهلاً للرجل بالزواج فنعم العلاقة، ونعم الشرف شرفها، وكان عليه وعليها المحافظة على مقتضيات تلك الأهلية التى تقرب ولا تبعد، وتدعو إلى العطاء لا إلى المنع.

اخت موسى

جاء حديث القرآن الكريم عن أخت موسى فى سورة القصص، حيث قال

---

(١) القصص: ٢٥. (٢) القصص: ٢٦. (١) القصص: ٢٩.

الله تعـــالى: ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِه قُصِّيه فَبَصُرَتْ به عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْه الْمَرَاضعَ من قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصحُونَ (١٢)﴾[1] .

قُصِّيه: اتبعى أثره، بعد أن وضعته فى اليم، وسلمته إلى قدره المكتوب، الذى كان مكتوبًا بالفعل، لأن الله - عز وجل - هو الذى قال: فألقيه فى اليم.

لم تقل أم موسى ولا أخته: الأمر قد جاء والوحى قد ألقى فى روعى، فلماذا أكلف أخته بمتابعة أثره، ولماذا؟ ولماذا؟ كل ذلك لم يكن، وفيه إشارة بليغة إلى معنى من المعانى التى تغيب عن كثير من الناس، وهو الأخذ بالسبب الذى لا يتنافى والتوكل على الله عز وجل.

والأخوة متجلية فى قصة موسى عليه السلام فأخته تتبع أثره، وأخوه هارون أرسل معه إلى فرعون، إن من الناس من يكتفى بقوله فى كثير من الأمور: «هذا أمر الله» ثم يتولى دون أن يفعل شيئًا، قد ينظر إلى إنسان مصاب، مبتلى، ثم يقول: «هذا أمر الله وقضاؤه» ثم يتولى، دون أن يقدم له مساعدة، وتلك مأساة المفارقة بين منهج الحق، والتطبيق.

لقد قالت أم موسى عليه السلام لأخته قصيه فقصته، وبصرت به عن جنب، وهذا التعبير يدل على رباطة جأشها، وقوة احتمالها، ورجاحة عقلها، وسمو هدفها الذى سعت إليه على حرص وحيطة.

موقف بطولى وهى فوق المواقف البطولية المعروفة، لو أن أختًا أخذها الحنين، فصرخت وبكت وولولت، لعرف الناس الأمر، واطلعوا على السر، وكان ما كان من ضياع.

لقد مضت أخت موسى على حذر تحمل قلب أمها، ربطته بعقلها ووجدانها، كانت عين أمها، ولابد أن تجد فى تلك العين معناها، ومعناها أن تراه فى منأى عن الأخطار، وفى سلامة من الأشرار.

---

(١) القصص ١١ و ١٢.

ولو علمت أمها أنها فتاة تنهار، يكشف انهيارها من الأسرار ما لا يكشفه النهار لما قالت لها قصيه، ولكنها ذرية بعضها من بعض، لقد قامت أخت موسى مقام فرقة من المخابرات العملاقة ذات الخبرة والكفاءة، حيث بصرت به عن جنب وهم لا يشعرون.

عبقرى ذلك الإنسان الذى يبصر عن جنب وهو القريب، ذلك الذى يتظاهر أنه فى وادٍ ومن يراه كأنه لا يراه فى واد آخر، وذلك لا يتأتى إلا من خلال نظرة عبقرية.

تلك النظرة العبقرية المفتقدة فى زماننا، حيث إنَّ عينًا تراك، تنظر إليك، إذا دققت النظر فيها وجدتها محدقة، تظن أنك فيها ولو أدركت الحق لوجدت نفسك أبعد ما تكون عنها، إنها تتجه إليك ولكنها لا تراك، وأنت خبير بأنَّ ذلك ممتد إلى أمة متجاورة، يرى بعضها بعضًا يتمزق، يتقطع أشلاء ولا يفعل من أجله شيئًا.

كانت أم سعد بن معاذ تضع قصعة من طعام، وتضعها على باب رسول الله ﷺ ثم تنصرف، فهى ترى رسول الله ﷺ بهذا الصنيع قد يجلس إليك إنسان، وينظر إليك، لكنه لا يخرج من جيبه شيئًا لك، فهو لا يراك وإن كان ينظر إليك.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ قال العلماء لا ينظر إليهم نظر رحمة، فالله - بلا شك - لا تخفى عليه خافية، فهو ينظر إليهم، لكنه لما حجبهم عن رحمته نفى نظره إليهم، قال تعالى فى سورة آل عمران: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

معنى ذلك قد يتصوره الأبله بأن الله تعالى يعرض عنهم كما يعرض أبوه عنه عند الغضب، يعطيه ظهره ويبعد عنه عينيه فلا ينظر إليه، أو كما يقول العوام من الناس «لايعطيه وجهًا»، وهذا غير محقق ولا متوقع من الحق - عز وجل - فالله تعالى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير.

(١) آل عمران: ٧٧.

إن الدرس الذى تتعلمه الأمة الإسلامية من موقف أخت موسى أن العبرة بالأثر، وليست العبرة بالنظر، أى بالنظر الحسى المعروف، وهو التوجه بالجارحة إلى المرئى، دون أن يفعل الناظر شيئًا.

وكم وراء هذا المعنى من مآسٍ، حيث تقول فتاة اليوم، إن زوجى لا ينظر إلىَّ، لا يرانى، لا يمدحنى، لا يثنى على جمالى، لا يصف ما يراه فىَّ من أنوثة، لا يظل طويلاً معى، إننى ميتة، إنه لا يحبنى.

ولمثل ذلك نقول: أدركى الحق ولا تظلمى، وكونى على وعى بأن غاية النظر العمل، ودوام الحياة بينكما. وقد نصح النبى ﷺ للرجل الذى خطب امرأة من الأنصار دون أن يراها فقال له انظر إليها، فذلك أحرى أن يؤدم بينكما.

إذن حدد النبى ﷺ الهدف من النظر، وهو أنه سبب لدوام الحياة بين الرجل والمرأة، لم يكن له من هدف المتعة والاستمتاع والغزل وما تصرخ به فتاة اليوم من نصيب.

صحيح أنه ينظر من أجل أن يراها فتنطبع صورتها فى نفسه، ويجد فطرة الله - عز وجل - فيها فيحبها، ولكن ثم ماذا بعد الحب!

أهو مجرد التعلق القلبى والوجدانى؟ أم أن له مقتضى، هو دوام العلاقة بين الأحبة، واستمرار العشرة، وقد نظر إليك زوجك حين عمّر بيتك بالخيرات وهذا ليس معناه أن يعرض عنك، وليست هذه دعوة إلى تجاهل ما فيك، ولكنها الدعوة إلى الصواب.

لقد أحب الصحابة رسول الله ﷺ حبًا عبر عنه أبو سفيان وهو يومئذ على دين قومه فقال: ما رأيت أحدًا أحب أحدًا كما أحب أصحاب محمد محمدًا. قال ذلك لما قال زيد بن الدثنة: ما أحب أن تصيبه شوكة وأنا مطمئن فى أهلى.

لم يكن زيد ساعتها ينشد قصيدة عصماء فى وصف حسى للنبى ﷺ ولا يعبر عن حبه له بكلمات، ولكن فى موقف القتل، حيث غدر بزيد بن الدثنة، ولما جاءوا

به ليقتلوه سألوه: أتحب أن محمدًا مكانك الآن وأنت آمن فى أهلك فقال ما قال. ومع هذا الحب الذى شهد به الأعداء، والفضل ما شهدت به الأعداءُ، مع هذا الحب الكبير ما ملأ أحد عينيه من رسول الله ﷺ مهابة له.

نعم، ما ملأ أحد عينيه منه ﷺ ولكن ملأ كل واحد منهم قلبه حبًا لرسول الله ﷺ وطاعة له.

وحين قدم ﷺ المدينة المنورة وكان الناس فى انتظاره وهو أفضل وارد، وأنبل قاصد، وأسمى مهاجر، وأشرف مناصر رأى الناس رجلين رسول الله ﷺ وأبا بكر الصديق رضي الله عنه فعرفوا رسول الله ﷺ من خلال ثوب أبى بكر الذى كان يظلل به رأس رسول الله ﷺ.

هذه هى العلاقة، وهى علاقة الحب الحقيقى أن يستر المحب رأس حبيبه من الحر بثوبه، لا أن يحدق فيه ويتأمل بينما حرارة الشمس تؤذيه.

لم يقل واحد منهم: إذا رأيتم رجلاً ينظر فى رجل فالناظر هو الصديق، والمنظور هو رسول الله ﷺ.

إن القوم كانوا على علم بصحة المعانى وحقائق الأشياء، كما كانت أخت موسى عليه السلام على علم بالمهمة وما تقتضيه، فقد تابعته حتى حققت الغاية ودلت القوم على أهل بيت يكفلونه لهم وهم له ناصحون، وكانت أحد جنود الله عز وجل لبلوغ مراده، مع أننا نؤمن أن أمره تعالى إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، لكنه فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

امرأة أبى لهب

وفى سورة «المسد» يتحدث القرآن الكريم عن امرأة أبى لهب فى صحبة زوجها الذى تبت يداه وتب لقوله للنبى ﷺ «تبًا لك». قال جبريل وقد نزل بها: كم مرة قالها لك؟ فقال النبى ﷺ : مرة واحدة، فقال جبريل: خذها يقرؤها الناس إلى يوم القيامة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ

نارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾(١) .

قيل: كانت تحمل الحطب وتضعه فى أذى رسول الله ﷺ .

وقيل: حمالة الحطب: تمشى بالنميمة.

وقد ضرب ذلك فى كل من يمشى بالنميمة؛ لأنه يحمل مادة الاشتعال بين الناس بهذا الذى يظنه حديثًا وكلامًا. إنها أم جميل التى بالغت فى أذاه ﷺ فهى التى أشارت على ولديها عتبة وعتيبة بتطليق رقية وأم كلثوم كيدًا للنبى ﷺ وصرفًا له عن دعوته. وقد كان. ولكنه ﷺ لم ينصرف عن دعوته وهيهات، لم يكن الرجال فقط يؤذون رسول الله ﷺ بل كانت النساء أيضًا.

وكما هاجر مؤمنون بالله هاجرت مؤمنات بالله، وكما عاند وآذى رجال عاند وآذى نساء، فالمرأة لها نشاط فى الشر كما أن لها نشاطًا فى الخير.

وقد روى فى السير أن أم جميل امرأة أبى لهب قد جاءت من فرط غيظها وشدة بغضها للنبى ﷺ ومعها حجر تريد أن تضرب رأس رسول الله ﷺ به، وكان النبى ﷺ جالسًا إلى جنب أبى بكر، فأعمى الله - عز وجل - عينيها عن رسول الله ﷺ كما أغشى الكافرين عنه فهم لا يبصرون ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾(٢).

وخاطبت أم جميل أبا بكر ﷺ وسألته عن محمد ﷺ وقالت له:

أين صاحبك؟

ثم عللت مجيئها على تلك الهيئة وعلى هذا الاستعداد بأنه ﷺ يسب آلهتنا، وقالت أنا شاعرة كأنها تقول: أيظن محمد أن أحدًا لا يستطيع أن يرد عليه انتصارًا للآلهة أنا امرأة، وشاعرة، وأرد عليه، وقالت:

مذممًا عصينــا وأمــره أبينــا

ودينــه قلينــا

(١) سورة المسد.

(٢) يس: ٩.

ثم انصرفت، وكانت على شاكلة قريش إذا أرادت أن تذم رسول الله ﷺ قالوا (مذمم) على وزن محمد، وفى ذلك روى البخارى وغيره وذكر السهيلى فى الروض الأنف ٢/ ١٠٤ أن رسول الله ﷺ قال: «ألا تعجبون لما يصرف الله عنى من أذى قريش يسبون ويهجون مذممًا وأنا محمد».

وفى هذا الحديث ردٌّ جميل، وصرف لهمة النيل من الذين يسبون النبى ﷺ لأدنى ملابسة، ولقد رأيت أن الذين رسموا مسىء الرسوم فى حق النبى ﷺ من فنانى الدنيمارك وغيرهم على هذه الشاكلة، والقياس على ما حدث من أم جميل قياس صحيح مائة بالمائة، حيث إن أم جميل كانت تقصد رسول الله ﷺ بلا شك ولكنها ما قال محمد عصينا ودينه قلينا أو أبينا وإنما قالت مذممًا، فعد ذلك ﷺ صرفًا من الله الأذى عنه.

ورسام الكاريكاتير يقصد محمدًا ﷺ كما قصدته أم جميل، ولكنه أيضًا ما رسم صورة محمد ﷺ إنما رسم صورة شخص قبيح، والنبى ﷺ كان كفلقة القمر، هو يقصد النبى ولكن ما رسمه ليس على شكل النبى.

فما بقى على المسلمين إلاَّ أن يدافعوا عن النبى ﷺ دفاعًا صحيحًا، لا أن يقوموا بمظاهرات واحتجاجات ويعطلوا الدنيا ويحرقوا السفارات، ويخربون بيوتهم بأيديهم، والدفاع الصحيح عنه ﷺ يكون برفع راية المجد، والغلبة، والتقدم، فإن القضية مرجعها إلى ضعف المسلمين لا أكثر ولا أقل ، ولو كان غير المسلمين عالة على المسلمين لما قدر واحد منهم أن ينال منهم، فضلاً عن نيله من إمامهم وحبيبهم وقدوتهم ﷺ . لكن لما كان المسلمون متأخرين، يأخذون المعونة من غيرهم، وعرفوا كيف يستهلكون ولا يعرفون كيف ينتجون، ويستوردون ولا يصدرون، وعرفوا طريق المرض ولم يعرفوا طريق العلاج، إنما العلاج عند غير المسلمين، والمال عند غير المسلمين، والسلاح عند غير المسلمين، وحين تمشى دولة على غير هواهم تفرض عليها العقوبات، وبتنا نسمعه تحت عنوان: «النفط مقابل الغذاء» ومعنى هذا أن أرضنا الصالحة أو التى كانت صالحة للزراعة ليس فيها غذاؤنا، كل ذلك يجعلهم يفعلون ما يشاءون.

وقد ورد فى الكتاب العزيز نصان، الأول فى سورة التوبة والثانى فى سورة الكهف يكشفان عن حقيقة تلك القضية، أما الذى فى سورة التوبة فقول الله تعالى: **﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً﴾**[١] .

وأما الذى فى سورة الكهف فقوله عز من قائل: **﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾**[٢] .

ومعنى ذلك أن غير المسلمين إذا غلبونا فلن يتقوا فينا ربا، ولن يحفظوا فينا عهدًا، ولن نفلح أبدًا بنص الكتاب العزيز، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فلنعمل إن أردنا إحسانًا وتوفيقًا، فهذه ليست رسالة أمين ناصح، ولا فلسفة عاقل راشد وإنما هى رسالة السماء ووحى الله عز وجل إلى محمد عبده ورسوله ﷺ .

---

(١) التوبة: ٨.

(٢) الكهف: ٢٠.

المصـــــادر

١- القرآن الكريم.

٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم لأبى السعود محمد بن العمارى الحنفى، بتحقيق عبدالقادر أحمد عطا، ط الرياض الحديثة ١٩٨٢.

٣- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر - دار الكتب العلمية بيروت، الثانية ٢٠٠٢.

٤- أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير، ط التوفيقية، ٢٠٠٣م.

٥- الأم للإمام الشافعى. ط المكتبة التوفيقية.

٦- البحر المحيط لأبى حيان ط دار الفكر للطباعة والنشر، ١٣٩٨ هـ. ١٩٧٨م.

٧- البداية والنهاية لابن كثير، بتحقيق محمد عبدالعزيز النجار، ط دار الغد العربى، ط الثانية ١٩٩٠.

٨- تاريخ الطبرى - ط. التوفيقية.

٩- التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة، مكتبة أيوب كانو نيجيريا.

١٠- ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة للطاهر أحمد الزاوى - ط عيسى الحلبى.

١١- الترغيب والترهيب ط عيسى الحلبى.

١٢- تفسير الطبرى ط التوفيقية ٢٠٠٤ (جامع البيان فى تأويل الأحكام).

١٣- التمهيد لابن عبد البر - ط مكتبة ابن تيمية.

١٤- حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى.

١٥- الروض الأنف للسهيلى- ط مؤسسة نبع الفكر العربى.

١٦- سنن أبى داود - ط دار الحديث، القاهرة.

١٧- سنن النسائى بشرح الحافظ: جلال الدين السيوطى وحاشية الإمام السندى - ط دار الريان للتراث ١٩٨٧م.

١٨- الشرح الكبير - ط التوفيقية.

١٩- صحيح البخارى بحاشية السندى - ط دار إحياء الكتب العربية.

٢٠- صحيح مسلم بشرح النووى - ط دار الفكر ١٩٢٩.

٢١- فتح البارى بشرح صحيح البخارى للحافظ، أحمد بن حجر العسقلانى - ط دار التراث المكتبة السلفية.

٢٢- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية لسليمان العجيلى الجمل - ط عيسى الحلبى.

٢٣- فقه السيرة للغزالى ط دار الرحمة ٢٠٠٣م.

٢٤- فيض القدير.

٢٥- الكشاف للزمخشرى - ط مصطفى الحلبى، ١٩٧٢م.

٢٦- لسان العرب لابن منظور - ط دار المعارف.

٢٧- المبسوط للسرخسى - ط. دار الكتب العلمية بيروت.

٢٨- معانى الآثار للطحاوى بتحقيق: محمد الزهرى النجار ط دار الكتب العلمية بيروت، الثالثة، ١٩٩٦م.

٢٩- المغازى للواقدى محمد بن عمر بن واقد- ط دار ابن خلدون.

٣٠- المغنى لابن قدامة مع شرحه - ط دار الغد العربى ١٤١٤ هـ. ١٩٩٤م.

٣١- هذا محمد ﷺ يا محبى لأبى بكر جابر الجزائرى- ط دار الفجر ٢٠٠٣م.

٣٢- هكذا كتبوا - ط الدار المصرية للتأليف والترجمة.

الفهارس

الموضـــوع **الصفحة**

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع الصفحة

I.S.B.N
978-977-453-038-8

DAR AL-KITAB AL-MASRI Cairo	33 Kasr El Nile Street P.O.Box 156 ZIP CODE 11511 Atabah-Cairo Telephone: (202) 23922168 - (202) 23934301 (202) 23924614 Fax: (202) 23924657 Cairo - Egypt Att.: Mr. Hassan El Zein

DAR AL-KITAB ALLUBNANI Beirut	P.O.Box 11-8330 Beirut Lebanon Telephone: (9611) 735732 Fax: (9611) 351433 Att.: Mr. Hassan El Zein

First Edition
A.D. 2010-2011 - H 1431-1432

Email: info@daralkitabalmasri.com
Website: www.daralkitabalmasri.com

HADÏTH AL-QOURÂN 'AN AL-MARÂH

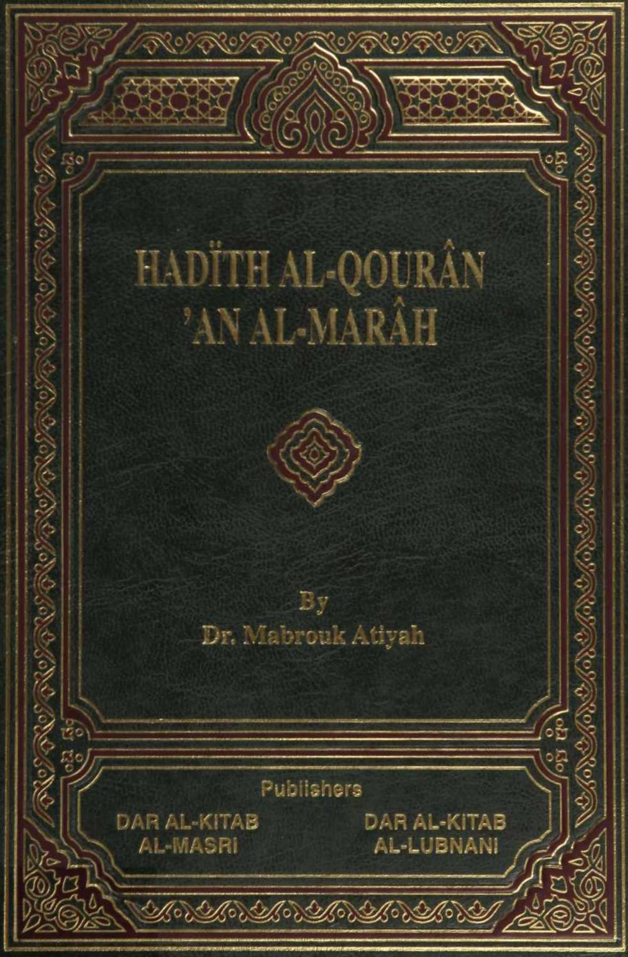
Dr. Mabrouk Atiyah

DAR AL-KITAB
AL-MASRI

DAR AL-KITAB
AL-LUBNANI



HADÏTH AL-QOURÂN
'AN AL-MARÂH


HADÏTH AL-QOURÂN
'AN AL-MARÂH
By
Dr. Mabrouk Atiyah
Publishers
DAR AL-KITAB
AL-MASRI
DAR AL-KITAB
AL-LUBNANI